

فرانسيس هودجسون برنت

الحديقة السرية

ترجمة

شريف الجيار



المركز القومي للترجمة

2553



سلسلة
الإبداع
القصص



المركز القومي للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2553
- الحديقة السرية
- فرانسيس هودجسون برنت
- شريف الجبار
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة:
The Secret Garden
By: Frances Hodgson Burnett

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة
شارع الجبلية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

الحديقة السرية

تأليف: فرانسيس هودجسون برنت
ترجمة: شريف الجيار



2016

بطاقة الفهرسة	
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية إدارة الشؤون الفنية	
برنت، فرانسيس هودجسون - الحديقة السرية / تأليف فرانسيس هودجسون برنت؛ ترجمة شريف الجيار. القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٦ ٣٨٨ ص ؛ ٢٤ سم . ١ - القصص الإنجليزية. ٢ - قصص الأطفال. (أ) الجيار شريف (مترجم) العنوان ٨٢٣	
رقم الإيداع ٢٠٤٣٤ / ٢٠١٤ الترقيم الدولى 978-977-718-905-7 طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية	

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتويات

7	- مقدمة
13	- الفصل الأول: لم يبق أحد
21	- الفصل الثاني: ماري .. ماري عكس الكل
33	- الفصل الثالث : عبر الدغل
41	- الفصل الرابع : مارثا
69	- الفصل الخامس : بكاء في الممر
79	- الفصل السادس : هناك من يبكي .. هناك من يبكي
89	- الفصل السابع : مفتاح الحديقة
99	- الفصل الثامن : أبو الحناء الذي عرفها الطريق
109	- الفصل التاسع : أغرب منزل عاش فيه إنسان
123	- الفصل العاشر : سيكون
139	- الفصل الحادي عشر : عش طائر السمكة
	- الفصل الثاني عشر : هل يمكن أن أخذ قطعة من
151	الأرض؟
163	- الفصل الثالث عشر : أنا كولن

183	– الفصل الرابع عشر: الأمير الهندي
201	– الفصل الخامس عشر: بناء العش
217	– الفصل السادس عشر: قالت ماري «لن أفعل»
227	– الفصل السابع عشر: نوبة غضب
237	– الفصل الثامن عشر: «لا يجب أن تضيعى الوقت»
247	– الفصل التاسع عشر: «لقد أتى الربيع»
263	– الفصل العشرون: سأسعى للخلود.. للخلود»
275	– الفصل الحادى والعشرون : بن وذرستاف»
291	– الفصل الثانى والعشرون : عندما غابت الشمس
301	– الفصل الثالث والعشرون : السحر
319	– الفصل الرابع والعشرون : دعيهما يضحكا
335	– الفصل الخامس والعشرون : الستار
345	– الفصل السادس والعشرون : «إنها الأم»
359	– الفصل السابع والعشرون : فى الحديقة

مقدمة

يعد أدب الأطفال، بسياقاته المتنوعة، جزءاً أصيلاً من الأدب بشكل عام، غير أنه يتميز بكونه يستهدف متلقياً نوعياً، يتمثل في فئة الأطفال، الذين يختصون بمستوى عقلى خاص، وبإمكانات وقدرات نفسية ووجدانية مغايرة للكبار؛ لذا يتسم الخطاب الإبداعى المصدر لهم، بشعرية نصية تميل إلى الوضوح والبساطة والتشويق، والبعد عن الغموض والترميز.

ورغم تنوع الأشكال الإبداعية، فى هذا الجنس الأدبى؛ فإن الخطاب السردى، بأنساقه القصصية والروائية، يحتل مكان الصدارة فى مكتبة الطفل عالمياً، ويحظى باهتمام كبار المبدعين، لما له من تأثير كبير على السلوك القيمى للأطفال؛ حيث إنه يستثير عواطفهم، ويحفز قدراتهم على الابتكار والإبداع.

وفقاً لهذا السياق تأتى أهمية ترجمة رواية "الحديقة السرية" / ١٩١١م، من الإنجليزية إلى العربية؛ لأنها خطاب سردي متفرد، من كلاسيكيات الأدب الإنجليزى، يختص بمرحلة الطفولة المتأخرة

وبداية الشباب، وتعد هذه الرواية من أهم أعمال الروائية والمسرحية الإنجليزية "فرانسيس هودجسون برنت" **Frances Hodgson Burnet** (١٨٤٩ - ١٩٢٤م)، وضمن منجزها الإبداعي الخاص بالأطفال، وما زالت هذه الرواية قيد التداول والانتشار حتى الآن، سواء على هيئة كتاب أو مسرحية أو فيلم سينمائي للأطفال.

ولهذه المبدعة الإنجليزية، الأمريكية الجنسية، إنتاج روائي ومسرحي ثري؛ فمن رواياتها "هاورثز / ١٨٧٩م، لوزينا / ١٨٨٠م، الهمجي الجميل / ١٨٨١م، في أثناء الإدارة / ١٨٨٣م، اللورد فونتلوري الصغير / ١٨٨٦م، سارة كريبو / ١٨٨٨م؛ التي أعادت صياغتها في عام ١٩٠٥م، تحت عنوان الأميرة الصغيرة، عمل الماركيزة / ١٩١١م، الأميرة التائهة / ١٩١٥م". ومن مسرحياتها "أزمرالادا"، و"سيدة أرستقراطية".

والقارئ لهذه الرواية يلحظ أنها بنية جمالية، مميزة بروح الواقعية، في طرح تجربة الشخصية المحورية؛ الطفلة "ماري لينوكس"؛ ذات العشر سنوات، من خلال سياق إنساني يمزج اليأس بالبهجة، والانعزال بالانفتاح، والموت بالحياة، ويتداخل فيه الغموض بالمغامرة، والاستكشاف بالتجريب، في نسق سردي تصاعدي، يتوازى بنائياً، مع مسار تحول وعي هذا النمط الإنساني، وتغير واقعه الأرستقراطي من الإدراك الفردي السلبي، إلى الإدراك الجماعي الإيجابي، وفق تطور الفعل الدرامي للرواية.

إن نص "الحديقة السرية"؛ للكاتبة الإنجليزية "فرانسيس هودجسون برنت"، بواقعيته الفنية، قدم تجربة سردية للأطفال، مفعمة بالإنسانية،

التي يتفاعل معها الصغير والكبير، ويفيد منها السارد العليم في غرس مجموعة من القيم الإنسانية والأخلاقية، في نفوس متلقيه؛ منها الصداقة، والمودة، فضلاً عن قيم العمل والوعى الجماعى وروح التعاون والقيم المعرفية والبناء التربوى والتوازن النفسى واكتشاف الهوايات والمهارات الجديدة وإتاحة الفرصة أمام الطفل فى حل مشكلاته الخاصة؛ إلى غير ذلك من القيم التي تحفظ لهذه الرواية استمرارها فى وجدان الطفل والقارئ بشكل عام، فالأهداف الأخلاقية فى ألب الطفل، تمثل ركيزة محورية فى هذا النوع الأدبى، وهذا ما تناوله السارد فى خطابه اللاشخصى، الممتزج بشعرية زمانية ومكانية، متوازية ومتشابكة مع التحول السوسيونفسى للشخصية المحورية؛ حيث جاءت الطفلة "مارى لينوكس" كنمط إنسانى سردي يعانى من عدم التوازن النفسى، الناتج عن خلل فى المنظومة الاجتماعية والنفسية لطبقته الأرستقراطية، التي عاشت معها فى بيئة الهند، حيث تركتها الأم الجميلة للخدم المنبوذين لتربيتها، ومن ثم تنازلت أمها عن دورها الاجتماعى والنفسى تجاه طفلتها، التي أصبحت نموذجاً ذمياً يتخلى عنه الجميع، وكان لموت الأم والأب بالكوليرا، دور درامى فى سياق الرواية؛ حيث انتقلت مارى، من واقعها المأساوى فى الهند، إلى بيئة توفر لها التوازن النفسى، تمثلت هذه البيئة الجديدة فى موطن "مارى" الأصلى فى ضيعة ميسلثويت فى ريف يوركشاير الإنجليزى، وانتصر النص للطبقة الفقيرة / أسرة الخادمة مارثا، فى عودة التوازن النفسى لهذه الطبقة الأرستقراطية، وانفتاحها على الحياة مرة أخرى؛ حيث أوكل السارد العليم، للطبقة الشعبية البسيطة فى ريف يوركشاير، مهمة تحمل

مسئولية إنقاذ هذه الطبقة الأرستقراطية الثرية، من هواجسها المرضية، وانعزالها القسرى، والدفع بها نحو الانخراط فى الحياة، والانفتاح على العالم الخارجى؛ حيث لعبت أسرة "مارثا" الفقيرة (يكون والأم سوزان سوربى)، دوراً مركزياً، فى حياة (مارى وكولن والأب آرثشيالد كرافن)، والدفع بهم نحو التحول الإيجابى، والتوازن النفسى؛ حيث بدأت "مارثا" فى حث الطفلة "مارى" - التى تشعر بالوحدة - نحو الخروج من استاتيكية بيت زوج عمته المنطلق، ومحاولة الاندماج فى البيئة الخارجية المحيطة، من خلال اللعب فى الحدائق والمرات "... عليك باللعب خارج المنزل؛ وستكتسى عظامك باللحم، ولن يكون جلدك شاحباً بعد ذلك أبداً". ومارثا فى هذا؛ تمتلك وعياً تربوياً، بأهمية فوائد اللعب للأطفال؛ لاسيما الذين عاشوا حياة الوحدة والانعزال؛ مثل مارى .

وقد صاغ السارد العليم هذه التجربة الإنسانية، فى إطار زمنى حافظ - فى مجمله - على الترتيب السببى التصاعدي للأحداث، حيث بدأ بشتاء الهند المتصل بالواقع البائس لمارى، وانتهى بربيع يوركشاير المفعم بالإقبال على الحياة، لهذه الطفلة ولطبقتها، التى تمثلت فى زوج عمته السيد آرثشيالد كرافن، وابن عمته الطفل كولن، ورغم هذا الترتيب الكرونولوجى للأحداث، استعان السارد فى غير موضع بتقنية الاسترجاع التى ارتبطت، بتذكر مارى لماضيها البائس فى الهند، وحياة القوضى التى عاشتها هذه الطفلة.

أما المكان فجاء منصهراً فى الزمان، ومتقاطعاً معه، فى هيئة زمكان فنى، يمثل بنية سردية إطارية؛ تصور مراحل التطور والتحول فى تجربة الشخصية المحورية "مارى لينوكس"، فى واقعها الاجتماعى والنفسى، ومجسداً لتأثير هذه البنية المكانية، على الشخصية سلباً وإيجاباً، من

خلال ثنائية كبرى تتمثل في "بيئة الهند العدائية" و "بيئة ريف يوركشاير الودودة في إنجلترا"، حيث ارتبطت "الهند" بالقيم السالبة في حياة الطفلة الصغيرة "مارى"، وارتبطت بيئة ريف يوركشاير بالقيم الإيجابية، التي انفتحت فيها حياة مارى، على واقع الصداقة والمودة مع (مارثا ويكون والأم سوربى)، فضلاً عن تلاحمها مع الطبيعة، والحديقة السرية التي أضحت سرّاً محفزاً للمغامرة والاكتشاف، وخروج ابن خالتها من عزلته الناتجة عن هواجسه النفسية، وشعوره بأنه سيموت مبكراً، إلى واقع إيجابى ييبث الأمل والخلود والاكتشافات العلمية.

المترجم

د. شريف الجيار

الفصل الأول

لم يبق أحد

C

حينما أرسلت مارى لينوكس إلى ضيعة ميسلثويت لتعيش مع زوج عمتها، قال الجميع إنها أكثر طفلة دميعة فى العالم. وكانت تلك هى الحقيقة بالفعل. فقد كان لها وجه صغير ونحيف، وكذلك كان جسمها ضئيلاً نحيفاً، وكان شعرها خفيفاً ومتباعداً، أما أسلوب حديثها فكان رديئاً. كان لها شعر أصفر، ووجه شاحب؛ حيث وُلدت بالهند وكانت دائماً مريضة بشكلٍ أو بآخر. أما والدها فقد كان ذا منصب رفيع فى الحكومة الإنجليزية بالهند، وكان دائم الانشغال والمرض، فى حين أن والدتها كانت ذات جمال باهر، وكان كل اهتماماتها تنصب على حضور الحفلات، وأن تستمتع بوقتها مع الأشخاص المرحين. لم تكن ترغب فى أن يكون لها طفلة صغيرة مطلقاً، لدرجة أنها قد أعطتها لمربية أطفال (*) حين ولدتها لتتولى رعايتها، وجعلوا المربية تفهم؛ أنه إذا أرادت أن تُسعد السيدة (**) فعليها بأن تحفظ الطفلة

(*) an Ayah تعنى مربية أطفال هندية .

(**) Mem Sahib كلمة استخدمها الهنود للإشارة إلى المرأة الأوروبية، فى أثناء الحكم الاستعماري البريطاني.

بعيداً عن الأنظار بكل ما تستطيع. ولأنها كانت طفلة صغيرة دميمة مريضة ومشاكسة فقد وضعوها بعيداً عن الأنظار، إنها لا تتذكر إطلاقاً أى شيء مألوف إلا الوجوه السوداء لمربيّتها وللخدم الآخرين من الهنود. ولأنهم كانوا يطيعونها ويعطونها أى شيء تُريد، لأن السيدة ستغضب جداً إذا أزعجها بكاء البنت، فقد أصبحت بحلول عامها السادس مثل خنزير صغير لا يوجد له مثيل فى الأنانية والاستبداد.

وجاءت معلمة إنجليزية شابة لتعلمها القراءة والكتابة، ولكنها لم تحب الفتاة، فتركت وظيفتها بعد ثلاثة أشهر، وحينما أتت معلمات أخريات؛ ليشغلن هذه الوظيفة، كنّ دوماً يهربن فى وقت أقل من الوقت الذى قضته المعلمة الأولى. ولذلك لو لم تكن ماري قد اختارت أن تتعلم بنفسها القراءة، لما كانت قادرة مطلقاً أن تعرف أحرف اللغة الإنجليزية.

ذات صباح شديد الحرارة، حينما كان عمرها حوالى تسعة أعوام، استيقظت من نومها وهى تشعر بحزن عميق، وأصبحت أشد حزناً حين رأت أن الخادمة التى تقف بجانب سريرها لم تكن مربيّتها. فقالت للخادمة: "لماذا تقفين هنا؟ أرسلى لى مربيّتى فوراً".

بدا على المرأة الخادمة الخوف، ولكنها تمتعت قائلة إن المربية لم تستطع المجيء، فاندفعت ماري تركل الخادمة وتضربها، فبدت الخادمة أكثر خوفاً وكررت بأن المربية لم تستطع أن تأتى إلى السيدة الصغيرة.

وكان هذا الصباح يحمل الكثير من الغموض والأسرار. لم يتم أى شىء بالطريقة المعهودة، كما أن الكثير من الخدم المحليين كانوا متغييبين عن المنزل، فى الوقت الذى رأت فيه مارى هؤلاء الخدم يتسللون خلسة أو يسرعون والخجل أو الخوف يرتسم على وجوههم. أيقنت أنها قد تركت وحيدة فى ذلك الصباح، وفى النهاية تجولت فى حديقة المنزل، وبدأت تلعب بمفردها تحت شجرة بالقرب من الشُرْفة. وتظاهرت بأنها كانت تعمل إكليلاً من الزهور، وألصقت أزهار الخبيز القرمزية الضخمة^(*)، فوق أكوام قليلة من التراب، وكانت طوال اليوم تزداد حنقاً على حنق، وتتمتع لنفسها الأشياء التى ستقولها، والأسماء التى ستناديها بـ (سيدى) حينما تعود.

"يا خنزيرة! يا خنزيرة! يا بنت الخنازير!" نادت بتلك الطريقة، حيث إن سب أى مواطن هندي بكلمة "خنزير" هى أقذع سبة على الإطلاق.

كانت تصر بأسنانها وهى تكرر هذه الكلمات مرة بعد أخرى، إلى أن سمعت أمها تخرج إلى الشُرْفة ومعها شخص ما. كانت مع شاب أشقر صغير السن، وكانا يتحدثان بأصوات خفيفة غريبة. عرفت مارى الشاب الأشقر الذى بدا كصبي. وكانت قد سمعت بأنه ضابط صغير جداً قد وصل لتوه من إنجلترا.

حدقت الطفلة فى الضابط الشاب، ولكنها حدقت فى والدتها أكثر، وكانت تفعل ذلك دائماً حين تواتيها الفرصة لرؤيتها، لأن السيدة — كما

(*) أنواع من الشجيرات الاستوائية أو أشجار تبدو ضخمة، ذات أزهار مبهجة بألوان متنوعة.

تعودت ماري على أن تناديهما في أغلب الأحيان - كانت امرأة جميلة طويلة نحيفة، وكانت ترتدي ملابس جميلة جداً. كان شعرها حريراً مجعداً، وكان لها أنف دقيق يبدو كأنه يزدري الأشياء الأخرى، أما عيناها فكانتا ضاحكتين كبيرتين. كانت كل ملابسها رقيقة طليقة و"مملوءة بالأشرطة" كما تقول ماري. بدت الملابس أكثر امتلاءً بالأشرطة في ذاك الصباح عن أي يوم آخر، ولكن عينيها لم تكونا ضاحكتين على الإطلاق، بل كانتا كبيرتين، مملوءتين بالذعر، مصوبتين إلى وجه الضابط الشاب الأشقر وفيهما توسل.

"هل الأمر بهذا السوء؟ يا إلهي .. أهو كذلك؟" سمعتها ماري وهي تتلفظ بهذه الكلمات.

فأجاب الشاب بصوت مرتعش: "للغاية يا سيدة لينوكس .. كان من المفترض أن تذهبي إلى التلال منذ أسبوعين".

كانت السيدة تعتصر يديها. "أوه .. أعرف أنه كان ينبغي على ذلك، ولكنني تأخرت عن الذهاب إلى تلك التلال بسبب حفلة عشاء سخيفة. يا لى من حمقاء!".

في تلك الأثناء، انفجر صوت بالنحيب من مسكن الخدم، مما جعلها تتشبث بذراع الشاب، أما ماري فكانت ترتعش من رأسها إلى قدميها، وكان النحيب يعلو ويزداد.

"ما هذا؟ ما هذا؟" تساءلت السيدة لينوكس بلهفة.

فأجاب الضابط الشاب: "شخص ما قد مات .. ولكنك لم تخبريني بأن هذا الأمر قد وقع بين خدمك".

"لم أكن أعرف!" قالتها السيدة وهى تبكى، ثم قالت: "تعال معى! تعال معى!"، واستدارت وهرعت إلى داخل المنزل.

بعد ذلك، حدثت أشياء مروعة، وغرابة ذلك الصباح تم شرحها وتفسيرها لمارى. فقد انتشرت الكوليرا بشكلها القاتل المخيف، وكان الناس يموتون بكثرة مثل الذباب. حتى إنهم أخذوا المربية فى المساء، وفى الصباح ماتت، وهذا سبب عويل الخدم فى أكواخهم. وقبل أن يأتى صباح يوم جديد، مات ثلاثة خدم آخرون، وفرَّ آخرون مذعورين. كان الرعب يحيط بهم من كل جانب، ولم يخل بيت من الموتى.

وفى أثناء ذلك الارتباك والذهول، خبأت مارى نفسها فى حجرتها، ونسيها الآخرون. لم يسأل عنها أحد، ولم يكن هناك أحد يريد لها، وحدثت أشياء غريبة لم تعرف عنها مارى شيئاً. أما مارى فكانت تتناوب البكاء والنوم خلال تلك الساعات. كان كل ما تعرفه أن الناس مرضى، وأنها تسمع أصواتاً غامضة ومخيفة. وذات مرة تسللت إلى حجرة المائدة ووجدتها فارغة تماماً، بالرغم من أنها بدت وكأن وجبة طعام قد انتهت جزئياً، وكانت آثارها على المنضدة والكراسى والأطباق، وبدت وكأنها قد دُفعت للخلف بسرعة حين رُفع الطعام فجأة لسبب ما. أكلت بعض الفاكهة والبسكويت، وكانت عطشى فشربت كوب خمر كان مملوءاً عن آخره. كانت الخمر حلوة المذاق، ولكنها لم تكن تدرى قوة تلك الخمر، وبعد دقائق قليلة لعبت الخمر برأسها، وجعلت النعاس يداعب جفניה، فذهبت ثانية إلى حجرتها وأغلقت عليها الباب ثانية، وهى فى شدة الرعب، من الصرخات والبكاء الذى تسمعه

من الأكواخ، ومن وقع الأقدام المهرولة. وقد أثرت عليها الخمر لدرجة أن النعاس غلبها، ولم تكن قادرة أن تفتح عينيها، فرقدت في سريرها، ولم تعرف المزيد لفترة طويلة من الوقت.

حدث الكثير من الأشياء في الساعات الطويلة التي نامتها بعمق، ولم يزعجها العويل ولا أصوات الأشياء التي كانت تنقل من البيت وإليه^(*).

وحينما استيقظت، كانت لا تزال راقدة في السرير، وتنظر إلى الحائط. وكان المنزل ساكناً تماماً، ولم يحدث في حياتها من قبل أن وجدت منزلها بهذا السكون. ولم تسمع عويلاً ولا وقع أقدام، فتساءلت: أيمكن أن يكون مرض الكوليرا قد انتهى وأن جميع المشاكل والمتاعب قد انتهت؟ كما سألت نفسها: "يا ترى من سيرعاها الآن بعد أن ماتت مربيتها؟" ربما سيكون هناك مربية جديدة وستعرف قصصاً جديدة، فقد كانت ماري تمل من سماع القصص القديمة. ولم تبك لأن مربيتها ماتت. فلم تكن فتاة عاطفية، لم تهتم لأمر أحد. فقد كانت الضوضاء والهرولة هنا وهناك والعويل من الكوليرا قد أزعجها، وكانت غاضبة جداً؛ لأن الأمر بدا وكأن لم يتذكر أحد أنها ما زالت على قيد الحياة. فقد كان الجميع مبتلى بالذعر لدرجة أنه لم يكن هناك من يفكر في فتاة غير محبوبة من الجميع. حين أتت الكوليرا على كل شيء كان كل واحد لا يهتم بشيء إلا نفسه. ولكن إذا أصبح الجميع في عافية ثانية فبالطبع سيتذكرونها أحدهم ويأتي لبحث عنها.

(*) bungalow منزل شائع في ريف الهند، مبنى بطراز محدد؛ كي يلطف من الضوء الشديد والحرارة الاستوائية، به غرف عديدة، وأسقف عالية، ونوافذ وأبواب واسعة، وشرفات في كل الجوانب.

ولكن لم يأت أحد، وزاد سكون المنزل رويداً رويداً وهى راقدة فى سريرها. وسمعت شيئاً يحف بالحصيرة وحين نظرت لأسفل لترى ما الأمر، وجدت ثعباناً يزحف للأمام، ويراقبها بعينين مثل جوهرتين. لم تكن خائفة منه لأنه شئ صغير غير مؤذٍ، ولن يضرها، كما كان فى عجلة من أمره للخروج من تلك الغرفة، فانزلق من تحت الباب وهى تراقبه.

فقال لنفسها: "يا لغرابة المكان وهدوئه. الأمر يبدو وكأننى وهذا الثعبان الوحيدان فى المنزل".

فى الدقيقة التالية تقريباً سمعت وقع أقدام فى فناء البيت، ثم فى شرفة البيت. كانت الأقدام لرجال دلفوا إلى البيت، ثم بدؤوا فى التحدث بصوت هامس. لم يذهب أحد من المنزل إليهم ليقابلهم أو ليتحدث إليهم، ويبدو أنهم كانوا يفتحون أبواب الحجرات، ويفتشونها.

فسمعت أحدهم يقول: "يا له من مكان منهجور. تلك السيدة الجميلة جداً، وأعتقد أن الطفلة كذلك. لقد سمعت أن لها طفلة، ولكن لم يرها أحد من قبل".

وبعد دقائق قليلة، كانت مارى تقف فى منتصف الحجرة حينما فتحو باب حجرتها. كانت تبدو كشئ قبيح وهجين، وكانت عابسة الوجه لأنها بدأت تشعر بالجوع، كما بدأت تشعر بالخزى لأن عائلتها أهملتها وتركتها وحيدة فى البيت. وأول من دخل الغرفة من الرجال كان ضابطاً ضخماً رآته يتحدث ذات مرة إلى والدها. كان الإرهاق والتعب يبدوان عليه ولكن حين رآها، كان خائفاً جداً لدرجة أنه قفز للخلف.

صاح الرجل: "يا بارنى .. ها هنا طفلة ! طفلة وحيدة ! فى مكان مثل هذا ! يا لرحمة السماء ! من تكون تلك الفتاة؟".

فقالَت الطفلة الصغيرة معتدة بنفسها، وبصرامة: "أنا مارى لينوكس"، واعتقدت أن هذا الرجل كان غير مهذب حين دعا بيت والدها بـ "مكان مثل هذا!" فاستطردت قائلة: "لقد كنت نائمة حين كان الجميع مصابين بالكوليرا، ولقد استيقظت لتوى. لَمْ يَأْت أَحَدٌ إلَى؟".

فهتف الرجل فى أصحابه: "إنها الطفلة التى لم يرها أحد من قبل .. لقد نسيها الجميع بالفعل".

فقالَت مارى: "لماذا نسينى الجميع، وَلَمْ يَأْت أَحَدٌ إلَى؟"

فنظر إليها الشاب الذى كان يدعى بارنى فى حزن، حتى إن مارى رآته وهو يغلق عينيه ليبعد عنهما الدموع.

ثم قال: "أيتها الطفلة الصغيرة المسكينة ! لم يعيش أحد ليأتى إليك". وبهذه الطريقة الغريبة والمفاجئة اكتشفت مارى أن أمها وأباها رحلا؛ فقد ماتا، وحملوهما بعيداً فى الليل، حتى إن الخدم المحليين القلائل الذين لم يموتوا وبقوا على قيد الحياة، قد رحلوا بعيداً عن المنزل بأسرع ما يمكنهم، ولم يتذكر أى منهم السيدة الصغيرة مارى. وهذا هو سبب هدوء المكان. والحق أنه لم يكن بالمنزل غيرها، فضلا عن الثعبان الصغير الذى كان يزحف خارجاً من الغرفة.

الفصل الثانى

مارى .. مارى عكس الكل

كانت مارى تحب أن تنظر إلى والدتها من بعيد، وكانت تعتقد أنها جميلة جداً، ولكنها لم تعرف عنها سوى القليل لدرجة أنه كان من الصعب أن يعتقد أحد أنها ستحب أمها أو ستفقدتها كثيراً حينما ترحل. وفى الواقع، لم تفتقد أمها على الإطلاق، ولأنها كانت فتاة منهمكة فى شؤونها، فقد منحت كل وقتها وأفكارها لنفسها، ولو كانت أكبر سنًا فبالطبع كانت ستقلق جداً من تركها وحيدة فى هذا العالم، ولكنها كانت صغيرة جداً، ولأنها اعتادت أن يرعاها الغير، فقد كانت على يقين بأن هذه الرعاية ستدوم. وكان كل ما يدور بخلدها هو إذا ما كانت ستنتقل إلى أناس طيبين يكونون مهذبين معها، وأن يتركوها تتصرف بحرية كما كانت تدعها مربيتها والخدم المحليون الآخرون.

وكانت تعرف أنها لن تمكث فى بيت رجل الدين الإنجليزى الذى أخذت إليه فى البداية. فهى لم تكن تريد أن تعيش هناك. فقد كان رجل

الدين الإنجليزي فقيراً، ولديه خمسة أطفال فى السن نفسها تقريباً، وكانوا يرتدون ملابس رثة، كما كانوا يتشاجرون دائماً، ويخطفون الألعاب من بعضهم. وكرهت مارى بيتهم غير المنظم، وكانت ذات طباع سيئة معهم لدرجة أنه بعد اليوم الأول أو الثانى لم يكن أحد من أطفال البيت يلعب معها. وفى اليوم التالى أطلقوا عليها لقباً جعلها شديدة الغضب.

باسل هو من فكر فى هذا اللقب فى البداية، وكان باسل صبيّاً صغيراً ذا عينين زرقاوين وقحتين، وأنف أفطس، وكانت مارى تكرهه. كانت تلعب بمفردها أسفل شجرة، كما كانت تلعب فى اليوم الذى انتشرت فيه الكوليرا. كانت تعمل أكواماً من التراب وتخطط طرقاً لحديقة، أما باسل فقد أتى ووقف بجوارها ليشاهدها، وفى الحال أصبح مهتماً بما تفعله وفجأة اقترح فكرة:

"لما لا تضعين كومة من الأحجار وتتظاهرين بأنها حديقة حجرية .. هنا فى المنتصف"، ثم انحنى فوقها ليشير إلى المكان الذى يقصده، فصرخت فيه مارى: "ابتعد عنى .. لا أريد اللعب مع الأولاد .. ابتعد عنى".

فى تلك اللحظة ظهر الغضب على باسل، ثم ما لبث أن بدأ فى مضايقتها، وقد كان دائماً يضايق أخواته البنات، فبدأ يرقص حولها ويلعب وجهه ويغنى:

الآنسة مارى، متناقضة للغاية.

كيف تنمو حديقتك،

بها أجراس فضية، ومحارات رخوية،

ونبات القطيفة فى صفوف.

. وظل يغنى تلك الأغنية حتى سمعها الأطفال الآخرون وبدؤوا يضحكون
ويسخرون أيضاً، وكلما ازداد غضب ماري، ازداد غناء الأطفال "مارى
.. ماري .. عكس الكل"، وبعد ذلك طوال المدة التى قضتها معهم كانوا
ينادونها بـ "مارى عكس الكل".

قال باسل لها: "سيرسلوك إلى أرض الوطن فى نهاية الأسبوع،
ونحن سعداء بهذا".

فأجابت ماري: "وأنا سعيدة بذلك أيضاً. ولكن أين ذلك الوطن؟".

فقال باسل بسخرية طفل فى السابعة: "إنها لا تعرف أين الوطن!""الوطن
هو إنجلترا. جدتنا تعيش هناك، وقد أرسلت أختنا مابل إليها فى العام الماضى.
أما أنت فلن تذهبي إلى جدتك، حيث لا جدة لك هناك. ستذهبين إلى زوج عمك
المدعو السيد أرثشيبالد كرافن".

فقالت ماري فى غيظ: "لا أعرف أى شىء عنه".

فأجاب باسل: "أعرف أنك لا تعرفين عنه شيئاً .. لا تعرفين أى شىء،
فالبنات دائماً لا يعرفن شيئاً. سمعت أبى وأمى يتحدثان عنه. يعيش فى بيت
قديم كبير وفخم ومهجور فى الريف، ولا أحد يقترب منه، ويغضب جداً إذا
أراد أحد الاقتراب منه .. حتى إن الناس لن يقتربوا من البيت إن سمح لهم
بذلك. كما أنه شخص ألدب وبغيض".

ردت ماري: "أنا لا أصدقك". ثم أدارت له ظهرها، ووضعت إصبعيها في أذنيها، لأنها لم تود سماع المزيد.

ولكنها أعطت لهذا الأمر عظيم الاهتمام فيما بعد؛ وحين أخبرتها السيدة كراوفورد في تلك الليلة بأنها ستبحر إلى إنجلترا في غضون أيام قلائل لتذهب إلى زوج عمتها السيد أرثشيبالد كرافن، والذي كان يعيش في مسيلثويت، فبدت كالحجر الأصم وبدا عليها عدم الاهتمام بدرجة جعلتهم يشعرون أنهم لا يعرفونها. حاولوا أن يكونوا لطفاء معها، إلا أنها أزاحت بوجهها بعيداً حينما حاولت السيدة كراوفورد أن تقبلها، وكانت كالصخرة الصلدة لما حاولت السيدة كراوفورد أن تُربت على كتفيها.

قالت السيدة كراوفورد بشفقة: "يا لها من فتاة قبيحة!"، ثم أردفت قائلة: "كانت والدتها مخلوقاً جميلاً، كما كان سلوكها رائعاً أيضاً، أما سلوك ماري فهو الأسوأ على الإطلاق بين الأطفال. إن الأطفال ينادونها بـ "ماري عكس الكل"، وبرغم أنها سيئة السلوك معهم، فإن المرء لا يمكنه فهم الأمر".

"ربما لو منحتها أمها وجهاً جميلاً، وعلمتها السلوك الحسن بصورة متكررة في الحضانة، لكانت ماري قد تعلمت بعض السلوكيات الحسنة. يا له من شيء مؤسف - فقد ولى الشيء الجميل - أن نتذكر بأن كثيراً من الناس لم يعرفوا قط أن لها أي أطفال".

تنهدت السيدة كراوفورد وقالت: "أنا على يقين بأن والدتها لم تكن تنظرها إلا فى النابر، فحين تُوفيت مربيتها، لم يكن هناك أى شخص ليفكر -مجرد التفكير- فى هذا الكائن الصغير. تذكر أن الخدم كانوا يهربون من هذا البيت وتركوها وحيدة بين جنبات هذا المنزل المهجور. إن الكولونيل ماكجرو أخبرنى بأنه قفز للخلف حين فتح باب غرفتها ووجدها واقفة وحيدة فى منتصف الغرفة".

أبحرت مارى طويلاً إلى إنجلترا تحت رعاية زوجة الضابط، التى كانت فى طريقها مع أبنائها لتضعهم فى مدرسة داخلية بإنجلترا. كانت منغمسة كلية مع ابنها الصغير وابنتها، وكانت فى غاية السعادة، حينما سلمت مارى إلى السيدة التى أرسلها إليها السيد أرتشيفالد كرافن فى لندن. هذه السيدة هى مديرة المنزل فى ضيعة ميسلثويت واسمها السيدة ميدلوك. كانت سيدةً بديئة ذات خدين متوردين، وعيتين حادثين سوداوين. كانت ترتدى فستاناً بنفسجياً زاهياً، وعباءة حريرية سوداء ذات شراريب سوداء من الكهرمان(*)، وقلنسوة سوداء ذات أزهار مخملية بنفسجية ملتصقة بالقلنسوة من أعلى وتهتز كلما حركت رأسها. لم تحبها مارى على الإطلاق، وحيث إنه من الناس لها أن تألف البشر، فإن هذا الشيء لم يكن له أهمية كبيرة، بالإضافة إلى أنه ومما لا يحتاج إلى دليل، أن السيدة ميدلوك لم تكن تهتم بمارى كثيراً.

(*) خرز مصنوع من شكل أسود براق من الكربون الطبيعى .

كانت تقول:

– "يا إلهى! ليس بها شيء حسن، وقد سمعنا مرارًا عن جمال أمها، ولكنها لم ترث من جمال أمها شيئًا، أليس كذلك يا سيدتى؟".

– "ربما ستتحسن حين تكبر" قالتها زوجة الضابط بأسلوب حسن.

– "لو لم تكن شديدة الشحوب، ولها سيماء أفضل، لكانت معاملها حسنة. فالأطفال يتغيرون تغيرًا كبيرًا".

أجابتها السيدة ميدلوك: "سيجب عليها أن تتغير للأفضل. ولكن من المحتمل أنه لا يوجد شيء يجعل الأطفال تتغير للأحسن فى مسلتويت – إن أردت الحقيقة".

اعتقدت أن مارى لم تكن تستمع إليهم لأنها كانت تقف بعيدًا عنهم عند نافذة الفندق الخاص الذى ذهبوا إليه. كانت تشاهد الحافلات، وسيارات الأجرة، والناس المارة، ولكنها سمعت جيدًا ما كانتا تتحدثان عنه، وكان يملؤها حب الاستطلاع عن زوج عمتها، وعن المكان الذى يعيش فيه. وعن طبيعة هذا المكان، وكيف يبدو زوج عمتها، وما هو الأحذب، فهى لم تر فى حياتها قط أحذب. ربما لا يوجد أى شخص أحذب فى الهند.

ومنذ أن بدأت العيش فى منازل الناس الآخرين، بلا مربية، فقد بدأت تشعر بالوحدة، وبدأت تفكر أفكارًا غريبة كانت جديدة بالنسبة إليها. وبدأت تتساءل لم لم تبد قط أنها تخص أى أحد حين كان أبواها ما زال على قيد الحياة.

فالأطفال الآخرون يبدو أنهم ينتمون إلى آبائهم وأمهاتهم، ولكنها لم تبد مطلقاً أنها ابنة أى أحد على الإطلاق. كان لها الخدم، والطعام، والملبس، ولكن لم يكن يلحظها أى أحد. لم تكن تعرف أن هذا نتيجة أنها طفلة دميمة سيئة الطباع. كانت تعتقد أن الناس الآخرين كلهم هكذا، ولكنها لم تعرف أنها كذلك.

كانت تعتقد أن السيدة ميدلوك هي أكثر شخص دميم وسيئ الطباع قابلته طوال حياتها، بوجهها المألوف الذى تصبغه بالألوان، وقلنسوتها العادية.

فى اليوم التالى، انطلقوا فى رحلتهم إلى يوركشاير، ومشى عبر محطة السكة الحديدية حتى وصلت إلى عربة الركاب برأس مترفع، وكانت تحاول أن تبعد نفسها عنها بأقصى ما تستطيع؛ لأنها لم تكن تود أن يعتقد أحد أنها ابنة السيدة ميدلوك. وكانت تستشيط غضباً حين تفكر أن الناس ربما يعتقدون أنها ابنة لهذه السيدة.

ولكن السيدة ميدلوك لم تكن منزعة منها على الإطلاق، أو حتى من أفكارها. فقد كانت من نوعية النساء اللائى لا يهتمن بأفعال الصغار. أو على الأقل، فإنها ستقول كذلك إن سألها أحد. فهى لم ترد الذهاب إلى لندن لحضور زفاف ابنة أختها ماريا فقط، ولكن لأنها ستحصل على وظيفة مريحة، وذات أجر جيد، كمديرة شؤون البيت فى ضيعة مسلويت. والسبيل الوحيد فى الحفاظ على هذه الوظيفة، هى أن تقوم بعمل ما يود السيد أرتشيبالد كرافن فعله فى الحال. ولم تجرؤ قط على أن تسأله سؤالاً. لقد أخبرها السيد كرافن بأسلوبه المقتضب البارد: "لقد مات الكابتن

لينوكس وزوجته بسبب الكوليرا". ثم أردف قائلاً: "كان الكابتن لينوكس أختاً لزوجتي، وأنا الوصى على ابنتيهما. وستُربى هذه الفتاة هنا. يجب عليك الذهاب إلى لندن وإحضارها إلى هنا بنفسك".

ولذا فقط حُزمت حقيبتها الصغيرة، وقامت بالرحلة.

كانت ماري تجلس في ركن عربة القطار وجهها شاحب ومضطربة. ولم يكن لديها ما تقرأه، أو تنظر إليه. صلبت يديها النحيلتين الصغيرتين نوى القفازات السوداء عند صدرها. أضفى عليها الفستان الأسود الذي ترتديه شحوباً أكثر من ذي قبل. وشعرها الخفيف المترنح كان منتشراً بلا نظام من تحت قبعاتها السوداء المصنوعة من قماش رقيق^(*).

فكرت السيدة ميدلوك وقالت: "يا لها من فتاة مدللة، وسيئة الطباع، لم أر لها مثيلاً من قبل". فهي لم تر من قبل طفلة تجلس ساكنة بلا أي حركة، وفي النهاية ملّت منها، وبدأت تتحدث في صوت حاد جامد: "أعتقد أنه من المفترض أن أخبرك بعض الأشياء عن المكان الذي ستذهبين إليه". ثم أردفت: "هل تعرفين أي شيء عن زوج عمك؟".

فرّنت ماري: "كلا".

– "ألم تسمعي أباك أو أمك تتحدث عنه من قبل؟".

عبست ماري وقالت: "كلا".

(*) Crepe قماش مصبوغ، ذو نسيج رقيق، يلبس للحداد.

عيسى لأنها تذكرت أن أباهما وأمه لم يتحدثا معها عن أى شىء بوجه خاص. وبالطبع لم تخبرها أى شىء.

همهمت السيدة ميدلوك: "أوف" ونظرت إلى وجهها الضئيل الغريب الذى لا تبدو عليه أى أمارات لإحساس. لم تقل المزيد لعدة لحظات، وبعدئذٍ بدأت ثانية:

"أعتقد أنه من الواجب أن أخبرك ببعض الأشياء - كى أعدك للحياة فى المكان الجديد. فأنت ذاهبة إلى مكان غريب".

لم تنطق مارى بأى شىء مطلقاً، فأحست السيدة ميدلوك باليأس بسبب عدم مبالاتها الواضحة. ولكن بعد أن تنهدت قالت ثانية:

"ولكن هذا المكان كبير جداً بطريقة تدعو للكآبة، كما أن السيد كرافن فخور به بطريقته الخاصة، وهذا شىء كئيب أيضاً. وهذا البيت يبلغ عمره ستمئة عام، وهو على حافة البرارى، ويوجد به ما يقرب من المئة غرفة؛ بالرغم من أن معظمهما مغلق، وهناك لوحات، وأثاث قديم رائع، وأشياء أخرى موجودة هناك منذ عصور، كما يوجد منتزه كبير حول البيت، وحدائق، وأشجار تتدلى أفرعها إلى الأرض - بعضها". هنا توقفت عن الكلام فجأة، وتنهدت:

"لكن لا يوجد شىء آخر". وأنهت حديثها فجأة.

استمعت مارى إلى حديثها رغماً عنها. بدا كل هذا أنه مختلف تماماً عن الهند، وكل هذه الأشياء الجديدة سحرتها. ولكنها لم تود أن يظهر عليها

الاهتمام. وكان هذا أسلوباً من أساليبها الكريهة المحزنة. ولذا فكانت تجلس ساكنة بلا حركة.

قالت السيدة ميدلوك: "حسنًا. ما رأيك فيها؟".

أجابت: "لا شيء. فأنا لا أعرف شيئاً عن تلك الأماكن".

وهذا الكلام جعل السيدة ميدلوك تضحك ضحكة قصيرة مقتضبة.

– "إيه .. ولكنك مثل سيدة عجوز. ألا تهتمين؟".

– "لا يهم إذا كنت أهتم أم لا".

– "عندك حق. لا يهم. فما سيجعلك تمكثين في ضيعة مسلثويت لا أعرفه، إلا لأنه أبسط الطرق. فهو لن يشغل باله بك. هذا شيء مؤكد. فهو لم يشغل باله بأى أحد من قبل".

وأحجمت عن الكلام كما لو أنها قد تذكرت شيئاً فى الوقت المناسب. ثم قالت:

"إن له ظهرًا أحذب. وقد أثر عليه ذلك سلبيًا. فقد كان شاباً فظًا، ولم يستفد بماله، وبيته الكبير حتى تزوج.

تحولت عينا مارى إليها بالرغم من نيتها عدم إظهار أى اهتمام. فلم تفكر يومًا أنه يمكن للأحذب أن يتزوج، وكانت مندهشة إلى حدٍّ ما. لاحظت السيدة ميدلوك هذا، ولأنها كانت سيدة ثرثرة فقد تابعت حديثها بمزيد من الاهتمام. وكانت هذه طريقتهما لجعل الوقت يمر، بأى طريقة.

- "لقد كانت امرأة بارعة الجمال، وقد مشطت العالم بحثاً عن بعض النباتات العشبية التي كانت تريدها. لم يعتقد أحد أنها ستتزوج، ولكنها تزوجته. قال البعض إنها تزوجته لماله. ولكن هذا لم يكن صحيحاً - لم تتزوجه لماله". قالتها بيقين.

- "وعندما ماتت-"

وقفزت ماري قفزة لا إرادية.

قالت بقوة: "أوه! لقد ماتت!" قالتها دون أن تعنى شيئاً. ولكنها تذكرت قصة فرنسية للأطفال قرأتها ذات مرة وتُدعى "ركت وخصلة الشعر" كانت تتحدث عن أحمق فقير، وأميرة جميلة، وتركت القصة أثراً على ماري بأن شعرت بالأسى تجاه السيد أرثشيبالد كرافن.

أجابت السيدة ميدلوك: "نعم .. لقد ماتت. وجعله موتها أغرب من ذي قبل. فهو لا يهتم بأحد. ولا يريد أن يرى أحداً. ويسافر بعيداً معظم الوقت، وحين يكون في ضيعة مسلثويت يغلق على نفسه الجناح الغربي، ولا يسمح لأحد بأن يدخل عليه إلا بتشر. بتشر هذا خادم عجوز، ولكنه يرعاه منذ أن كان طفلاً، ويعرف كل أساليبه".

أحست ماري بأن كل ما يُحكى لها ما هو إلا جزء من كتاب، وهذا لم يبهجها. فمنزل به مئة حجرة، معظمها مغلق - وعلى حافة البراري - مهما تكن البراري، يبدو شيئاً مخيفاً. رجلاً أحمق أغلق باب الدنيا على نفسه! نظرت خارج النافذة وشفها مزمومتان، وبدا من الطبيعي أن تبدأ

السماء بالانهمار فى المطر فى خطوط رمادية مائلة، ويصطدم رذاذ المطر بزجاج النافذة ثم يتدفق لأسفل. لو كانت الزوجة الحسنة ما زالت على قيد الحياة، لربما كانت الأشياء أفضل مثلما كانت والدتها، وأن تهرع من الداخل للخارج، وأن تذهب إلى الحفلات كما كانت تفعل بفساتين سهرة معقودة بشريط. ولكنها لم تكن على قيد الحياة.

قالت السيدة ميدلوك: "لا تنتظري أن تريه؛، لأن مئة فى المئة لن تشاهديه. ويجب ألا تعتقدى أن هناك أناساً سيتحدثون معك. سيجب عليك أن تلاعبى نفسك وتعتنى بنفسك. سيتم إخبارك بالحجرات التى يمكنك أن تدخلها، والحجرات التى لا يمكنك دخولها. هناك الكثير من الحقائق بما يكفى. ولكن حين تكونين فى المنزل، فلا تتجولى وتتسكعى فى المكان حيث إن السيد كرافن لا يحب هذا".

قالت مارى الصغيرة بغضب: "لن أتسكع فى البيت". وحدث فجأة -كما حدث أن شعرت بالأسى تجاهه- فقد شعرت بأنه إنسان كرهه وبغض لدرجة أنه يستحق كل ما حدث له. أشاحت بوجهها إلى خيوط المطر المتدفقة على نافذة عربة القطار، وحدثت فى قطرات المطر الرمادية المتساقطة التى بدت وكأنها ستستمر إلى الأبد. شاهدها طويلاً وباستمرار حتى ازداد فى عينيها اللون الرمادى رويداً رويداً إلى أن استغرقت فى النوم.

الفصل الثالث

عبر الدغل

نامت طويلاً، وحينما استيقظت، كانت السيدة ميدلوك قد اشترت سلة الغداء من إحدى المحطات، فتناولوا دجاجاً، ولحماً بقرئاً بارداً، وخبزاً، وزبداء، وشايًا ساخنًا. فى ذلك الوقت كانت الأمطار تنهمر بغزارة أكبر من ذى قبل، وكان كل من بالمحطة يرتدون معاطف واقية من المطر مبتلة وبراقة. أتى حارس ليشعل المصباح فى عربة القطار، وكانت السيدة ميدلوك سعيدة جداً بوجبة الغداء التى تناولت فيها الدجاج، واللحم البقرى، والشاي. ملأت بطنها بالطعام، وما لبثت أن غطت فى نوم عميق. جلست مارى تحديق فيها، وتشاهد قبعاتها الرائعة التى انزلقت على أحد الجانبين، إلى أن غطت مارى هى الأخرى فى نوم عميق فى أحد جوانب العربة، حيث كانت تستمع لدقات المطر على النوافذ الزجاجية. وحين استيقظت، كانت العربة مظلمة تماماً، والقطار متوقفاً فى إحدى المحطات، وكانت السيدة ميدلوك تهزها كي تستيقظ.

وقالت لها: "لقد نمت بما فيه الكفاية!" "حان وقت الاستيقاظ! نحن الآن فى محطة ثويت، ومازال أمامنا طريق طويل".

نهضت مارى، وحاولت أن تبقى عينيها مفتوحتين، فى حين بدأت السيدة ميدلوك فى حمل متعلقاتهما، إلا أن الفتاة الصغيرة لم تعرض عليها المساعدة؛ لأن الخدم المحليين فى الهند دوماً هم من يحملون الأشياء، فبدا الأمر عادياً تماماً حين ينتظر الناس الآخرون واحداً من الخدم لحمل حقائبهم.

كانت المحطة صغيرة، وبدا أنهم هم الأشخاص الوحيدون الذين نزلوا من القطار فى تلك المحطة. تحدث ناظر المحطة إلى السيدة ميدلوك بصوت أجش، وبطريقة مهذبة، متلفظاً بكلماته بشكل غريب، اكتشفت مارى بعدئذ أنها طريقة سكان يوركشاير.

فقال لها: "ها قد عدت إلى هنا .. وقد جلبت معك السيدة الصغيرة".

فأجابت بلهجة يوركشاير: "نعم .. ها هى". وأومأت برأسها تجاه مارى. ثم قال: "كيف حالك أيتها السيدة؟".

"حسناً، هذا يكفى! العربة جاهزة خارج المحطة".

كانت هناك عربة صغيرة تنتظر على الطريق أمام الرصيف الخارجى الصغير. شعرت مارى أن العربة أنيقة، وأن الخادم الذى ساعدها فى ركوبها كان أنيقاً أيضاً. كان معطفه الطويل الواقى من المطر، وغطاء قبعته الواقى

من المطر يلمعان، ويتساقط منهما قطرات المطر ككل شىء فى المحطة، بما فى ذلك ناظر المحطة الضخم.

بعد أن أغلق الباب، أعطت صندوق المتعلقات لسائق العربى، وانطلق بالعربى، ووجدت الطفلة الصغيرة نفسها تجلس فى ركن مبطن بالوسائد ومريح، ولكن لم يكن لديها أى رغبة فى النوم ثانية. جلست تنظر من نافذة العربى متمنية أن ترى طريق الذهاب إلى المكان الغريب الذى ستأخذها السيدة ميدلوك إليه، وطالما حدثتها عنه. لم تكن مارى طفلة جبانة مطلقاً، ولم تكن خائفة بالمرّة، ولكن شعورها كان غريباً تجاه عدم معرفتها بما سيحدث فى بيت به مئة غرفة معظمها مغلق تقريباً – بيت يقف وحيداً على حافة دغل.

سألت مارى السيدة ميدلوك فجأة: "ما هو الدغل؟".

فردت السيدة ميدلوك: "انظرى حولك لعشر دقائق وستعرفين معنى الدغل. مازال أمامنا خمسة أميال لنقودها عبر دغل ميسل حتى نصل إلى الضيعة. لن تستطيعى رؤية الكثير من الأشياء لأنها ليلة مظلمة، ولكن على الأقل ستريين شيئاً".

لم تسأل مارى المزيد من الأسئلة، ولكنها ظلت ساكنة فى ركن العربى المظلمة، مثبتة عينيها على نافذة العربى. كانت كشافات العربى تلقى بخيوط

(*) brougham: عربى حنطور؛ مظلة من كل الجهات، وسائقها يجلس خارجاً فى الأمام.

من ضوء لمسافة قليلة أمامهم، وكانت ماري تحاول أن تلمح سريعاً الأشياء التي يقع عليها الضوء حين يمرون بها. بعد أن تركوا المحطة، قادوا العربة عبر قرية صغيرة، ورأت ماري البيوت الريفية المطلية بالجبس، وأضواء مجلس عمومي. وبعدئذ مروا بكنيسة، ثم بمقر القس، ثم بعارضة محل زجاجية أو ما شابه ذلك في بيت ريفي، وبها ألعاب، وحلوى، وأشياء أخرى كثيرة معروضة للبيع. وبعد ذلك وصلوا إلى الطريق السريع، ورأوا أسيجة من شجيرات صغيرة، وأشجار. وبعد ذلك لم يكن هناك شيء يبدو مختلفاً لفترة طويلة - أو على الأقل بدت الفترة طويلة بالنسبة إليها.

في النهاية بدأت الخيول تقلل من سرعتها، كما لو كانت تصعد تلاً، وفي تلك الأثناء لم يعد هناك المزيد من أسيجة الشجيرات، أو الأشجار. ولم تكن قادرة على رؤية أي شيء - في الواقع - سوى ظلام كثيف على جانبي العربة. انكفأت للأمام وضغطت بوجهها على النافذة حين ارتجت العربة رجة عنيفة.

فقالت السيدة ميدلوك: "إيه .. أنا على يقين بأننا الآن في الضيعة".

ألقت العربة بضوء أصفر على طريق خشن يبدو أنه تم تعبيده عبر شجيرات وحشائش نامية، وينتهي الطريق بامتداد هائل من الظلام واضح أنه ممتد أمامهم ومن حولهم. كانت هناك رياح تهب محدثة صوتاً فريداً، موحشاً، وعاصفاً.

فالتفتت ماري إلى رفيقتها، وقالت: "إنه .. إنه ليس البحر، أليس كذلك؟".

فأجابت السيدة ميدلوك: "نعم، ليس البحر، ولا الحقول، ولا الجبال، إنها مجرد أميال وأميال وأميال من الأرض الموحشة التي لا ينبت فيها شيء سوى نباتات الخلنج، والجولق، والوزال(*)، ولا يعيش فيها أحد سوى الخراف، والخيول القزمة البرية".

فقالت ماري: "أشعر أن هذا الصوت صادر عن البحر، لو أن هذه الأرض تحوى بحرًا، ويبدو الصوت الآن كصوت البحر".

فقالت السيدة ميدلوك: "إن هذا صوت الرياح تهب عبر الشجيرات. إن هذا المكان بالنسبة إلى موحش وكثيب، برغم أن هناك الكثيرين الذين يحبون هذا المكان، خاصة حين تزهر نباتات الخلنج".

استمرت العربة في سيرها عبر الظلام، وبرغم أن المطر قد توقف، فإن الرياح كانت تندفع عبر تلك الأرض الواسعة، وكانت تصفر، وتحدث أصواتًا غريبة. كان الطريق يصعد حينًا ويهبط حينًا، ومرت العربة مرات عديدة فوق جسور صغيرة تندفع المياه أسفل منها بسرعة كبيرة محدثة جلبة كبيرة. شعرت ماري وكأن هذه الرحلة بلا نهاية، كما شعرت بأن

(*) broom: أنواع قوية من الشجيرات الكثيفة، توجد في المناطق البرية؛ تنمو بقوة وتثمر عناقيد فواحة، ذات شكل جوسي وأصفر، وأزهار أوريوانية ووربية.

الضيعة الواسعة والقاحلة، لم تكن سوى محيط كبير من الظلام تعبره على
خيط من الأرض الجافة.

قالت مارى لنفسها: "أنا لا أحب هذا المكان .. لا أحبه". ثم رَمَت
شفتيها الرفيعتين أكثر فأكثر.

كانت الخيول تصعد جزءاً صاعداً من الطريق، حين أبصرت ضوءاً،
ورأت السيدة ميدلوك الضوء أيضاً، وأطلقت تنهيدة ارتياح.

"إيه .. أنا سعيدة جداً لرؤية هذا الضوء المتلألئ. إنه الضوء الآتى
من نافذة المسكن. أخيراً سنتناول كوباً من الشاي بعد برهة، على كل حال".

وكان "بعد برهة" كما قالت، لأنه بعد عبور بوابة الحديقة كان أمامنا
ميلان من طريق مشجر على العربية أن تقطعهما، وجعلت الأشجار المتعانقة،
الطريق يبدو كما لو كنا نقود العربية عبر قبو مظلم طويل.

خرجت العربية من القبو المشجر إلى مساحة خالية من الأشجار،
وتوقفت أمام منزل منخفض، ولكن ذى مساحة هائلة، بدا وكأنه يلتف حول
زقاق حجرى. فى البداية، اعتقدت مارى أنه لا توجد أى أضواء منبعثة من
النوافذ، ولكن حين هبطت من العربية، رأت ضوءاً خافتاً ينبعث من حجرة
جانبية فى الطابق العلوى.

كان باب المدخل هائلاً، مصنوعاً من ألواح خشبية هائلة ومصنوعة
بدقة من أخشاب البلوط، ومرصعة بمسامير حديدية ضخمة، ومثبتة
بألواح حديدية ضخمة. انفتح الباب على صالة هائلة خافتة الضوء
لدرجة أن الوجوه فى اللوحات المرسومة على الجدران، والتمائيل فى

زى المحاربين جعلت مارى غير راغبة فى رؤيتها. بمجرد أن وقفت على الأرضية الصخرية بدت كشكل أسود صغير جداً، وشعرت بضآلتها وغزابتها كما بدت.

كان هناك شيخ نحيف وأنيق يقف بجوار الخادم الذى فتح الباب لهما. فقال الشيخ بصوت أجش: "خذيها إلى غرفتها". ثم استطرد: "لا يريد السيد أن يراها. إن عليه الذهاب إلى لندن فى الصباح".

فردت السيدة ميدلوك: "حسنًا يا سيد بتشر، ما دمت أعرف ما يجب على فعله، فتأكد أنني قادرة على تولى هذا الأمر". فسألها السيد بتشر: "وما الذى يجب عليك فعله؟".

فأجابت: "أن تكون على يقين بأن لا أحد يزعم السيد، وألا يرى ما لا يحب أن يراه".

وبعد ذلك، أقتيدت مارى عبر سلم عريض، ثم دهليز أدى إلى بعض درجات من سلم أدى إلى دهليز آخر، ثم إلى آخر حتى وصلت إلى باب مفتوح فى حائط فوجدت نفسها داخل غرفة، بها مدفأة، كما وجدت طعام العشاء معداً على المائدة.

فقالت السيدة ميدلوك بطريقة جافة: "حسنًا .. ها أنت هنا أخيرًا. هذه الغرفة والغرفة التى تجاورها هما المكان الذى ستعيشين فيه. يجب عليك ألا تتعدى حدودهما. عليك أن تحفظى ذلك جيدًا!".

وبهذه الطريقة وصلت مارى الصغيرة إلى ضيعة ميسلثويت، وربما لم تشعر بعد ذلك مطلقاً بأنها عكس الكل.

الفصل الرابع

مارثا

حينما فتحت عينيها فى الصباح التالى، كان ذلك لأن خادمة شابة أتت إلى الغرفة لتشعل نار المدفأة، وكانت منحنية على السجادة المجاورة للمدفأة تقلب الرماد، لتأخذه بعيداً، وكان لعملها ضجة. ظلت مارى راقدة على فراشها تنظر إلى الخادمة الصغيرة للحظات قليلة، ثم بدأت تجول بناظريها فى الحجرة. لم تر مثل تلك الحجرة من قبل، وبدت لها غريبة وكثيية. كانت الحوائط مغطاة بنسيج مطرز برسم لغابة. كان فى هذا المنظر أناس يرتدون ملابس أنيقة يجلسون تحت الأشجار، وعلى البعد تلوح أبراج قلعة. كان هناك صيادون، وخيول، وكلاب، وسيدات. وأحست مارى أنها فى الغابة معهم. من نافذة عميقة استطاعت أن ترى مساحة شاسعة من أرض مرتفعة خالية تماماً من الأشجار، وتبدو كأنها بحر أرجوانى باهت اللون وبلا نهاية.

فقالَت مارى مشيرة إلى خارج النافذة: " ما هذا؟ " .

فقالت مارتا، الخادمة الشابة، التى نهضت لتوها من على السجادة المجاورة للمدفأة، بعد أن نظرت وأشارت أيضاً فى الاتجاه نفسه: "هذا الذى هناك؟".

فقالت ماري: "نعم".

فأخبرتها مارتا: "إنها البرارى". ثم ابتسمت ابتسامة لطيفة وقالت: "هل تعجبك؟".

فردت ماري: "لا .. إننى أكرهها".

فقالت مارتا: "هذا لأنك لم تتعودى عليها". ثم قالت وهى تعود ثانية إلى المدفأة: "إنك تعتقدين أنها مكان شاسع جداً وقاقل الآن. ولكنك ستحبينها".

فاستفسرت ماري: "هل تحبينها؟".

فردت مارتا بسعادة وهى تلمع القضبان الحاجزة للمدفأة: "نعم .. لا أنكر أننى أحبها. فهى مليئة بالأشياء النامية ذات الروائح الذكية. كما أنها جميلة حقاً فى فصلى الربيع والصيف، حيث تزهر نباتات الجولق والوزال والخلنج. رائحتها حلوة، وبها الكثير من الهواء المنعش - كما تبدو السماء مرتفعة جداً، أما النحل وطيور القبرة فتجعلها مليئة بالطنين والغناء الجميل. آه .. لا أريد أن أعيش بعيداً عن هذه البرارى لأى سبب مهما يكن".

استمعت إليها ماري، وترسم على وجهها أمارات التحير والصمت. فالخدم المحليون الذين اعتادت عليهم ماري في الهند لم يكونوا مثل هذه الخادمة. قد كان الخدم بالهند متذللين(*)، ومستسلمين للعبودية، ولم يكن يجرؤ أحدهم أن يتحدث مع سيده وكأنهم متساوون. كان الخدم بالهند ينحنون(**) للسادة ويسمونهم "حماة الفقراء"، وأسماء من هذا القبيل. فالخدم في الهند كانوا يؤمرون بفعل الأشياء، لا أن تُطلب منهم. ولم يكن السادة ليقولوا "من فضلك" أو "شكراً لك"، وكانت ماري تصفع مربيتها دائماً على خديها حين تكون غاضبة. وتساءلت في نفسها ما الذي يمكن لتلك الفتاة الشابة أن تفعل إن صفعها أحد على وجهها. فقد كانت الفتاة مخلوقاً جميلاً مهذباً، كانت مشرقة وكاملة، وشخصيتها كانت قوية، لدرجة أن ماري الصغيرة تحيرت لو تم ذلك، فربما لن تكتفى فقط برد الصفعة – حتى لو أن الذي صفعها كان مجرد طفلة صغيرة.

فقالت ماري، وهي مستلقية على الوسائد، بغيرستها المألوفة: "أنت خادمة عجيبة".

فجلست مارتا على مؤخرة كعبيها، وفي يدها فرشاة التنظيف السوداء، ثم ضحكت، ولم يبد عليها أى غضب، وقالت:

(*) obsequious: حريصون للغاية على الطاعة.

(**) salaams: انحناءات للتحية؛ فيها توضع الكف اليمنى على الجبهة. وفي العربية تعنى السلام.

"هه .. أعرف هذا! لو أن بميسلثويت سيدة المنزل المهيبة، فلن أكون حتى واحدة من هؤلاء الخدم المسؤولين عن شؤون البيت، ولكن ربما كنت واحدة من الخدم الذين يغسلون الأطباق، وبكل تأكيد لن يُسمح لى بالصعود إلى الطابق العلوى. أنا فتاة عادية جداً، وأتكلم كثيراً بلهجة يوركشاير. ولكن هذا البيت غريب، برغم أنه منزل كبير. ويبدو بلاسيد أو سيدة فيما عدا السيد بتشر والسيدة ميدلوك. أما السيد كرافن فلن يزعجه أى شىء حين يكون هنا، ونادراً ما يوجد هنا حيث إنه كثير الأسفار. وقد أعطتني السيدة ميدلوك الوظيفة هنا عطقاً منها على، وأخبرتني بأنها لم تكن لتستطيع فعل ذلك الأمر لو أن مسيلثويت كان مثل البيوتات الضخمة الأخرى".

فسألتها مارى، ومازالت تتصرف بطريقتها المتغترسة التى كانت تتبعها فى الهند: "هل ستكونين خادمتي؟".

بدأت مارثا فى مسح قضبان المدفأة ثانية.

"أنا خادمة السيدة ميدلوك. والسيدة ميدلوك خادمة السيد كرافن.. ولكننى أقوم بما تقوم به الخادومات هنا، ويمكننى خدمتك من حين لآخر. ولكتك لن تحتاجي الكثير من الخدمة".

فقالت مارى امرأة: "إذا فمن سيساعدنى فى ارتداء ملابسى؟".

جلست مارثا على كعبيها ثانية وحدثت فى مارى، ثم تساءلت مندهشة بلهجة يوركشاير الفظة:

"ألا تستطيعين أن ترتدى ملابسك بمفردك؟!".

فقالَت ماري:

"ماذا تقصدين؟ لا يمكنني فهم لغتك".

فقالَت مارتا:

"آه.. لقد نسيت. إن السيدة ميدلوك أخبرتني بأن أحترس عند الكلام معك، وإلا فلن تفهمي ما أقول. أقصد أنك لا تستطيعين ارتداء ملابسك بمفردك؟".

فأجابت ماري بغضب:

"كلا.. لم أفعل ذلك قط طوال حياتي. كانت مربيتي هي المسؤولة عن هذا بالطبع".

فقالَت مارتا، بوضوح وبعدم اكتراث إذ كان أسلوبها وقحاً:

"حسناً.. لقد حان الوقت لتتعلمي أن ترتدي ملابسك بمفردك. لم تعودى صغيرة. وسيكون هذا بداية لتعرفي كيفية خدمة نفسك. فقد كانت أمي تقول دائماً أنها لا تعرف لم لا يتحول أبناء الطبقة الأرستقراطية إلى حمقى - حيث تخدمهم المربيات عند الاستحمام، وارتداء الملابس، وتمشيتهم خارج البيت، كما لو كانوا جراءً صغيرة".

فقالَت السيدة الصغيرة؛ ماري، بازدياء: "الأمر مختلف في الهند". ولم تعد تطيق ذلك النقاش.

لكن مارتا لم تلق للأمر بالاً على الإطلاق.

وردت عليها مارثا بإشفاق:

"أعرف أن الأمر مختلف هناك، كما يمكنني القول بأن هذا يرجع لوجود الكثيرين من السود هناك بدلاً من البيض المبجلين، حتى إنني حين سمعت بقدومك من الهند، اعتقدت أنك سوداء مثلهم".

جلست ماري في سريرها وقد استشاطت غيظاً، وقالت منفعة:

"ماذا! .. ماذا! .. هل اعتقدت أنني من المحليين يا ابنة الخنازير؟".

نظرت إليها مارثا وبدا عليها الغضب، وقالت:

"من التي تناينها هكذا؟ لا ينبغي أن تستثاري إلى هذا الحد. ليس هذا أسلوب فتاة شابة في الحديث. ليس لدى أي شيء تجاه الزوج. حين تقرئين عنهم في بعض المنشورات ستعرفين أنهم دائماً متدينون جداً. فأنت دائماً تقرئين هذا الشعر. أسود حتى كأنه أخ". لم أر في حياتي شخصاً من الزوج من قبل، وكم كنت سعيدة حين اعتقدت أنه سيمكنني رؤية واحدة من الزوج عن قرب. وحينما أتيت إلى حجرتك في الصباح لأشعل نار المدفأة، انحنيت على سريرك، ورفعت عنك الغطاء بحرص لأنظر إليك، وقد رأيتك". ثم قالت بخيبة أمل: "حتى لون بشرتك ليس أعمق من بشرتي، برغم من أن بشرتك صفراء جداً".

لم تحاول ماري أن تتحكم في غضبها الشديد واستكبارها، وقالت:

"اعتقدت أننى من المحليين! أجزوت على فعل ذلك؟! أنت لا تعرفين أى شىء عن المحليين. إنهم ليسوا بشرًا - مجرد خدم يحننون لك حين يقدمون التحية. لا تعرفين شيئًا عن الهند. أنت لا تعرفين أى شىء عن أى شىء".

كانت مارى فى شدة الغضب، وشعرت بعدم جدوى غضبها. أمام تحديق الفتاة الشابة فيها، وشعرت فجأة بأنها وحيدة جدًا، وبعيدة عن أى شىء تستطيع فهمه، أو أى شىء يستطيع فهمها، لدرجة أنها ألقت بنفسها على السرير، ودفنت وجهها فى الوسائد، وانفجرت فى بكاء مرير. لقد أسرفت فى البكاء حتى أن مارثا، الفتاة اليوركشايرية حسنة الطباع، خافت عليها وشعرت بالأسى تجاهها. واتجهت إلى السرير، وانحنى فوقها، وقالت متوسلة:

"لا.. لا! ينبغى ألا تبكى هكذا. بكل تأكيد ينبغى ذلك. لم أكن أعرف أنك ستستثارين إلى هذا الحد. فأنا لا أعرف أى شىء عن أى شىء - كما قلت. أتوسل إليك يا آنسة أن تتوقى عن البكاء".

وكان هناك شعور بالراحة، وإحساس حقيقى بالود فى لهجتها اليوركشايرية الفجة، وأسلوبها الغريب الذى كان له عظيم الأثر على مارى. فبدأت تتوقف عن البكاء تدريجيًا، وأصبحت هادئة، فتنهدت مارثا وشعرت بارتياح.

قالت مارثا:

"لقد حان الوقت لتنهضى من الفراش الآن. إن السيدة ميدلوك أخبرتنى بأن أضع الإفطار، والشاي، والعشاء فى الحجرة المجاورة لهذه

الغرفة. وهى بمثابة الحضانة لك. وسأساعدك فى ارتداء ملابسك لو أن هذا سيجعلك تنهضين من الفراش. لو أن الأضرار من الخلف فلن تتمكنى من تزييرها بمفردك".

وحين قررت مارى أن تنهض أخيراً من السرير، أخذت مارثا من الدولاب بعض الملابس، وكانت غير التى كانت ترتديها مارى حين وصلت فى الليلة السابقة مع السيدة ميدلوك.

قالت مارى:

"هذه الملابس ليست ملابسى. لقد كانت ملابسى سوداء".

أخذت المعطف الصوفى الأبيض السميك، فارتدته، ثم قالت فى نشوة:

"هذه الملابس أفضل من ملابسى".

فقالت مارثا: "هذه هى الملابس التى ينبغى عليك أن ترتديها. فقد أمر السيد كرافن السيدة ميدلوك بأن تجلبها من لندن معللاً ذلك بقوله إنه لا يريد أن يكون لديه طفل يرتدى ملابس سوداء ينتقل هنا وهناك كروح ضائعة. إن هذا سيجعل المكان أكثر حزناً مما هو عليه. ألبسها ألواناً مختلفة. وقالت السيدة بأنها أدركت ما يقصد، فهى تعرف دائماً ما يقصده أى شخص. كما أن اللون الأسود لا يروق لها".

فقالت مارى:

"وأنا أكره الأشياء السوداء".

وقد علّمت عملية ارتداء الملابس كليهما شيئاً. كانت مارتا تزرر أزرار الملابس لإخوتها البنات والبنين، ولكنها لم تر مطلقاً طفلة تقف ساكنة في انتظار من يلبسها ملابسها، وكأنها بلا ذراعين أو قدمين.

وحين وضعت ماري قدمها في يد مارتا، قالت لها مارتا:

"لَمْ لا ترتدين حذاءك بنفسك؟"

فأجابت ماري:

"لأن مربيتي كانت تقوم بهذا الفعل".

ثم حدقت فيها، وأردفت قائلة:

"تلك هي العادة!".

كانت تقول ذلك مراراً - "تلك هي العادة". الخدم المحليون كانوا يقولون ذلك دومًا. لو أن شخصًا ما أخبرهم بأن يفعلوا شيئًا لم يفعله أجدادهم من آلاف السنين، فسينظرون إليه ببرود ويقولون:

"هذه ليست من عاداتنا"، وسيعرف هذا المرء أن هذا الأمر هو نهاية ما أراد.

وكانت العادة أن السيدة ماري الصغيرة لم تكن تفعل أى شيء سوى الوقوف ساكنة ليضعوا عليها ثيابها مثل دمية، ولكن قبل أن تجهز لطعام الإفطار بدأت تشك في أن حياتها في ضيعة ميسلثويت ستحتم عليها أن

تتعلم الكثير من الأشياء التى لم تعتدها من قبل - أشياء مثل أن ترتدى الحذاء والجورب بنفسها، وأن تلتقط الأشياء التى سقطت منها. فلو كانت مارتا خادمة شابة مهيبة وذات حسن تصرف، لأدركت أنه كان من الواجب عليها أن تكون أكثر احترامًا ونفعًا، وأنه من الواجب عليها أن تخدمها بتمسيد شعرها، وتزير أزرار حذاءها ذى الرقبة، وأن تلتقط الأشياء وأن تضعها فى المكان المألوف. ولكنها رغم ذلك كانت فتاة ساذجة غير مدربة من يوركشاير، تربت فى بيت ريفى فى البرارى مع حشد من الإخوة والأخوات الصغار، لم يحلموا بشيء قط إلا الانتظار لخدمة أنفسهم، أو خدمة الأصغر منهم، سواء من الأطفال الرضع الذين يحملون على الذراعين، أو الذين يتعلمون المشى ويسقطون فوق الأشياء فى أثناء سيرهم.

ولو أن مارى لينوكس كانت من الأطفال الذين لديهم استعداد للهو، لكان من المحتمل أن تسخر من استعداد مارتا للحديث، ولكن مارى كانت تستمع إليها ببرود، وكانت تندهش من حريتها فى التعبير عما يجول بخاطرهما. فى البداية لم تكن تهتم إطلاقًا - ولكن تدريجيًا - وبما أن مارتا كانت تثرثر بطريقة ودية، وكان مزاجها حسنًا، فبدأت مارى تلتفت وتهتم بما يقوله مارتا.

قالت مارتا:

"إيه .. ينبغى عليك أن تشاهديهم جميعًا. نحن اثنا عشر، وأبى يتحصل على ستة عشر شلنًا فى الأسبوع. ويمكننى أن أخبرك أن أمى تعانى كثيرًا

لتحضير عصيدة لهم جميعاً. كانوا يتقافزون عبر البرارى ويلعبون هناك طوال اليوم حتى إن أمى كانت تقول دائماً إن هواء البرارى يسمنهم. كما كانت تقول بأنها تعتقد أنهم يأكلون من العشب كما تأكل الجياد البرية الصغيرة. أخى سيكون الذى يبلغ من العمر اثنى عشر عاماً، له جواده الصغير الذى يدعى بأنه ملكه".

سألتها مارى:

"من أين حصل عليه؟"

فأجابت مارتا:

"وجدته فى البرارى مع أم الجواد، حين كان الجواد صغيراً، وبدأ فى تكوين صداقة بينه وبين الجواد الصغير، فقد كان يعطيه كسرات من الخبز، ويقتلع الحشائش الصغيرة من أجله ثم يعطيها له. أحبه الجواد الصغير وبدأ يتبعه فى كل مكان، كما سمح له بامتطاء ظهره. إن يكون شاباً طيباً والحيوانات تحبه".

لم تملك مارى حيواناً أليفاً قط، وكانت تعتقد دائماً أنه ينبغى عليها الحصول على أحدها، ولذا بدأت تشعر باهتمام تجاهه، ولأنها لم تكن تهتم بأى أحد من قبل سوى نفسها، فإن هذا الاهتمام بديكون كان بداية لشعور صحى حسن. حين ذهبت إلى الحجرة التى خصصت كحضانة لها، وجدت أنها مثل الغرفة التى تنام فيها. لم تكن غرفة لطفل، بل غرفة شخص بالغ، ذات رسوم قديمة كثيفة على الجدران، وكرسى قديم من السنديان.

أما فى منتصف الغرفة فكانت تقبع مائدة عليها طعام إفطار سخى. ولكن شهيتها كانت دائماً ضعيفة، فنظرت بلا مبالاة إلى أول الأطباق التى وضعتها مارثا أمامها.

فقالت مارى: "لا أريده".

فقالت مارثا مدهوشة، ويطؤها الشك: "ألا تريدين العصيدة!"

فأجابت مارى: "كلا".

فقالت مارثا: "أنت لا تعرفين كم هى لذيذة. يمكنك أن تضعى عليها القليل من دبس السكر أو السكر".

فرددت مارى مقولتها: "لا أريدها".

فقالت مارثا: "إيه .. لا يمكننى أن أرى طعاماً جيداً يذهب أدراج الرياح. لو أن إخوتى هاهنا الآن لتناولوا كل ما على المائدة وتركوها خالية تماماً فى خمس دقائق".

فقالت مارى ببرود: "لماذا؟"

فرددت مارى كلمتها: "لماذا! لأنه من النادر أن تمتلئ بطونهم، فمعدتهم دائماً خاوية مثل الصقور والثعالب الصغيرة".

قالت مارى بلا مبالاة الجهل: "لا أعرف ما معنى أن يكون المرء جوعان".

نظرت إليها مارتا بسخط. وقالت بصراحة:

"حسنًا .. من الأفضل لك أن تجربى. يمكننى رؤية هذا بوضوح. ليس لدى صبر مع أى شخص يجلس ليحرق فى الخبز الجيد واللحم. يا إلهى! كم تمنيت أن ينال يكون، وقيل، وجين، والإخوة الباقون كل ما هنا ليكون تحت ثيابهم".

فاقتربت ماري: "ولم تأخذين هذا الطعام إليهم؟".

فأجابت مارتا بجرأة:

"لأنها ليست ملكى. كما أن اليوم ليس يوم خروجى، فالיום الذى أخرج فيه يكون يومًا واحدًا فى الشهر مثل الباقين. عندئذٍ أذهب إلى البيت وأقوم بالتنظيف لأستريح ولو ليوم واحد".

شربت ماري القليل من الشاي، وأكلت القليل من الخبز المحمص والمربى.

قالت مارتا: "دعينا من هذا الحديث الآن، وهيا لتذهبى إلى الخارج لتلعبى. فإن هذا سيجعلك تشعرين بتحسن كما سيجعل معدتك خاوية لتتناولى اللحم".

ذهبت ماري إلى النافذة. كان هناك الكثير من الحقائق والممرات والأشجار الضخمة، ولكن بدا كل شيء باهتًا وشتويًا.

- "فى الخارج؟ لماذا على أن أذهب إلى خارج البيت فى يوم مثل هذا؟".

- "حسنًا .. إن لم يكن لك رغبة فى الذهاب إلى الخارج، إذًا فطعك المكوث داخل المنزل، ولكن ما الذى ستفعلينه؟".

رمقتها ماري. لم يكن هناك ما يمكنها فعله. حتى إن السيدة ميدلوك لم تفكر في أن تضع أى وسيلة من وسائل الترفيه حين خصصت لها حجرة كحضانة. ولذا كان من الأفضل لها أن تذهب إلى الخارج لترى كيف تبدو الحداثق.

تساءلت ماري:

— "من سيذهب معي؟"

حدقت فيها مارثا، ثم أجابت:

— "ستذهبن بمفردك .. سيتوجب عليك أن تتعلمي كيف تلعبين مثل بقية الأطفال حين لا يكون لديهم إخوة أو أخوات. فمثلاً سيكون كان ينطلق بمفرده إلى البراري ويلعب هناك لساعات. وهذا ما جعله صديقاً للجواد الصغير. كما أن هناك أغناماً في البراري تعرفه. وتأتي الطيور لتأكل من يديه. ومع أنه لا يوجد سوى القليل من الطعام، غير أنه كان يدخر فتاتاً من خبزه ليلاطف بها حيواناته الأليفة".

وما إن ذكر هذا الكلام عن ديكون، حتى قررت ماري الخروج إلى البرية، بالرغم من أنها لم تكن على دراية بها. وسيكون في الخارج الكثير من الطيور، برغم أنه لن يكون هناك أغنام أو جياذ صغيرة. فربما كانت الطيور مختلفة عن الطيور في الهند، وستستمتع بمشاهدتها.

وجدت مارثا معطفها وقبعتها، وزوجاً من حذاء ذى رقبة سميك. وأرشدتها إلى طريق النزول للطابق السفلى.

قالت مارتا: "إذا مشيت في هذا الطريق فستصلين إلى الحدائق". وأشارت إلى بوابة في حائط تكسوه الشجيرات، ثم: "يوجد هناك الكثير من الأزهار في فصل الصيف، ولكنك لن تجدى شيئاً مزهراً الآن". وبدأ أنها ترددت للحظة قبل أن تضيف: "إحدى هذه الحدائق مغلقة، ولم يدخلها أحد لعشر سنين".

فتساءلت ماري رغماً عنها: "لماذا؟"، وقد تبدي لها قفل جديد قد أُضيف إلى مئات الأقفال في هذا المنزل الغريب.

– "لقد أغلقها السيد كرافن حين ماتت زوجته فجأة، ولم يسمح لمخلوق أن يدخل تلك الحديقة منذ ذلك اليوم. لقد كانت حديقته. وقد قام بإغلاق بابها ثم حفر حفرة وضع بها المفتاح ليدفنه فيها. هاهو جرس السيدة ميدلوك يدق – يجب أن أسرع إليها".

بعد أن ذهبت مارتا، مشت ماري متجهة إلى الباب في الحائط المغطى بالشجيرات، ولم تستطع أن تمنع نفسها من التفكير في الحديقة؟ السرية التي لم يدخلها أحد منذ عشر سنين. تساءلت: يا ترى كيف تبدو تلك الحديقة، كما تعجبت إن كان ما زال بها بعض الزهور النامية. حين اجتازت البوابة في الجدار المغطى بالشجيرات وجدت نفسها وسط حدائق عظيمة بها مروج واسعة ومنعطفات للسير، وذات جوانب ثابتة. كانت هناك أشجار، ومروج من الأزهار، ونباتات دائمة الخضرة تتشابك مكونة أشكالاً غريبة، وبركة كبيرة، في وسطها نافورة رمادية قديمة. لكن مروج الأزهار كانت قاحلة وشتوية، كما أن النافورة لم تكن تعمل. لم تكن هذه هي الحديقة المغلقة. كيف يمكن غلق حديقة؟، تستطيع دائماً أن تسير في الحديقة.

كانت مستغرقة فى التفكير بتلك الأشياء حتى رأت أن - فى نهاية
الممر الذى كانت تسير فيه - هناك كما يبدو جدارًا طويلًا، ينمو عليه أشجار
اللبلاب. لم تكن قد ألفت إنجلترا بالقدر الكافى بعد، لتدرك أنها قد وصلت
إلى الحدائق المخصصة للمطبخ، حيث يزرعون الفواكه والخضروات. مشت
صوب الجدار ووجدت أن هناك بابًا أخضر عبر اللبلاب، وكان مفتوحًا. لم
تكن هذه هى الحديقة المغلقة - بالتأكيد - ولذا فيمكنها الدخول.

مرت من الباب ووجدت نفسها داخل حديقة مسورة، تحيطها الجدران
من كل جانب، وكانت تلك الحديقة واحدة من الحدائق المسورة ويبدو وكأن
كل واحدة منها تنفتح على حديقة أخرى. رأت بابًا أخضر آخر مفتوحًا،
وتظهر منه الشجيرات، والممرات بين مروج الزهور التى تحتوى على
خضروات الشتاء. أما أشجار الفاكهة فكانت متراسة فى مواجهة الجدار،
وفوق بعض المروج كانت هناك أشكال زجاجية. وقد اعتقدت مارى بأن
المكان كان قبيحًا وخاليًا بما يكفى، فتوقفت وتطلعت إلى كل شئ حولها.
ربما سيكون هذا المكان أجمل فى فصل الصيف حينما تخضر الأشياء، أما
الآن فلا يوجد شئ جميل بها.

فى تلك الأثناء كان هناك رجل مسن يحمل على كتفه جاروفًا، ومشى
عبر الباب المؤدى إلى الحديقة الثانية، بدا عليه الروع حين رأى مارى، ثم
لس قبعته ليحييها. كان له وجه مسن، ولم يبد عليه السعادة لرؤيتها هناك
- ولكن عندئذ انتابها الغم من حديقته، ولبسها التعبير القديم "مارى عكس
الكل"، وبكل تأكيد لم يبد عليها السعادة لرؤيته.
سألته: "ما هذا المكان؟".

فأجاب: "إحدى الحدائق الخاصة بالمطبخ".

فسألته وهى تشير إلى الباب الأخضر الآخر: "وما تلك؟".

فأجاب باختصار: "واحدة أخرى". ثم "يوجد واحدة أخرى على الجانب الآخر من الجدار، أما بستان الفاكهة فيوجد على الجانب الآخر من تلك الحديقة".

فسألت: "هل يمكننى الذهاب إليها؟".

- "لو تحبين ولكن لا يوجد ما يستحق الرؤية الآن".

لم ترد مارى. بل مشت مباشرة عبر الممر المؤدى إلى الباب الأخضر الثانى. وهناك وجدت المزيد من الجدران وخضروات الصيف وأشكالاً زجاجية، ولكن فى الحائط الثانى كان هناك باب أخضر آخر، ولم يكن مفتوحاً. ربما يؤدى هذا الباب إلى حديقة لم يدخلها أحد منذ عشر سنين. وحيث إنها لم تكن طفلة جبانة، بل كانت تفعل كل ما تريد فعله، ذهبت مارى إلى الباب الأخضر، وعالجت المقبض لتفتحه. تمنى ألا يُفتح الباب لأنها أرادت التأكد من أنها قد وصلت إلى الحديقة العجيبة - لكن الباب انفتح بسهولة وعبرته، ووجدت نفسها فى بستان الفاكهة. وكانت تحوطه الجدران أيضاً، وتصطف أمامها الأشجار، كما كان يوجد أشجار فاكهة خالية تماماً من الثمار، وتنمو بين الحشائش الشتوية البنية، ولكن لم يكن هناك باب أخضر آخر فى أى مكان منها. بحثت مارى عن باب أخضر آخر، ومع ذلك فحين دخلت فى الجزء البعيد عن الباب، لاحظت أن الحائط يبدو وكأنه لا ينتهى ببستان الفاكهة، ولكنه يمتد إلى ما وراء ذلك، حتى وكأنه

يحيط بمكان على الجانب الآخر. كانت ترى قمم الأشجار من فوق الجدار،
وحين وقفت ساكنة رأت طائرًا أحمر الصدر يقف على أعلى فرع من فروع
الشجرة، وفجأة بدأ يغنى أغنيته الشتوية، وكأنه رآها وبدأ ينادى عليها.

توقفت لتستمع إليه. منحها صفيhre الصغير المرح والود وإحساسًا
بالسعادة - حتى إن فتاة صغيرة سيئة الطباع ربما تكون وحيدة، وذاك
البيت الضخم المغلق، والبراري الكبيرة القاحلة، والحدائق الكبيرة الخالية
من الأزهار جعلت فتاة مثلها تشعر وكأنه لا يوجد أحد بالعالم سواها. فلو
كانت طفلة رقيقة المشاعر، اعتادت أن يحبها الجميع، لكان قلبها سينفطر،
ولكن رغم ذلك كانت "مارى عكس الكل". لقد كانت مكتئبة، ولكن الطائر
الصغير ذا الصدر اللامع قد جلب إلى وجهها البائس نظرة تشبه البسمة.
ظلت تنصت له إلى أن طار بعيدًا. لم يكن مثل الطيور الهندية، كما أنها
أحبته، وتساءلت إن كان من الممكن أن تراه ثانية. ربما يعيش فى الحديقة
الغريبة، ويعرف كل شيء عنها.

ربما كان هذا لأنها لم يكن لديها ما تفعله لدرجة أن كل تفكيرها كان
منصبًا على الحديقة المهجورة. كانت تشعر بالفضول تجاهها، وتريد أن
ترى كيف تبدو تلك الحديقة. لم يَدفن السيد أرثشيبالد كرافن المفتاح؟ إذا
كان يحب زوجته إلى هذا الحد، فلم يكره حديقته؟ وتساءلت إن كان يمكنها
فى يوم من الأيام أن تراه، ولكنها كانت تعرف أنها إن رآته فلن تحبه، وأنها
ستقف أمامه لتحقق فيه، ولن تقول كلمة، برغم أنها تريد بالبحاح أن تسأله
لم فعل هذا الشيء الغريب.

فَكَّرْتُ "إنَّ الناسَ دائماً لا يحبوننى، كما أننى لا أحبهم". ثمَّ: "كما لا يمكننى أن أتحدث مثلاً يتحدث أطفال كراوفورد. لقد كانوا دائماً يتحدث، والضحك، ويصنعون الكثير من الضوضاء".

فكرت فى طائر أبى الحناء، وفى طريقة غنائه أغنيته لها. ولأنها تذكرت قمة الشجرة التى كان يجثم عليها، توقفت فجأة فى طريقها، ثم قالت لنفسها: "أعتقد بأن تلك الشجرة موجودة فى الحديقة السرية - أنا على يقين بهذا. فإن المكان محاط بالأسوار من كل جانب ولا يوجد أى باب".

مشيت عائدةً إلى أول حديقة دخلت إليها، وجدت الرجل المسن يعزق فيها. ذهبت إليه ووقفت بجواره، وراقبته للحظات بطريقتها الباردة. لم يلحظها الرجل، وفى النهاية تحدثت إليه قائلة:

- "لقد كنت فى الحديقة الأخرى".

- "لم يوجد ما يمنعك من ذلك". أجابها بقسوة.

- "دخلت إلى بستان الفاكهة".

- "لا يوجد كلب على الباب ليعضك".

- "لم يكن هناك باب آخر ليقودنى إلى الحديقة الأخرى".

- "أى حديقة؟" قالها الرجل بصوته الخشن، ثم توقف عن عزق الأرض للحظة.

فقالَت الأنسة ماري: "الحديقة الموجودة على الجانب الآخر من السور. يوجد هناك أشجار - لقد رأيت قممها. كما أن طائرًا بصدر أحمر كان يقف على قمة أحدها ويغنى": ولدهشتها فإن وجه الرجل المسن اللفظ الذي دارت عليه دائرة الأزمان تغير تعبيره كليةً. انفردت على هذا الوجه ابتسامة كبيرة ببطء، وبدأ البستاني مختلفًا تمامًا. جعلها هذا الأمر تعتقد إلى أى مدى يكون الإنسان أكثر لطفًا ورقة حين يبدو مبتسمًا. لم تلاحظ هذا الأمر من قبل.

التفت إلى الجانب الذي به بستان الفاكهة، ثم بدأ يُصفر - صغيرًا رقيقًا وهامسًا. ولم تفهم كيف يمكن لرجل فظ مثله أن يصدر عنه مثل هذا الصوت اللطيف. وفى اللحظة التالية حدث شيء رائع. سمعت صوت طائر محلق اندفع فى الهواء مسرعًا إليهم - وكان هو الطائر ذو الصدر الأحمر - وحظ بالفعل على كتلة الطين المجاورة لقدم البستاني.

ضحك الرجل المسن وقال: "ها هو ذا!"، ثم بدأ يتحدث مع الطائر وكأنه يتحدث مع طفل صغير.

قال البستاني: "أين كنت أيها الشحاذ الصغير ذو الخدين الممتلئين. لم أرك قبل اليوم. هل بدأت غناءك مبكرًا هذا الموسم؟ أنت مغرور جدًا". أمال الطائر رأسه الدقيق على أحد الجانبين، ونظر لأعلى إليه بعينيه الرقيقتين المشرقتين، والتي بدتا كقطرتي ندى سوداوين. بدا الأمر كأنه مألوف، ولا يوجد أى شيء ليخيفه. تقافز الطائر وبدأ ينقر التربة برشاقة باحثًا عن البذور والحشرات. وبالفعل أحست ماري بإحساس غريب ينتاب قلبها، لأنه

كان طائرًا جميلًا جدًا، ويبحث على البهجة، ويبدو كأنه إنسان. كان له جسم ضئيل - لكن ممتلئ - ومنقار دقيق، ورجلان نحيلتان دقيقتان.

تساءلت ماري بصوت هامس: "هل يأتي إليك دائمًا حين تناديه؟".

فأجاب البستاني: "نعم، يلبي النداء. أعرفه منذ أن كان فرخًا صغيرًا. خرج من العش في الحديقة الأخرى، وحين طار لأول مرة فوق السور، كان ضعيفًا جدًا لدرجة أنه لم يستطع الطيران ليعود إلى عشه ثانية لأيام قلائل، وأصبحنا أصدقاء. وحين طار ثانية فوق السور وجد أن الأفراخ الأخرى قد غادرت، وتركته وحيدًا، فعاد ثانية إليّ".

سألته ماري: "أى نوع من الطيور هذا الطائر؟"

فأجابها البستاني: "ألا تعرفين؟ إنه أبو الحناء ذو الصدر الأحمر وفصيلته هي أكثر الطيور فضولاً وصداقة للبشر. هي ودودة تمامًا مثل الكلاب - لو علمت كيف تتعاملين معها. انظري إليه وهو ينقر الأرض هناك وينظر إلينا من حين لآخر. يعرف أننا نتحدث عنه". وكان أغرب شيء يمكنها أن تراه في هذا العالم هو ذاك البستاني العجوز. لقد كان ينظر إلى الطائر الصغير الممتلئ الجسم، والذي يميل لون وسطه إلى اللون القرمزي كما لو أنه فخور ومعجب به.

قال البستاني ضاحكًا: "إنه طائر مغرور. يحب أن يسمع حكايات العامة عنه. كما أنه فضولى - ليباركنى الرب، لم أر مطلقًا أحدًا بمثل

فضوله . يأتي دائماً ليرى ما أزرعه . كما أنه يعرف كل الأشياء التي لا يشغل السيد كراقرن بها باله . إنه رئيس البستانيين " . تقافز الطائر هنا وهناك منشغلاً بنقر التربة ، ومن حين لآخر يتوقف لينظر إليهم قليلاً . ظنت ماري أن عين الطائر التي تشبه قطرة ندى سوداء تحديق فيها بفضول كبير . بدا حقاً وكأنه يريد أن يكتشف كل شيء عنها . ازداد الشعور الغريب في قلبها . سألته ماري : " إلى أين طار بقية الصغار؟ " .

فأجاب البستاني : " لا أحد يعرف . إن الطيور الأكبر سناً أجبرتها على ترك العش وممارسة الطيران ، وقد تفرقت قبل أن تتعرفى عليها . أما هذا الطائر فإنه ذكي ويعرف أنها تركته وحيداً " .

خطت الآنسة ماري خطوة لتقترب من طائر أبي الحناء ، وسددت إليه نظرة قوية جداً وفاحصة . ثم قالت : " إنني وحيدة " .

ولم تعرف من قبل أن هذا هو أحد الأشياء التي جعلتها تشعر بالحزن والغضب . ويبدو أنها اكتشفت هذا الشعور حينما نظر إليها طائر أبي الحناء ، وحينما نظرت إليه . سحب البستاني المسن قبعته للخلف على رأسه الأضلع ، وحملق لدقيقة .

سألها البستاني : " هل تشعرين بشيء من الحزن لتركك الهند؟ " فأومأت ماري برأسها إيجاباً .

فقال البستاني: "لا عجب عندئذ من شعورك بالوحدة. ولم تكونى لتشعرى بالوحدة من قبل". بدأ العزق ثانية، ويضغط على جاروفه فى التربة السوداء الخصبة فى حين أن طائر أبى الحناء يتقافز من هنا لهنالك مشغولاً بعمله.

تساءلت مارى: "ما اسمك؟".

توقف ليرد عليها: "بن وذرستاف" ثم أضاف بفضافة غريبة: "أنا نفسى وحيد فيما عدا الوقت الذى يكون معى فيه". ولوح يابهامه تجاه أبى الحناء، ثم: "إنه صديقى الوحيد".

قالت مارى: "ليس لى أى أصدقاء. لم يكن لى قط أصدقاء. مربيتى لم تكن تحبنى ولم أَلعب مع أحد".

كانت من عادات يوركشاير أن تقول ما يدور بخلدك بوضوح متبلد، وكان بن وذرستاف المسن واحداً من رجال برارى يوركشاير.

قال لها: "نحن- الاثنين متشابهان. لقد نُسجنا من القماش نفسه. فليس منا من يبدو حسن المظهر، وكلانا كره كما يبدو. لنا نفس المزاج السيئ، كلانا. أراهن على ذلك".

كان هذا الكلام بسيطاً وواضحاً، ولم تسمع مارى من قبل الحقيقة عن نفسها طوال حياتها. كان الخدم المحليون دائماً يحنون، ويستسلمون لها مهما فعلت بهم. لم تفكر كثيراً فيما قد تبدو عليه، ولكنها تعجبت لو أنها غير جذابة مثل بن وذرستاف، كما تعجبت لو أنها تبدو قبيحة مثلما كان يبدو

قبل أن يأتي طائر أبي الحناء. وبدأت تتسائل متعجبةً كما هو أنها سيئة المزاج. وشعرت بعدم ارتياح.

وفجأة صدر صوت ضعيف رقيق وواضح بجوارها فالتفتت حولها. كانت تقف على بعد قدم من شجرة تفاح صغيرة، أما أبو الحناء فقد طار ووقف على أحد أفرعها، وبدأ يغنى مقطوعةً من أغنيته. فانطلق بن وذرستاف فى ضحكه فى الحال.

تساءلت ماري: "ماذا فعل من أجل هذا؟"

فرد عليها: "لقد اختار أن يكون صداقة معك" ثم أضاف: "فلتتكلنى أُمى لو أنه لم يربط نفسه بك".

قالت ماري: "بى؟" واتجهت نحو الشجرة الصغيرة بهدوء، ونظرت لأعلى.

قالت لطائر أبي الحناء: "هل تسمح لى بأن نكون أصدقاء؟". تكلمت معه كما لو أنها تتكلم مع شخص "هل ستسمح بصداقتنا؟" ولم تقل تلك الكلمات بصوت عالٍ، أو أجش، أو بصوتها الأمر كما كانت فى الهند، ولكن بصوت رقيق، تواق، لطيف حتى إن بن وذرستاف كان مدهوشاً كما كانت مدهوشة حين سمعته يُصفر.

فصاح فيها البستاني: "لم قلت هذا كما لو كنت إنسانة لطيفة كطفلة حقيقية بدلاً من صوتك الأمر كامرأة عجوز. لقد قلتها كما يتحدث ليكون مع كائناته البرية فى البرارى".

فسألته ماري: "هل تعرف ديكون؟" والتفتت إليه سريعاً.

فأجاب: "الكل يعرف ديكون. فهو يتجول في كل الأنحاء. حتى إن أشجار التوت الأسود ونباتات الخنج تعرفه. أراهن على أن الثعالب تراه أين تمكث جراًؤها، وطيور القبرة لا تُخفى عنه أعشاشها".

أحبت ماري أن تسأل المزيد من الأسئلة. فقد كان عندها حب استطلاع شديد عن يكون بنفس درجة فضولها بخصوص الحديقة السرية. ولكن في هذه اللحظة بالضبط قام طائر أبو الحناء - الذي كان قد أنهى أغنيته لتوه - بهز أجنحته قليلاً، ثم فردها وطار مبتعداً. لقد قام بزيارتهم ولكن مازال أمامه المزيد من الأشياء ليقوم بها.

فصاحت ماري وهي تراقبه: "لقد طار من فوق السور. لقد طار إلى بستان الفاكهة. وطار عبر الحائط الآخر إلى الحديقة التي ليس لها أبواب".

فقال بن المسن: "إنه يعيش هناك. وخرج من البيضة هناك. كما أنه يحاول أن يواعد أنثى شابة من طيور أبي الحناء تعيش في أشجار الورد القديمة هناك".

قالت ماري: "أشجار الورد.. هل يوجد هناك أشجار ورد؟".

أخذ بن ودرستاف جاروفه ثانية، وبدأ يعزق الأرض. وغمغم قائلاً:

"كان هناك أشجار الورد منذ عشر سنين مضت".

فقالَت ماري: "أود رؤيتها. أين الباب الأخضر؟ بالتأكيد هناك باب في مكان ما".

دفع بن جاروفه عميقًا داخل الأرض، وبدأ غير ودود كما رآته أول الأمر. ثم قال:

"كان هناك باب منذ عشر سنين مضت، أما الآن فلا يوجد أبواب".

فصاحت ماري: "لا يوجد أبواب؟ كيف ذلك؟ بالتأكيد هناك باب".

"لا يوجد أبواب حيث لا يمكن لأي أحد أن يجد بابًا، كما أن هذا الأمر لا يخص أي فرد. لا تكوني مصدرًا للمتاعب، ولا تتدخل في ما لا يعنيك. والآن، يجب على أن أنهى عملي. عليك باللعب بعيدًا عني الآن، فلم يعد عندي وقت لأضيّعه معك".

وبالفعل توقف عن العزق، ووضع جاروفه على كتفه، ثم مشى بعيدًا، دون أن يلتفت إليها، ودون أن يودعها بـ "إلى اللقاء".

الفصل الخامس

بكاء فى الممر

فى البداية، كان كل يوم يمر على مارى لينوكس شبيهاً بالأيام التى سبقتة. كانت تستيقظ فى الصباح فى حجرتها ذات الجدران المكسوة بنسيج عليه رسوم، وتجد مارثا راكعة على ركبتها لتصلح نيران المدفأة؛ فى كل صباح كانت تتناول طعام إفطارها فى حجرة الحضانة المخصصة لها، والتى ليس بها ما يُسلى. وبعد كل طعام إفطار كانت تحنق بعيداً من نافذة الحجرة فى البرارى البعيدة والتى كانت تبدو وكأنها منتشرة فى كل الأرجاء، وتصعد إلى السماء، وبعد أن تحملق لفترة قصيرة، كانت تدرك أنها إن لم تخرج من البيت، فسوف تجلس دون أن تفعل أى شىء – وبهذا كانت تخرج. لم تكن تعرف أن هذا كان أفضل الأشياء التى يمكنها فعلها، ولم تكن تعرف أنها حين بدأت تمشى بسرعة أو حتى تجرى بطول الممرات، وعبر الطريق المشجر، كانت تنشط دورتها الدموية، وكانت تقوى من بدنها، حيث كانت تتصارع مع الريح التى تهب عليها من البرارى. كانت تجرى لتدفع نفسها، وكانت تكره الرياح التى تندفع إلى وجهها، وتزأر، وتمسك

بها من الخلف كما لو كانت عملاقاً لا تستطيع رؤيته. ولكن نسمات الهواء المنعش الكبيرة التي كانت تهب عليها محملة برائحة زهور الخلنج، كانت تملأ رئتيها بشيء كان مفيداً لبدنها النحيف، وكان يرسم لوناً أحمر خفيفاً على وجنتيها، ويجعل عينيها الباردتين مشرقتين، في حين أنها لا تعرف شيئاً من هذا.

ولكن بعد عدة أيام قضتها كليةً خارج البيت، استيقظت ذات صباح وهي تشعر بالجوع، وعندما جلست إلى طعام فطورها، لم تنظر إلى العصيدة باردرء وتنحها جانباً، بل أخذت ملعقتها، وبدأت في الأكل، واستمرت في أكل العصيدة إلى أن أصبح وعاء الطعام خالياً تماماً.

فقالت مارثا: "أنت تشعرين بتحسن هذا الصباح بما يكفي، أليس كذلك؟".

فقالت ماري، وهي تشعر بالدهشة: "للعصيدة مذاق حلو اليوم".

فقالت مارثا: "إنما هو هواء البراري الذي منحك معدة تريد الطعام. ولكم أنت محظوظة أن يكون لديك ما تقتاتين به جنباً إلى جنب مع شهيتك. فقد كان في بيتنا الريفى اثنتا عشرة معدة، ولكن لا يوجد طعام لنزودهم به. عليك باللعب كل يوم خارج المنزل، وستكتسى عظامك باللحم، ولن يكون جلدك شاحباً بعد ذلك أبداً".

فقالت ماري: "ولكننى لا ألعب. ليس معى شيء لألعب به".

فاندهشت مارتا: "لا يوجد ما تلعبين به!" ثم أضافت: "إن الأطفال هنا يلعبون بالعصى والأحجار. كل ما يفعلونه هو الجرى هنا وهناك والصيد والنظر إلى الأشياء".

لم تكن ماري تبكى، ولكنها كانت تنظر إلى الأشياء. ولم يكن هناك شيء آخر لتقوم به. كانت تتجول في الحدائق والبساتين، وتتمشى في ممرات المنتزه. كانت تبحث عن بن وذرستاف في بعض الأحيان، وبالرغم من أنها رآته في مرات عديدة مشغولاً جداً في العمل لدرجة أنه ليس لديه وقت لينظر إليها، أو يكون فظاً جداً معها.

وذات مرة حينما كانت تمشى ذاهبة إليه، حمل جاروفه ومشى مبتعداً، كما لو كان قد فعل ذلك عمداً.

كانت تذهب إلى مكان بعينه أكثر من أي مكان آخر. كانت تمشى في الممر الطويل خارج الحدائق التي تحوطها الأسوار. كانت هناك مروج خالية من الأزهار على كلا الجانبين، وأمام الجدران نما اللبلاب بغزارة. وكان هناك جزء من الجدار تنمو عليه الأوراق الخضراء الداكنة بكثرة عن أي مكان آخر. وبدا وكأن هذا الجزء قد تم إهماله لفترة طويلة. أما الباقي فكان مشذباً ويبدو منمقاً، ولكن في هذا الجزء المنخفض من الممشى، لم يشذب على الإطلاق.

بعد أيام قليلة من حديث ماري مع بن وذرستاف، توقفت ماري عن ملاحظة هذا الشيء وتعجبت لم هي كذلك. كانت تتوقف فقط وتنظر لأعلى إلى أزهار اللبلاب الطويلة التي تורجحها الرياح حين رأت ومضة قرمزية،

وسمعت سقسقة رائعة، وهناك، فى الأعلى على قمة السور كان يجلس طائر أبى الحناء ذو الصدر الأحمر، ويميل للأمام لينظر إليها برأسه الصغير:

فصاحت مارى: "أوه .. أهذا أنت؟ .. أهذا أنت؟" ولم تشعر بغربة على الإطلاق حين تحدثت إليه، كما لو أنها متأكدة من أنه يفهمها بل وسيرد عليها.

وقد رد عليها. بدأ يغرد، ويسقسق، ويتقافز على السور، كما لو أنه يخبرها بكل الأشياء التى يمكن إخبارها بها. وأحست الأنسة مارى أنها فهمته أيضًا، برغم أنه لم ينطق بكلمة. كانت أفعاله وكأنه يقول:

"صباح الخير! أليست الرياح لطيفة؟ أليست الشمس لطيفة؟ أليس كل شىء رائعًا؟ هيا بنا نحن - الاثنين - لثرقص، ونغنى، ونتقافز. هيا بنا! هيا بنا!"

بدأت مارى فى الضحك، ولأنه كان يتقافز، ويقوم بجولات طيران صغيرة فوق السور، وحيث إن مارى كانت تجرى خلفه، فقد بدت هذه الطفلة النحيلة البائسة الشاحبة القبيحة وكأنها جميلة جدًا للحظة.

صاحت بأعلى صوتها: "إنى أحبك .. إنى أحبك". وهى تعدو هابطة الممشى، وكانت تسقسق وحاولت أن تصفر، ولكنها لم تكن تدري كيف يمكنها الصفير، ولكن أبا الحناء بدا عليه الرضا، وبدأ يسقسق ويصفر رداً عليها. وفى النهاية فرد جناحيه، وطار برشاقة إلى أعلى الشجرة؛ حيث جلس ثم بدأ الغناء بصوت مرتفع.

كل هذا نكّر ماري بأول مرة رأتها فيها. كان ينتقل من مكان إلى آخر على قمة الشجرة حينما كانت واقفة في بستان الفاكهة. والآن هي تقف على الجانب الآخر من بستان الفاكهة، وتقف في ممر خارج السور - ينخفض للأسفل كثيرًا - وكانت نفس الشجرة تبدو من داخل الأسوار.

فقالت لنفسها: "إن هذه الشجرة بداخل الحديقة، ولا يمكن لأحد أن يدخلها". ثم أردفت: "إنها الحديقة التي بلا أبواب. يعيش بداخلها. كيف يمكنني أن أرى كيف تبدو من الداخل!"

هرعت صاعدة الممشى المؤدى إلى الباب الأخضر الذي دلفت منه في أول صباح لها هناك. ثم جرت هابطة الممر عبر الباب الآخر ثم إلى البستان، وحين توقفت ونظرت لأعلى كانت الشجرة هناك على الجانب الآخر من السور، وكان أبو الحناء هناك قد أنهى أغنيته لتوه، وبدأ في تسوية ريشه بمنقاره.

فقالت لنفسها: "إنها الحديقة. أنا متأكدة، إنها هي".

تجولت متفحصة هذا الجزء من سور البستان جيدًا، ولكنها لم تجد غير ما وجدته من قبل - إنه لا توجد أبواب في هذا السور تؤدي إلى الحديقة. ثم جرت ثانية عبر حدائق الخضروات خارجة إلى الممشى خارج السور الذي تغطيه أشجار اللبلاب الطويلة، ومشت إلى نهاية السور ثم نظرت إليه، ولكن لم يكن هناك أى أبواب. بعدئذ ذهبت إلى الجانب الآخر، متفحصة ثانية، ولكن لم يكن هناك أى أبواب.

فقالت: "يا له من شيء غريب. لقد قال بن وذرسلاف بأنه لا توجد أبواب، ولا توجد بالفعل أبواب. ولكن بكل تأكيد كان هناك باب من عشر سنين مضت، لأن السيد كرافن دفن المفتاح".

كان هذا الأمر يشغل كل تفكيرها، لدرجة أنها كانت تشعر بالإثارة، ولم تعد تأسف أنها أتت لتعيش في ضيعة مسيلثويت. كانت في الهند تشعر دائماً بالحرارة وبالفطور الشديدين لدرجة أنها لم تكن تهتم كثيراً بأي شيء. لكن الحقيقة أن رياح البراري المنعشة بدأت تهب لتطرد خيوط الوهن من عقلها الصغير لتستيقظ قليلاً. كانت تمكث خارج البيت طوال اليوم تقريباً، وحين كانت تجلس إلى وجبة العشاء في المساء كانت تشعر بالجوع، وبالنعاس، وبالراحة. ولم تكن تشعر بالغضب حين تسمع ثرثرة مارثا. بل أحست أنها تحب الإنصات لها، وفي النهاية أحست بأنها ستسألها سؤالاً. سألتها السؤال بعد أن تناولت وجبة العشاء، وبعد أن جلست على سجادة المدفأة أمام النار. فسألتها:

"لماذا يكره السيد كرافن الحقيقة؟"

لقد جعلت مارثا تبقى معها، ولم تمنع مارثا على الإطلاق. لقد كانت مارثا صغيرة جداً، وكانت معتادة على العيش في بيت ريفي مزدحم بالإخوة والأخوات، ووجدت الحياة كثيفة في رواق الخدم بالطابق السفلي؛ حيث يتحكم الخادم ورئيسة الخدم على لهجة حديثها اليوركشايرية، وكانوا ينظرون إليها على أنها شيء صغير عادي، وقد كانوا يجلسون ويتهايمسون عليها. كانت مارثا تحب التحدث، وقد كانت الطفلة الغريبة التي عاشت في الهند بين الزوج شيناً جديداً بدرجة تكفي لتجذب انتباهها.

جلست على السجادة أمام المدفأة دون أن تنتظر أن يُطلب منها ذلك. سألتها: "أما زلت تفكرين في الحديقة حتى الآن؟ أعرف أنك ما زلت تفكرين فيها، فقد حدث معى الشئ نفسه حين ذُكرت لى لأول مرة".

فسألتها مارى بمتابعة: "لماذا يكرهها؟".

زمت مارثا قدميها أسفل منها، وأراحت نفسها قليلاً، ثم قالت:

"أنصتى لزئير الرياح خارج المنزل". ثم أضافت: "لا يمكنك الوقوف فى البرارى إذا خرجت فى الليل".

لم تفهم مارى ماذا يقصد بكلمة "زئير" حتى أنصتت، وبعدها فهمت. من المؤكد أنها تعنى ذلك الصوت الأجوف المزعج الذى يتدافع حول المنزل من كل مكان، كما لو أن العملاق الذى لا يمكن لأحد أن يراه يستعملها فى قرع الجدران والنوافذ ليحاول اقتحام البيت. ولكنها تعرف أنه لن يمكنه الدخول، وبطريقة ما كان هذا يُشعرها بالأمان، والدفع داخل حجرة بها نيران حمراء منبعثة من مدفأة الفحم.

بعد أن أنصتت مارى، سألتها ثانية: "ولكن لم يكرهها إلى هذا الحد؟". وكانت تصر على معرفة إن كانت مارثا تعرف السبب. وهنا توقفت مارثا عن سرد أى معلومة إضافية، قائلة:

"عذراً. لقد قالت السيدة ميدلوك إن هذا الموضوع لا يجب أن يتحدث فيه أحد. هناك الكثير من الأشياء فى هذا المنزل التى لا يمكن للمرء أن يتحدث فيها. هذه هى أوامر السيد كرافن. حيث يقول دائماً إن متاعبه

لا دخل للخدم فيها. وبدون الحديقة لم يكن ليصير على ما هو عليه الآن. فهذه الحديقة كانت حديقة السيدة كرافن التي زرعته بنفسها فى بداية زواجهما، وقد أحببتهما كثيراً، وقد اعتادا أن يعتنيا بالأزهار فيها بأنفسهما. ولم يُسمح لأحد من البستانيّين قط بأن يدخلها، فقد اعتادا أن يدخلها الحديقة معاً، وأن يُغلّقا عليهما الباب لساعات وساعات، يقرآن ويتحدثان. وكانت السيدة كرافن مازالت شابة صغيرة، وكانت هناك شجرة كبيرة مُعمّرة، ولها أحد الأفرع على شكل مقعد، وقد جعلت الأزهار تنمو على هذا الفرع، وكانت تحب الجلوس عليه. ولكن ذات يوم كانت تجلس على الفرع فأنكسر، وسقطت على الأرض، وأصيبت بشدة لدرجة أنها ماتت فى اليوم التالى. اعتقد الأطباء حينها أنه سيفقد عقله، بل وسيموت أيضاً. ولذا فهو يكره تلك الحديقة، ولم يدخلها أحد قط منذ ذلك اليوم، ولن يسمح لأحد بالخوض فى حديث يتعلق بها".

لم تسأل مارى مزيداً من الأسئلة. بل نظرت إلى النيران الحمراء واستمعت لزئير الرياح. ويبدو أنها تزار أكثر من ذى قبل.

وفى تلك اللحظة، كان هناك شىء جيد يحدث لها. فى الواقع حدث أربعة أشياء حسنة لها منذ أن أتت إلى ضيعة مسيلثويت. فقد شعرت كأنها تستطيع فهم طائر أبى الحناء، وأنه يمكنه فهمها. وقد جرت فى الرياح حتى شعرت بدمها يملؤه الدفء. وقد بدأت تشعر بالجوع الصحى لأول مرة فى حياتها. واكتشفت معنى الإحساس بأن تشعر بالأسى من أجل شخص ما. وقد استطاعت التأقلم والعيش هناك.

ولكن فى أثناء استماعها للرياح، بدأت تصغى لصوت آخر. لم تكن تعرف ما هو؛ لأنه فى البداية كان يختلط بصوت الرياح، وكان من الصعب تمييزه. كان صوتاً يثير الفضول - كان مثل صوت طفل يبكى فى مكان ما. فى بعض الأحيان يكون صوت الرياح كصوت طفل يبكى. ولكن فى هذه اللحظة شعرت مارى بكل يقين أن هذا الصوت من داخل المنزل، وليس من الخارج. لقد كان الصوت بعيداً، ولكنه من داخل المنزل. التفتت ونظرت إلى مارثا.

سألتها: "هل تسمعين أحداً يبكى؟".

ارتبكت مارثا فجأة. ثم قالت: "لا. إنها الرياح. فى بعض الأحيان تبدو وكأنها شخص تاه فى البرارى وينتحب. إن بالرياح كل أنواع الأصوات".

فقالت مارى: "ولكن أنصتى جيداً. إن هذا الصوت من داخل المنزل - فى الأسفل، فى واحد من تلك الردهات".

وفى هذه اللحظة بالضبط، من المؤكد أنه فُتح باب فى مكان ما بالطابق السفلى، حيث كان هناك شىء يسحب بسرعة فى الأسفل بطول الممر، حتى إن باب الغرفة التى كانتا تجلسان فيها انفتح وأحدث صوت ارتطام، وحين هبتا من الذعر انطفأ نور الغرفة، وبدا الصوت الباكى يُجر إلى الرواق البعيد، حتى إن الصوت كان يُسمع بوضوح أكبر من ذى قبل.

قالت مارى: "هناك. لقد أخبرتك بهذا! هناك شخص يبكى - وهذا الشخص ليس شخصاً بالغاً".

أسرعت مارتا لإغلاق الباب، وأدارت المفتاح، ولكن قبل أن تفعل هذا، كانتا قد سمعتا صوت باب فى الرواق البعيد يُغلق بعنف، وبعدها صار كل شىء هادئاً، لدرجة أن الرياح خففت من زئيرها للحظات قليلة.

فقالت مارتا بعناد: "لقد كان صوت الرياح. وإن لم يكن الصوت صوت الرياح، فبتأكيد صوت بيتى بتروورث الصغيرة، خادمة غسل الأطباق. فقد كان عندها ألم بالأسنان طوال اليوم".

ولكن شيئاً ما أربكها وحيرها فى أسلوبها لدرجة جعلت الأنسة ماري تحديق إليها كثيراً. ولم تصدق أن مارتا كانت تقول الحقيقة.

الفصل السادس

هناك من يبكى .. هناك من يبكى ..

فى اليوم التالى، انهمرت الأمطار كالسيول، وعندما نظرت مارى من النافذة، كانت الغابة تقريباً مختفية خلف الضباب والسحب الرمادية. ويبدو أنه لن يستطيع أحد الخروج من منزله ذلك اليوم.

سألت مارى: "ماذا تفعلون فى كوخكم عندما تمطر هكذا؟".

أجابت مارثا: "نختبئ تحت بعضنا فى معظم الأحوال، ياه! نشعر بكثرتنا ساعتها. أُمى تستطيع التحكم فى انفعالاتها، ولكنها تبتئس قليلاً. يذهب الكبار إلى سقيفة الأبقار ويلعبون هناك. ولا يكثر نيكون بالبلل. يخرج وكأن الجو صحو. يقول إنه يرى الأشياء مختلفة تحت المطر عنها فى الطقس المعتدل. وجد مرة ثعلباً صغيراً شبه مختبئ بجحره فأحضره إلى البيت فى صدر قميصه ليبقيه دافئاً. كانت أم الثعلب قد ماتت قبلها والجحر

مغمور بالمياه وبقيّة إخوة الثعلب كانوا قد ماتوا. إنه معه الآن في البيت. في مرة أخرى وجد غراباً نصف مبلل فأحضره إلى البيت أيضاً وروضه. سمى سوت لأنه كان حالك السواد، وهو يحجل ويطير معه في كل مكان.

مر الوقت ولم تجد ماري استياءها من حديث مارثا المعتاد. بل إنها بدأت تشعر بأن حديثها شائق وتحزن عندما تتوقف عن الحكى أو عندما تذهب. ما كانت تحكيه لها مربيتها في الهند يختلف تماماً عما تحكيه مارثا عن حياة البراري والكوخ الذي يسكنه أربعة عشر شخصاً في أربع غرف صغيرة ولم يجدوا القوت الكافى يوماً. يلعب الأطفال هنا وهناك ويسلون أنفسهم مثلما يفعل صغار الكلاب الأسكتلندية البرية. انجذبت ماري كثيراً للحديث عن الأم ويكون. عندما كانت مارثا تحكى عما تقوله أو تفعله أمها كانت ماري دائماً تشعر بارتياح.

قالت ماري: "لو كان عندي غراب أو ثعلب صغير لكنت لعبت معه، لكن ليس عندي شيء".

بدا الارتباك على ماري.

سألتها: "هل تستطيعين الربط؟".

قالت ماري: "لا،".

"هل تستطيعين الخياطة؟".

"لا،".

"هل تستطيعين القراءة؟"

"نعم".

"إذن لماذا لا تقرأين شيئاً، أو تتعلمين الهجاء بعض الشيء؟ أنت كبيرة بقدر كافٍ وتستطيعين التعلم بشكل جيد الآن".

قالت ماري: "ليس عندي كتب، ما كان عندي تركته في الهند".

قالت ماريثا: "يالأسف، إن سمحت لك السيدة ميدلوك بالذهاب إلى المكتبة، فهناك الآلاف من الكتب".

لم تسأل ماري عن مكان المكتبة، لأنها واثقة فجأة بفكرة جديدة. فعزمت أمرها أن تذهب وتجِد المكان بنفسها. لم تكن منزعجة بشأن السيدة ميدلوك. لأنها كانت دائماً في غرفة الجلوس المريحة الخاصة بمديرة المنزل بالطابق السفلي. في هذا المكان الغريب نادراً ما ترى أحداً على الإطلاق. في الحقيقة لا ترى أحداً إلا الخدم، وحينما يكون سيدهم في سفر يعيشون حياة فاخرة تحت الدرج، حيث مطبخ كبير واسع مليء بالنحاس والأواني القصديرية اللامعة، مع قاعة واسعة للخدم يؤكل بها أربع أو خمس وجبات وفيرة يومياً، وحيث المرح الكبير الذي يستمر حينما تغيب السيدة ميدلوك.

كانت وجبات ماري تقدم بانتظام، وكانت ماريثا تقوم على خدمتها، لكن لم يشغل أحد نفسه بها على أقل تقدير. كانت تأتي السيدة ميدلوك وتتفقدتها كل يوم أو يومين إلا أنه لم يسألها أحد ماذا فعلت أو ماذا عليها أن تفعل. ظنت ماري أنه ربما تلك هي طريقة الإنجليز في معاملة الأطفال. أما

فى الهند فكانت تلازمها دائماً مربيتها التى تتبعها دائماً وتخدمها على قدم وساق. وكانت فى أغلب الأحيان متعبة من صحبتها، أما الآن فلا يتبعها أحد وقد تعلمت أن ترتدى ملابسها بنفسها، وكان يبدو أن مارتا تراها سخيفة وغبية عندما تريد مارى من أحد أن يحضر إليها شيئاً أو يلبسها شيئاً. قالت لها مارتا ذات مرة: "أليس عندك تفكير سليم؟"، حيث إن مارى ظلت منتظرة كى تلبسها مارتا القفازات.

ظلت مارى عابسة بعدها بساعة، لكن ذلك جعلها تفكر فى أشياء متعددة جديدة تماماً. وقفت أمام النافذة لعشر دقائق ذاك الصباح بعدما كنست مارتا المدفأة للمرة الأخيرة ونزلت إلى الطابق السفلى. كانت تفكر فى تلك الفكرة الجديدة التى راودتها حين سمعت بأمر المكتبة. لم تهتم كثيراً بأمر المكتبة ذاتها؛ لأنها قد قرأت عدداً قليلاً من الكتب؛ لكن بمجرد السماع عن المكتبة استرجعت فى ذهنها المئة حجرة ذوات الأبواب المغلقة. وتعجبت هل كلها مغلقة بالفعل وماذا ستجد إن أمكنها أن تدخل أياً منها. وهل هى مئة بالفعل؟، لماذا لا تذهب وترى كم باباً ستستطيع أن تعدة، ربما يكون ذلك شيئاً يمكن فعله هذا الصباح بما أنها لا تستطيع الخروج. لم تتعلم قط أن تطلب إذنًا للقيام بشيء، ولا تعرف شيئاً مطلقاً عن معنى السلطة، فلم تر أنه من الضروري أن تسأل السيدة ميدلوك إن كان مسموحاً لها أن تتمشى فى أرجاء المنزل، حتى لو كانت رأتها.

فتحت باب غرفتها ومشت بالردهة، وبدأت بالتجول. كانت الردهة طويلة جداً يتفرع منها ردهات أخرى قادت إلى مجموعة قصيرة من

الممرات أدت إلى بعضها مرة أخرى. كان هناك أبواب وأبواب وكان هناك لوحات على الجدران. أحياناً كانت صوراً لمناظر طبيعية مظلمة تثير الفضول، لكن كان كثير منها صوراً لرجال ونساء فى أزياء كبيرة شاذة مصنوعة من الحرير والقطيفة. وجدت نفسها فى معرض طويل حيطانه مغطاة بهذه الصور. لم تتخيل قط أن توجد صور كثيرة فى منزل كهذه الصور. مشيت ببطء فى هذا المكان وهى تحديق فى الوجوه التى تبدو كأنها تحديق بها هى الأخرى. شعرت وكأنهم يتعجبون ماذا تفعل فتاة صغيرة آتية من الهند فى بيتهم. كان بعضها صوراً لأطفال - فتيات صغيرات فى فساتين حريرية سمكية وصلت إلى أقدامهن وبرزت عنها، وأولاد يرتدون أكماماً منتفخة، وياقات برباط، ولهم شعر طويل أو يرتدون أطواقاً كبيرة حول رقابهم. توقفت تنظر إلى الأطفال طويلاً، وتتساءل: ترى ما هى أسماؤهم؟ وأين ذهبوا؟ ولم يرتدون مثل هذه الملابس الغريبة؟ كانت هناك صورة لفتاة صغيرة جادة تشبهها. ترتدى فستاناً أخضر مطرزاً وتحمل ببغاء أخضر اللون على إصبعها.



عيناها ذات نظرة فضولية حادة. قالت لها ماري بصوت مرتفع: "أين تسكنين الآن؟ أتمنى لو أنك كنت هنا".

بالتأكيد لم تقض أى فتاة أخرى مثل هذا الصباح الغريب قط. بدا وكأنه لم يوجد أحد بهذا البيت المشتت إلا تلك الصغيرة وحدها، تتجول فى أعلى الدرجات وأسفلها، خلال ممرات ضيقة وأخرى واسعة، حتى بدا لها أنه لم يمش أحد بهذا المكان قط غيرها. بما أن تلك الحجرات العديدة بنيت، فلا بد وأن أناساً قد عاشوا فيها، إلا أنها تبدو فارغة تماماً لدرجة أنها

لا تؤمن أنها حقيقية. لم يستمر ذلك حتى قفزت للطابق الثاني وفكرت أن تدير مقبض باب. كل الأبواب كانت مغلقة كما قالت السيدة ميدلوك، لكن فى النهاية وضعت يدها على مقبض وأدارته. شعرت بالخوف للحظة لما استدار المقبض دون أى صعوبة وعندما دفعت الباب فتح ببطء وبثقل. كان باباً هائلاً يفتح على حجرة نوم كبيرة.

كانت هناك ستائر مطرزة على الحائط، وأثاثات مرصعة كالتى رأتها فى الهند تلف الحجرة. نافذة عريضة بألواح الزجاج المرصعة تطل على البرارى؛ وعلى رف الموقد كانت هناك صورة أخرى للفتاة الصغيرة الجادة التى تحديق بها بفضول أكثر من أى وقت مضى.

قالت مارى: "ربما نامت هنا مرة، إنها تحديق بى حتى إنها تجعلنى أبدو شاذة". بعد ذلك فتحت الكثير والكثير من الأبواب. رأت العديد من الغرف حتى تعبت تماماً وبدأت تفكر أنهم مئة رغم أنها لم تعدهم. فى كل منها توجد صور قديمة وأقمشة نسيج قديمة شملت بمناظر غريبة. كانت هناك قطع أثاث غريبة وحلى غريبة فى كل الغرف تقريباً. وفى إحدى الغرف، التى تشبه حجرة جلوس سيدة، كانت الستائر كلها من القطيفة مطرزة وفى الخزانة يوجد حوالى مئة فيل صغير مصنع من العاج. من مختلف الأحجام بعضها له سائق الفيلة أو المحفات على ظهورها. بعضها كان أكبر من الآخرين وبعضها ضئيل جداً كأنهم أطفال رضع.

رأت مارى العاج المنحوت بالهند وعرفت كل شىء عن الفيلة. فتحت باب الخزانة ووقفت على مقعد مسند للقدمين وظلت تلعب بها لفترة طويلة

جداً. وحين تعبت رتبت الفيلة وأغلقت باب الخزانة. فى كل ذلك التجوال عبر الممرات الطويلة والحجرات الفارغة لم تر شيئاً على قيد الحياة؛ لكن فى هذه الغرفة رأت شيئاً. بمجرد أن أغلقت الخزانة سمعت صوت حفيف دقيق. فقفزت ونظرت حولها إلى الكنبه قرب الموقد، حيث يأتى الصوت. وفى ركن الكنبه كانت هناك وسادة، والقטיפه التى غطتها كان بها فتحة، يبرز من هذه الفتحة رأس صغير بعينين مخيفتين.

زحفت مارى عبر الحجرة لتتأمل العينين البراققتين كانت عيني فأرة رمادية صغيرة، وقد أكلت فتحة فى الوسادة وصنعت عشاً مريحاً هناك. وهناك ستة من الفئران الرضيعة التى تعانقها نائمة بجوارها. إذا لم يوجد أحد على قيد الحياة فى تلك الحجرات المئة فهناك سبعة فئران لا تبدو وحيدة أبداً. قالت مارى: "إن لم يخافوا لأخذتهم معى".

تجولت لفترة طويلة كافية لتشعرها بالتعب فلم تستطع التجول أكثر من ذلك وعادت. ضلت طريقها مرتين أو ثلاث مرات؛ لأنها انعطفت فى الممر الخاطئ واضطرت أن تتجول أعلى وأسفل حتى وجدت الممر الصحيح؛ وفى النهاية وصلت الطابق الخاص بها ثانية، بالرغم من أنها كانت على مسافة من غرفتها ولم تعرف أين كانت بالضبط.

فقالت: "أعتقد أننى اتخذت منعطفاً خاطئاً مرة ثانية" ظلت واقفة بلا حراك فى مكان يبدو أنه نهاية ممر قصير وقماش النسيج معلق على الحائط. وقالت: "لست أدري أى طريق أسلك. يا لسكون كل شىء!" وعلى حين هى فى مكانها وبعدما قالت هذا مباشرة كسر ذلك السكون من قبل صوت ما.

صرخة أخرى، لكن ليست كالتى سمعتها الليلة الماضية؛ فقد كانت صرخة قصيرة، صوت أنين طفولة مضطرب كتمه عبوره خلال الجدران. فقالت ماري: "إنه أقرب مما كان وإنه يبكى". وأصبحت ضربات قلبها أسرع. وضعت يدها صدفة على لوحة النسيج المرسوم القريبة، ثم قفزت راجعة وهى تشعر بالذعر.

كانت لوحة النسيج غطاء لباب فلما سقطت أظهر لها جزءاً آخر من الممر خلف هذا الباب، ورأت السيدة ميدلوك قادمة وفى يدها حلقة من المفاتيح ونظرة غضب حادة على وجهها. قالت لها: "ماذا تفعلين هنا؟" وأخذت ماري من ذراعها وسحبته بعيداً وقالت: "بماذا أخبرتك؟"

فشاحت لها ماري وقالت: "لقد انعطفت بالممر الخاطيء، لم أكن أدري أى طريق أسلكه وسمعت بكاء شخص ما".

كانت ماري تكره السيدة ميدلوك تماماً فى تلك اللحظة، وكرهتها أكثر فى اللحظة التالية.

قالت ربة المنزل: "أنت لم تسمعى شيئاً من هذا القبيل".

"عودى الآن إلى حجرتك وإلا صفعت أذنك".

أمسكت بذراعها وكانت تدفعها وتسحبها من ممر إلى آخر حتى دفعتها عند باب حجرتها الخاصة.

ثم قالت: "والآن، ابقى حيث قيل لك وإلا فستجدين نفسك محبوسة.

من الأفضل أن يحضر لك السيد معلمة كما قال إنه سيفعل. فأنت تحتاجين عناية قاسية. وأنا قد عملت ما فيه الكفاية". ثم خرجت من الغرفة وأغلقت الباب بعنف خلفها، ذهبت ماري وجلست على بساط الموقد وهي شاحبة ومغتاظة. لم تبكِ لكنها عضت على أسنانها.

وقالت لنفسها: "كان هناك أحد يبكي كان هناك .. كان هناك!" لقد سمعت ذلك مرتين وفي وقت ما ستكشف الأمر. فلقد اكتشفت صفقة عظيمة هذا الصباح، شعرت وكأنها عائدة من رحلة طويلة، وعلى أي حال هي الآن لديها شيء يسليها دائماً، ولقد لعبت بالفيلة العاجية ورأت الفأرة الرمادية وصغارها في عشهم في الوسادة القطيفة.

الفصل السابع

مفتاح الحديقة

مر يومان بعد ذلك، عندما استيقظت ماري قعدت منتصبّة على سريرها في الحال، واستدعت مارتا.

"انظري إلى الغابة! انظري إلى الغابة!"

كانت العاصفة الممطرة قد انتهت والضباب والسحب الرمادية أزاحتهمما الرياح في الليل. كانت الرياح نفسها قد انتهت وجاءت سماء زرقاء براقّة وأظلت أرض الغابة. لم تحلم ماري بسماء زرقاء مطلقاً. السماوات في الهند كانت حارة وملتهبة؛ أما هذه فكانت زرققتها رائقة وصافية وبدت كأنها تتلألأ مثل مياه بحيرة جميلة عميقة. وهناك في الأعلى تنثر في عمق هذه الزرقة سحب صغيرة من الثلج الأبيض. وعالم الغابة المرئي من بعيد بدا نفسه أزرق صافياً بدلاً من الأرجواني الأسود الكثيب و الرمادي الموحش المخيف.

قالت مارثا بابتسامة فرح: "نعم، العاصفة انتهت لفترة. تكون كذلك فى ذلك الوقت من العام. تختفى فى الليل وتبدو وكأنها لم تأت من قبل ولا تبدو أنها سترجع ثانية. وذلك لأن الربيع فى طريقه إلينا. يتبقى عليه وقت طويل ولكنه فى الطريق".

قالت مارى: "ظننت أن إنجلترا دائماً ممطرة ومظلمة".

قالت مارثا وهى تجلس على كعبيها وسط فرشها الأسود: "لا، ليس بهذا الشكل".

سألت مارى بجدية: "وماذا يعنى ذلك؟".

فى الهند يتحدث أهلها بلهجة مختلفة لا يفهمها إلا القليل، لذلك لم تندesh عندما استخدمت مارى كلمات لا تعرفها.

ضحكت مارثا كما ضحكت فى الصباح.

قالت: "الآن إنن، تحدثت بلهجة يوركشاير مرة أخرى، وقد نهتنى السيدة ميدلوك عن ذلك. إنها تعنى "لا شىء من هذا القبيل" قالتها ببطء وبعناية، ولكنها استغرقت فى ذلك وقتاً طويلاً.

"تعد يوركشاير أكثر مكان مشمس على الأرض عندما تكون مشمسة. قلت لك إنك ستحبين الغابة بعد حين. فقط انتظري حتى ترى زهور الجولق الذهبية اللون وزهور الوزال، والخلنج وهو يزهر، وكل الأجراس الأرجوانية، ومئات من الفراشات ترفرف والنحل يدندن وطيور القبرة تحلق وتغرد. سوف تتمنين أن تخرجى إليها عند شروق الشمس وتظلين هناك طوال اليوم مثلاً يفعل ليكون".

"هل ذهبت إلى هناك من قبل؟"

قالتها ماري بشغف، وهي تنظر من النافذة للأزرق البعيد. كان منظرًا جديدًا وشاسعًا وكان رائعًا هذا اللون السماوي.

أجابت مارتا: "لا أدري، يبدو لي وكأنك لم تستخدمى أرجلك منذ ولدت. ولم تستطعي أن تسيري لخمسة أميال. إن كوخنا يبعد خمسة أميال".
"أحب أن أرى كوخكم".

حدقت فيها مارتا للحظات بفضول قبل أن تلتقط فرشاة التلميع وبدأت تمسح القضبان مرة أخرى. كانت تفكر في هذا الوجه الصغير الذي لم يكن فظًا وقتها كما كان في أول صباح رآته فيه. بدا فقط كوجه سوزان آن الصغيرة عندما كانت تريد شيئًا بشدة.

قالت: "سأسأل أمي في ذلك، إنها من الناس الذين لهم لكل شيء طريق. اليوم إجازتي وسأذهب إلى البيت. إيه! أنا سعيدة. تفكر السيدة ميدلوك كثيرًا في أمي. ربما ستحدث إليها".

قالت ماري: "أنا أحب أمك".

فقالت مارتا موافقة وهي تلمع: "أظنك هكذا".

قالت ماري: "لم أرها من قبل".

أجابت مارتا: "لا لم تريها".

وجلست على كعبيها ثانية ومسحت نهاية أنفها بالأسود الذى على يدها وكأنها تحيرت للحظات. ولكنها أنهت بشكل جيد.

"حسنًا، إنها تلك المرأة الحساسة، المجدة فى عملها، النظيفة، ذات الطبيعة الطيبة التى لا يجدها أحد إلا أن يحبها؛ رآها أم لم يرها. عندما أكون فى طريقى للبيت فى يوم إجازتى أقفز فرحًا وأنا أمر عبر الغابة".
أضافت مارى: "أحب أن يكون، ولم أره قط".

فقال مارثا بقوة: "حسنًا، لقد قلت لك إن الطيور تحبه والأرانب والأغنام البرية والخيول القزمة حتى الثعالب أنفسهم. أنا أتعجب،" وهى تحقق فيها متأملة، "ماذا سيظن فيك سيكون؟".

قالت مارى بطريقتها الجامدة الباردة: "لن يحببنى. لا أحد يحببنى"

بدأت مارثا متأملة ثانية، وتساءلت: "كيف ترين نفسك؟"، تساءلت والفضول جلى عليها وتود أن تعرف، هنا ترددت مارى للحظة وفكرت بالأمر. ثم أجابت: "ليس تمامًا. حقًا. لكننى لم أفكر فى هذا من قبل".

ابتسمت مارثا ابتسامتها العريضة قليلاً كأنها فى حالة حنين للوطن وقالت: "ذات مرة قالت لى أُمى ذلك، كانت أُمى عند حوض الغسيل وأنا كنت فى حالة مزاجية سيئة وكنت أتكلم منتقدة القوم، فاستدارت إلى وقالت: "أنت أيتها المشاكسة(*) الصغيرة، يا من يتوقف ويقول لا أحب هذا ولا أحب ذاك، كيف ترين نفسك؟ جعلنى ذلك أضحك وأعادنى إلى رشدى فى لحظة".

(*) young vixen: أنثى الثعلب، وتستخدم أيضًا للدلالة على المرأة المشاكسة أو الضارة .

ذهبت فى نشوة بعد أن أعطت مارى إفطارها. كانت تنتوى السير خمسة أميال عبر الغابة لتصل إلى الكوخ، تساعد أمها فى الغسل وتصنع خبز الأسبوع وتستمتع بوقتها تمامًا.

شعرت مارى بالوحدة أكثر عندما علمت أنها ما عادت فى المنزل. خرجت إلى الحديقة بأقصى سرعة، وكان أول ما فعلت أن تدور وتدور حول الناقورة عشر مرات. كانت تعد المرات بعناية، وعندما أتمت العشر شعرت بأن مزاجها تحسن. جعل سطوع الشمس المكان كله مختلفًا. أظلت السماء العالية البالغة الزرقة ميسيلثويت كما كانت تظلل الغابة، ظلت رافعة وجهها عاليًا وناظرة إليها وهى تحاول التخيل ماذا سيكون الأمر لو نامت على سحابة ثلجية بيضاء وطافت. ذهبت إلى حديقة المطبخ الأولى ووجدت بن وذرستاف يعمل هناك ومعه بستانيان آخران. كان يبدو أن تغير الطقس جعله أفضل. وتحدث إليها على سجيته.

قال: "موسم الربيع فى الطريق إلينا، ألا تشمين رائحته؟".

تحسست مارى بأنفها وظنت أنها استطاعت أن تشعر به.

قالت: "أشم شيئًا جميلًا ومنعشًا ورطبًا".

أجابها وهو يعمل: "إنها التربة الخصبة الجيدة، إنها فى حالة منتعشة تستعد لإنماء النباتات. إنها تسعد بمجىء موسم الزراعة. وهى تكتئب فى الشتاء عندما لا تجد ما تقطعه.

فى. حداثق الأزهار بالخارج سوف تنشط أشياء وتثور تحت الأرض
فى الظلام. والشمس تدفئهم. سوف ترين بقعًا خضراء تخرج من الأرض
السوداء بعد فترة قصيرة".

فسألت مارى: "وماذا ستكون؟".

"زعفران وأزهار الثلج و النرجس(*)". ألم تريها قط؟".

"لا. كل شىء حار ومبلل وأخضر فى الهند بعد المطر، وأظن الأشياء
تنمو فى غضون ليلة".

قال وذرستاف: "أما هذه فلن تنمو فى غضون ليلة، عليك أن تنتظريها.
سوف تبرز قليلاً للأعلى هنا، وتخرج سنابل أكثر هناك، وتنبت ورقة اليوم
وأخرى بعد ذلك. ولا حظيها".

أجابت مارى: "سأفعل".

بعد ذلك بقليل سمعت رفرقة الأجنحة الرقيقة وعرفت فى الحال أن أبا
الحناء عاد مرة أخرى. كان نشيطاً ومفعماً بالحيوية، وظل يرفرف قريباً من
قدميها، أدار رأسه ونظر إليها بمكر فسألت بن وذرستاف:

"هل تعتقد أنه يتذكرنى؟"

(*) draffydowndlllys: أنواع من النرجس، نبات بصلى الشكل، ينمو بأزهاره البيضاء أو الصفراء.

فقال وذرستاف بسخط: "يتذكرك! إنه يعرف كل نبتة تظهر فى الحدائق، فما بالك بالناس؟ إنه لم يرفثاة صغيرة هنا من قبل، ويتوق لمعرفة كل شىء عنك. ولا حاجة لإخفاء أى شىء عنه".

تساءلت مارى: "وهل تثور الأشياء تحت الأرض فى الظلام فى هذه الحديقة التى يعيش فيها؟"

فعبس وذرستاف ثانية: "أى حديقة؟".

ولم تستطع أن تمنع نفسها من السؤال لأنها كانت تريد معرفة الكثير: "الحديقة ذات الأشجار المزهرة القديمة، هل كل زهورها ميتة؟ أم ينبت بعضها ثانية فى الصيف؟ وهل هناك أى زهور؟".

فقال وذرستاف، وهو يوجه أكتافه تجاه الطائر: "أسأليه، إنه الوحيد الذى يعرف. لم ينظر أحد داخلها منذ عشر سنين".

كانت تعتقد مارى أن عشر سنين وقت طويل، فقد ولدت منذ عشر سنين.

سارت مبتعدة ببطء وهى تفكر. إنها بدأت تحب الحديقة، تمامًا مثلما بدأت تحب الطائر وديكون وأمه. إنها بدأت تحب مارثا أيضًا. وهؤلاء المحبوبون كثيرون عندما لا تكون معتادًا على حب الناس. كانت تشعر بالطائر وكأنه أحد الناس. ذهبت لتمشى خارج السور الطويل المغطى باللباب وحيث ترى من خلفه قمم الأشجار. وكانت المرة الثانية التى تمشى فيها خلال الشىء الأكثر تشويقًا وإثارة لها، وكل ذلك من خلال طائر بن وذرستاف.

كانت تسمع تغريداً وسقسقة، وعندما نظرت إلى حوض الزهور العارى على يسارها كان الطائر يحوم حولها وكأنه يبحث عن شيء فى الأرض سيلتقطه لكى يقنعها أنه لم يكن يتبعها. ولكنها كانت تعلم أنه يتبعها وقد غمرتها المفاجأة بالسرور حتى إنها ارتعدت قليلاً.

صاحت: "أنت حقاً تتذكرنى! حقاً! إنك أجمل من أى شيء آخر فى العالم".

تحدثت إليه ولألفته وسقسقت معه، وهو رفرف وهز ذيله وغرد. وكان كأنه يتحدث. كان ريش صدره الأحمر مثل الحرير، وقد نفخ صدره الصغير وكان غاية فى الرقة والجمال والعظمة، حتى إنه حقاً بدا وكأنه يريها كم يستطيع أبو الحناء أن يشابه الإنسان. نسيت الأنسة مارى أنها كانت طوال حياتها عكس الجميع عندما سمح لها أن تقترب وتقترب منه، وأن تجثو وتتحدث وتحاول أن تصدر صوتاً مثل صوته.

ياه! كم هو إحساسها عندما يسمح لها بالاقتراب منه بهذا القدر! فهو يعلم أنه لا شيء فى الوجود سيجعلها تخرج يدها ناحيته أو أنها ستروعه ولو بأبسط الطرق. يعلم ذلك لأنه إنسان حقيقى - إنه فقط أجمل من أى إنسان فى الوجود. كانت مسرورة حتى إنها لم تستطع التقاط أنفاسها.

لم يكن حوض الزهور عارياً تماماً. كان خالياً من الزهور؛ لأن النباتات المعمرة كانت قد قطعت فى فترة راحتها الشتوية، ولكن كان هناك شجيرات طويلة وقصيرة نبتت مع بعضها فى خلفية الحوض، وفى أثناء توائب

الطائر تحت هذه الأشجار رآته يحجل فوق كومة صغيرة من التربة المقلبة حديثاً. وقف عليها ليبحث عن دودة. كانت هذه القطعة من الأرض مثارة لأن كلباً كان يحاول أن يحفر بحثاً عن حيوان الخلد ولكن الحفرة تعمقت.

نظرت ماري إليها، ولم تعرف حقيقة سبب تلك الحفرة، وهي تنظر رأت وكأن شيئاً دفن في هذه التربة المقلبة حديثاً. كان شيئاً كخاتم أو حديد أو نحاس صدئ. وعندما طار أبو الحناء إلى شجرة قريبة مدت يدها وأخرجت الخاتم. إنه أكبر من خاتم، إنه مفتاح قديم وكان يبدو أنه مدفون منذ زمن بعيد.

وقفت الآنسة ماري ونظرت إليه ووجهها شبه خائف وهو يتدلى من إصبعها.

قالت هامسة: "ربما كان قد دفن منذ عشر سنين، ربما يكون مفتاح الحديقة".

الفصل الثامن

أبو الحناء الذى عرّفها الطريق

نظرت مارى إلى المفتاح طويلاً. وظلت تقلبه وتفكر فيه. فكما قلت من قبل إنها طفلة لم تتعلم طلب الإنن واستشارة من يكبرها فى الأمور. كل ما فكرت فيه بشأن المفتاح هو إذا كان هذا مفتاح الحديقة المغلقة، وأمكنها أن تكتشف مكان الباب، فربما سيمكنها فتحه وتنظر ماذا وراء تلك الجدران، وماذا حدث للأشجار المزهرة القديمة. ولأنها أغلقت طويلاً كانت تريد أن تراها. فلا بد وأنها مختلفة عن الأماكن الأخرى وأن شيئاً غريباً قد حدث لها طيلة عشر سنوات.

وإضافة إلى ذلك، إذا أعجبها المكان فيمكنها أن تذهب إليه كل يوم وتغلق الباب خلفها، ويمكنها أن تصطنع لعبة من نفسها وتلعبها وحدها تماماً، فلن يعرف أحد أبداً أين تكون، لكن سيظنون أن الباب ما زال موثقاً وأن المفتاح مدفون فى الأرض. أسعدها التفكير فى ذلك كثيراً. العيش كما كان وحدها تماماً فى منزل به مئة غرفة مغلقة غامضة وليس لديها شىء أياً

كان لتسلى نفسها، قد حفز دماغها الخامل أن يعمل وأيقظ بالفعل خيالها. ما من شك أن الهواء القوى الصافى الجديد الآتى من البرارى كان له وقع عظيم عليها. وكما أعطاهما شهية، والمقاتلة مع الريح حركت دماءها، نفس الأشياء حركت رأسها. أما فى الهند فكانت دائماً تشعر بالحر والوهن حتى إنها لا تأبه كثيراً بالأشياء حولها، لكن فى هذا المكان بدأت تهتم وتفعل أشياء جديدة.

بالفعل تناقص شعورها بأنها شاذة، مع أنها لم تعرف السبب. وضعت المفتاح فى جيبتها وسارت عبر ممشاهها. لا أحد سواها قد أتى هنالك، لذا أمكنها أن تمشى ببطء وتنظر على الحائط، أو، بالأحرى، على ستائر اللبالب النامية عليها. كان اللبالب هو الشيء المربك. ومع أنها كانت تنظر بحرص فإنها لم تجد سوى الأوراق النامية السميكة شديدة الخضرة. شعرت بخيبة أمل كبيرة. عاد إليها شيء من التناقضية لما تقدمت سيراً فى الممشى وتفحصته من خلال قمم الأشجار التى بالداخل. قالت لنفسها إنه سخيّف جداً أن تكون قريبة منه ولا تستطيع الدخول. أخذت المفتاح فى جيبتها عندما عادت إلى المنزل، وعزمت أمرها أن تحمله معها دائماً حينما تخرج، حتى تكون مستعدة وقتما تجد الباب الخفى.

كانت السيدة ميدلوك قد صرحت لمارثا أن تبين الليل كله فى الكوخ، ولكنها عادت لعملها فى الصباح بخدود أكثر احمراراً وفى أفضل معنوياتها. وقالت: "لقد استيقظت فى الساعة الرابعة، إيه ! كان الجو جميلاً فى البرارى مع استيقاظ الطيور وعدو الأرانب وبزوغ الشمس. لم أمش الطريق كله. فقد أوصلنى رجل فى عربته واستمتعت بوقتي".

كانت مليئة بحكايات سارة عن يومها الذى قضته بالخارج. كانت أمها مسرورة لرؤيتها وقد قاموا بالخبز والغسل على غير العادة. وقد عملت لكل من الأطفال عجينة الكعكة بقليل من السكر البنى فيها.

"كانت كلها ساخنة عندما جاؤوا من اللعب فى البرارى. وانتشر فى الكوخ رائحة الخبز التنظيف الساخن، وكانت النار حامية، وكانوا يصيحون فقط من المرح. قال سيكون إن كوخنا يروق لملك أن يعيش فيه".

وفى المساء جلسوا جميعاً حول النيران، ومارثا وأمها يحيكان الرقع على الملابس الممزقة ويصلحان الجوارب وأخبرتهم مارثا عن الفتاة الصغيرة التى أتت من الهند والتى قد قضت طيلة حياتها فيما أسمته مارثا "السود" حتى إنها لم تتعلم كيف تلبس جواربها. قالت مارثا: "إيه، كانوا معجبين بالسماع عنك، وكانوا يريدون أن يعرفوا كل شئ عن "السود" وعن السفينة التى قدمت فيها. لم أستطع إخبارهم القدر الكافى". فكرت مارى قليلاً وقالت لها: "سأحكى لك قدرًا كبيرًا قبل يوم إجازتك القادم، وسوف يكون لديك الكثير لتحدثى عنه. أجزم أنهم سيحبون السماع عن الركوب على الفيلة والجمال وعن الضباط الذين يخرجون لصيد النمور".

صاحت مارثا مبهجة: "يا إلهى! سيجعلهم هذا ينعمون رؤوسهم. هل ستفعلين هذا حقًا، سيدتى؟ سيكون هذا مثل وحش برى سمعنا ذات مرة أنه كان عندهم فى يورك".

كان لتسلى نفسها، قد حفز دماغها الخامل أن يعمل وأيقظ بالفعل خيالها. ما من شك أن الهواء القوى الصافى الجديد الآتى من البرارى كان له وقع عظيم عليها. وكما أعطاها شهية، والمقاتلة مع الريح حركت دماءها، نفس الأشياء حركت رأسها. أما فى الهند فكانت دائماً تشعر بالحر والوهن حتى إنها لا تأبه كثيراً بالأشياء حولها، لكن فى هذا المكان بدأت تهتم وتفعل أشياء جديدة.

بالفعل تناقص شعورها بأنها شاذة، مع أنها لم تعرف السبب. وضعت المفتاح فى جيبتها وسارت عبر ممشاها. لا أحد سواها قد أتى هنالك، لذا أمكنها أن تمشى ببطء وتتنظر على الحائط، أو، بالأحرى، على ستائر اللبلاب النامية عليها. كان اللبلاب هو الشيء المريب. ومع أنها كانت تنظر بحرص فإزها لم تجد سوى الأوراق النامية السميكة شديدة الخضرة. شعرت بخيبة أمل كبيرة. عاد إليها شيء من التناقضية لما تقدمت سيراً فى الممشى وتفحصته من خلال قمم الأشجار التى بالداخل. قالت لنفسها إنه سخيّف جداً أن تكون قريبة منه ولا تستطيع الدخول. أخذت المفتاح فى جيبتها عندما عادت إلى المنزل، وعزمت أمرها أن تحمله معها دائماً حينما تخرج، حتى تكون مستعدة وقتما تجد الباب الخفى.

كانت السيدة ميدلوك قد صرحت لمارثا أن تبقيت الليل كله فى الكوخ، ولكنها عادت لعملها فى الصباح بخدود أكثر احمراراً وفى أفضل معنوياتها. وقالت: "لقد استيقظت فى الساعة الرابعة، إيه ! كان الجو جميلاً فى البرارى مع استيقاظ الطيور وعدو الأرانب وبزوغ الشمس. لم أمش الطريق كله. فقد أوصلنى رجل فى عربته واستمتعت بوقتي".

كانت مليئة بحكايات سارة عن يومها الذى قضته بالخارج. كانت أمها مسرورة لرؤيتها وقد قاموا بالخبز والغسل على غير العادة. وقد عملت لكل من الأطفال عجينة الكعكة بقليل من السكر البنى فيها.

"كانت كلها ساخنة عندما جاؤوا من اللعب فى البرارى. وانتشر فى الكوخ رائحة الخبز التنظيف الساخن، وكانت النار حامية، وكانوا يصيحون فقط من المرح. قال ليكون إن كوخنا يروق لك أن يعيش فيه".

وفى المساء جلسوا جميعاً حول النيران، ومارثا وأمها يحيكان الرقع على الملابس الممزقة ويصلحان الجوارب وأخبرتهم مارثا عن الفتاة الصغيرة التى أتت من الهند والتى قد قضت طيلة حياتها فيما أسمته مارثا "السود" حتى إنها لم تتعلم كيف تلبس جواربها. قالت مارثا: "إيه، كانوا معجبين بالسماع عنك، وكانوا يريدون أن يعرفوا كل شئ عن "السود" وعن السفينة التى قدمت فيها. لم أستطع إخبارهم القدر الكافى". فكرت مارى قليلاً وقالت لها: "سأحكى لك قدرًا كبيرًا قبل يوم إجازتك القادم، وسوف يكون لديك الكثير لتحدثى عنه. أجزم أنهم سيحبون السماع عن الركوب على القيلة والجمال وعن الضباط الذين يخرجون لصيد النمور".

صاحت مارثا مبهجة: "يا إلهى! سيجعلهم هذا يعيشون رؤوسهم. هل ستقطين هذا حقًا، سيدتى؟ سيكون هذا مثل وحش برى سمعنا ذات مرة أنه كان عندهم فى يورك".

قالت مارى ببطء: "الهند مختلفة تمامًا عن يوركشاير" وعلى حين هى تفكر فى المسألة قالت: "لم أفكر قط فى ذلك. هل سيكون وأمك يحبان سماعك وأنت تتحدثين عنى؟".

قالت مارثا: "لماذا، كادت عينا يكون تخرجان من رأسه وبدأت مستديرتين، لكن أمى كانت منشغلة كيف تكونين وأنت تعيشين دائماً وحدك. قالت لى: "ألم يحضر السيد كرافن مربية لها، ولا ممرضة؟ فقلت لها: "لا لم يحضر، رغم أن السيدة ميدلوك قالت إنه سيفعل ذلك عندما يفكر فى الأمر، لكنها قالت ربما لا يفكر فى الأمر لعامين أو ثلاثة".

قالت مارى بحدة: "أنا لا أريد مربية".

"أمى تقول إنه يجب أن تتلقى العلم فى هذا التوقيت ويجب أن تكون هناك سيدة ترعاك"، وتقول: "الآن، يا مارثا، فكرى كيف ستشعرين وأنت فى مكان كبير مثل هذا تتجولين فيه وحدك، وليس لديك أم. ابذلى ما فى وسعك كى تبهجيتها،" وقلت لها: "سأفعل". نظرت لها نظرة طويلة ثابتة.

قالت: "هل ستبجيني، أحب سماعك وأنت تتحدثين".

خرجت مارثا من الحجرة ساعتها وعادت وهى تحمل شيئاً فى يديها تحت مئزرها.

قالت فى ابتسامة مرح: "ما هذا فى رأيك؟ لقد أحضرت لك هدية".

تعجبت الأنسة مارى وقالت: "هدية!"

كيف لكوخ ملء بأربعة عشر فرداً من الجياع أن يقدموا لأحد هدية!

وضحت لها مارثا وقالت: "كان يمر رجل عبر البرارى ببضاعته، وأوقف عربته عند بابنا . كان معه أوانٍ ومقلايات وأشياء غريبة وبقايا بضائع لكن أمى لم يكن لديها مال لتشتري أى شىء. وعلى حين كان ماشياً نادت ابنتنا إليزابيث إيلين : "يا أم، إن لديه أحبال قفز ذات مقابض حمراء وزرقاء". فصاحت أمى فجأة: "توقف سيدى! كم ثمنها". فقال: "بنسان" فبدأت أمى تتحسس فى جيبيها وتقول لى: "مارثا، لقد أعطيتنى أجرك كالفتيات الطيبات، ولدى أربعة أماكن لأضع كل بنس فيها، لكننى سأخذ بنسين منهم لأشتري حبل قفز لهذه الطفلة، واشترت واحداً وها هو".

أخرجته من تحت إزارها وعرضته فى افتخار. كان حبلاً قوياً رقيقاً ذا مقبضين مخططين أحمر وأزرق فى نهاية كل طرف، لكن مارى لينوكس لم تر حبلاً للقفز من قبل. فحدقت فيه وعلى وجهها علامات الحيرة.

سألت بفضول: "لأى شىء هذا؟" صاحت مارثا: "لأى شىء! هل تعنين أنه لم يكن لديك حبل قفز فى الهند، لكل ما عندهم من الفيلة والجمال والنمور! لا عجب فأكثرهم السود. هذا ما يستخدم لأجله؛ فقط راقبيني". وذهبت عند منتصف الحجرة وأمسكت مقبضاً فى كل يد، وبدأت تثب وتثب على حين استدارت مارى بمقعدها لتحقق فيها، والوجوه الغريبة التى بالصور تبدو محدقة فيها أيضاً، وتتعجب ماذا لدى فتاة الكوخ من العامة من الوقاحة لتلعب أمام أعينهم. لكن مارثا حتى لم ترهم. أبهجها الاهتمام والفضول فى وجه الأنسة مارى، واستمرت فى الوثب وعدت ما وثبتته حتى وصلت المثة.

قالت حينما توقفت : "أستطيع الوثب أكثر من ذلك، لقد وثبت كثيرًا مثل خمسمئة وثبة حين كنت اثني عشر عامًا، لكننى لم أكن بدينة مثل ما أنا عليه الآن، وكنت أتمرّن".

نهضت مارى من كرسيها وبدأت عليها الإثارة.

قالت: "تبدو جميلة، أمك امرأة عطوفة. هل تعتقدين أننى سيمكننى الوثب مثل ذلك؟".

"فقلت مارثا معارضة وهى تعطيها حبل القفز : "فقط جربيها، لن تستطيعى القفز مئة مرة فى البداية، ولكن كلما مارست فسيزداد قفزك. هذا ما قالت أمى. تقول: لن يحسنها شىء أكثر من حبل القفز. إنها أفضل لعبة يمكن أن يقتنيها طفل. دعها تلعب به فى الهواء الطلق وسوف يشد نراعيها وساقياها ويقويها".

كان واضحًا أن مارى لم يكن لديها قوة كافية فى نراعيها وساقياها عندما بدأت فى القفز. لم تكن ماهرة فى هذه اللعبة، لكنها أحببتها كثيرًا حتى إنها لم تكن تريد التوقف.

قالت مارثا: "ارتدى ملابسك واخرجى واقفزى فى الخارج. بقدر ما تستطيعين، حتى إن أمطرت قليلًا، تشعرين بالدفء".

ارتدت مارى معطفها وقبعتها وأخذت حبل قفزها على نراعيها. فتحت الباب لتخرج، ولكنها فجأة فكرت فى شىء ورجعت ببطء.

قالت: "مارثا، كانت أجرتك. كان البنسان خاصتك فعلاً. أشكرك".
قالتها بجفاف لأنها لم تكن معتادة على شكر الناس أو ملاحظة أنهم
فعلوا شيئاً من أجلها.
قالت: "أشكرك"، ورفعت يدها، لأنها لم تكن تعلم ماذا تفعل غير ذلك.
صافحتها مارثا بشكل جاف قليلاً، وكأنها لم تكن معتادة على هذا
النوع من التعامل. ثم ضحكت.
قالت: "إيه! لأنك مخلوق نسائي عجيب. لو كنت إليزابيث إلين لكنت
أعطيتني قبلة".
"هل تريدني أن أقبلك؟".

ضحكت مارثا ثانية. وأجابت: "لا، ليس أنا، لو كنت مختلفة، ربما كنت
ستريدينها لنفسك. لكنك لست كذلك. هرولى إلى الخارج والعبي بحبك".
شعرت ماري بالارتباك بعض الشيء وهي تخرج من الغرفة. كان أهل
يوركشاير يبدون غرباء، وكانت مارثا دائماً لغزاً بالنسبة لها. فى البداية
كانت تكرهها كثيراً، أما الآن فلا.

كان حبل القفز شيئاً رائعاً. كانت تعد وتقفز، وتقفز وتعد، حتى احمر
خداها، وكانت متشوقة أكثر من أى يوم منذ ولدت. كانت الشمس ساطعة،
والرياح البسيطة تهب - ليست الريح القوية، لكن الرياح كانت تهب ومعها
شحنات السرور والرائحة المنعشة لتربة مقلبة حديثاً. تقافزت حول حديقة
النافورة، فى ممشى وفى آخر. تقافزت أخيراً فى حديقة المطبخ ورأت بن

وذرستاف وهو يحفر ويتحدث مع طائره الذى كان يحجل من حوله . تقافزت فى الممشى متجهة إليه ورفع رأسه ونظر إليها نظرة فضولية. تساءلت إن كان قد انتبه لها. وقد أرايت أن يراها وهى تقفز.

قال متعجباً: "حسنًا، على حد قولى، ربما تكونين طفلة صغيرة، وربما يجرى فى وريدك دم طفل بدلاً من مخيض مر. لقد احمر خدك بشكل مؤكد كما أن اسمى بن وذرستاف. لم أكن أصدق أنك ستستطيعين فعل ذلك".

قالت مارى: "لم أتقافز قط، أنا فقط فى البداية، وقد وصلت فقط عشرين مرة".

قال بن: "استمرى، يبدو ذلك جيداً لطفلة كانت تعيش مع الهمج. فقط انظرى كيف يراقبك،" وأوماً برأسه تجاه الطائر. "كان قد تبعك أمس، وسوف يفعلها اليوم. سوف يصمم على معرفة ما هو حبل القفز. فلم يره من قبل. نعم!".

وأدار رأسه للطائر، "طموحك سيقودك لموتك يوماً ما إن لم يكن جاداً".

تقافزت مارى حول كل الحداثق وحول بستان الفاكهة، وكانت تستريح كل بضع دقائق. بعد فترة وصلت إلى ممشاها الخاص، وصممت على أن تصل إلى نهايته. كان قفزها لمسافة طويلة، وقد بدأت ببطء، ولكن عندما وصلت منتصف الطريق تقريباً شعرت بالحر ولم تستطع التنفس فاضطرت للتوقف. لم تكثر كثيراً، لأنها كانت بالفعل وصلت إلى الثلاثين قفزة. توقفت وضحكت قليلاً من السعادة، وهناك، كان الطائر يترنح على فرع لبلاب طويل. كان قد تبعها وحيها بتغريدة. على حين كانت تقفز

ناحيته شعرت بشيء ثقيل فى جيبها يضربها مع كل قفزة، وعندما رأت الطائر ضحكت ثانية.

قالت: "لقد قدتنى إلى مكان المفتاح أمس، يجب أن تقودنى إلى الباب اليوم. لكننى لا أعتقد أنك تعرفه".

طار أبو الحناء من على فرع اللبلاب المتمايل واتجه عاليًا إلى أعلى السور وفتح منقاره وغرد بصوت مرتفع، تغريدة جميلة، فقط للاستعراض. ما من شيء فى العالم جماله يثير الإعجاب مثل أبى الحناء عندما يستعرض - وهو دائمًا يفعل ذلك. كانت مارى قد سمعت قدرًا كبيرًا عن السحر فى قصص مربيتها، وقالت إن ما حدث فى هذه اللحظة كان سحرًا. هبت إحدى هبات الرياح الجميلة على الممشى، وكانت أقوى من الأخريات. كانت قوية بحيث أمالت الفروع عن الشجر، وكانت أكثر قوة بحيث أزاحت الفروع المتشابكة لشجر لبلاب غير مشذب يتدلى على السور. خطت مارى على مقربة من الطائر، وفجأة أزاحت هبة الريح بعض فروع اللبلاب المتعانقة بغير إحكام، وزاد من المفاجأة أنها قفزت تجاهه وأمسكت به. فعلت ذلك لأنها رأت شيئًا تحته - مقبض مزخرف مستدير مغطى بالأوراق المتدلية فوقه. كان مقبض باب.

وضعت يديها تحت أوراق الشجر وبدأت تسحبها وتدفعها جانبًا. كان اللبلاب المعلق سميكا، كأنه ستائر حرة متأرجحة، رغم أن بعضها زحف على الأخشاب والحديد. بدأ قلب مارى يضرب ضربات مكتومة ويدها تهتزان قليلاً من بهجتها وحماسها. استمر أبو الحناء فى الغناء والزقزقة وهو يميل (كان مقبض باب) برأسه جانبًا، كما لو أنه كان متحمسًا مثلها.

ما هذا الشيء؟ تحت يديها شيء مربع مصنوع من الحديد وجدت أصابعها أن به فتحة؟ كان ذلك قفل الباب الذي أغلق لعشر سنوات. فوضعت يدها في جيبها، وسحبت المفتاح ووجدته ملائماً لنقبة القفل. أدخلت المفتاح فيه وأدارته. احتاج ذلك ليدين تعملان به لكنها أدارته. حينها التقطت نفساً عميقاً ونظرت خلفها نحو الممشى الطويل لترى إذا كان هناك أحد قادم. لم يكن أحد قادمًا. لم يأت أحد مطلقاً، كما يبدو، فالتقطت نفساً آخر عميقاً لأنها لا تستطيع أن تتمالك أنفاسها، وأرجعت ستائر اللبلاب وعادت تكافح الباب الذي فتح ببطء - ببطء. ثم انزلقت عبره، وأغلقت خلفها وأسندت ظهرها إليه، ناظرة حولها وأنفاسها تتلاحق سريعاً في حماسة وتعجب وابتهاج. إنها تقف بداخل الحديقة السرية.



الفصل التاسع

أغرب منزل عاش فيه إنسان

كان المكان الأجمل والأكثر غموضاً فيما يمكن أن يراه أحد. كانت الأبواب المؤدية إليه مغطاة بالزهور المتسلقة ذات السوق غير المورقة وكانت سميكة بحيث جدلت مع بعضها. كانت مارى لينوكس تعرف أنها زهور لأنها رأت العديد والعديد من الزهور فى الهند. كانت الأرض مغطاة بحشائش شتوية بنية من بينها نمت مجموعات من شجيرات بالتأكد كانت ستصبح شجيرات ورد لو بقيت حية. انتشرت فروع لعدد من بتلات الورد التى كونت شجيرات صغيرة. كانت هناك أشجار أخرى فى الحديقة، ومما جعل الحديقة تبدو الأغرب والأجمل هذه الزهور المتسلقة التى غطت تلك الأشجار وتدلّت فى شكل لولبى جعل من الأضواء ستائر متراقصة، وتشابكت فى بعضها هنا وهناك متعلقة بين الفروع المتباعدة صانعة من أنفسها جسوراً.

لا يوجد بها الآن أوراق ولا زهور، ولم تعلم مارى إن كانت حية أو ميتة، لكن فروعها الرفيعة الرمامية أو البنية جعلت منها غطاءً ضبابياً على

كل شيء؛ الحوائط والأشجار وحتى الحشائش البنية والتي وقعت عليها من أماكنها وانتشرت على الأرض. ما جعلها تبدو غامضة بهذا الشكل تلك الكتل المتشابكة الكثيفة الممتدة من شجرة إلى أخرى. اعتقدت ماري أنها مختلفة عن بقية الحداثق التي تركت لحالها لوقت طويل؛ وفي الحقيقة كانت مختلفة عن أى مكان آخر رأته ماري فى حياتها.

قالت هامسة: "ما أعجب سكونها! ما أعجبه!".

انتظرت للحظة وأنصتت إلى السكون. كان طائر أبى الحناء، الواقف على قمة شجرته، ساكنًا ككل شيء. إنه حتى لم يرفرف بجناحيه، جلس بلا حراك ونظر إليها.

همست ثانية: "لا عجب من سكونها، فأنا أول من يتحدث فيها لعشرة أعوام".

انتقلت مبتعدة عن الباب، وهى تخطو بهدوء وكأنها تخشى أن توظ أحدًا. أسعدها وجود الحشائش تحت أقدامها حتى لا تصدر خطواتها أى صوت. سارت بين الأشجار تحت أحد الجسور المتشابكة وكأنها جان ونظرت إلى الأغصان والفروع اللولبية التى كونتها.

قالت: "ماذا لو كانوا جميعهم أمواتًا، هل كل الحديقة ميتة تمامًا؟ أتمنى ألا تكون كذلك". لو أنها ودرستاف لكانت ستعرف الخشب الحى بمجرد النظر إليه، لكنها استطاعت فقط أن ترى ما كان موجودًا من الأغصان والفروع الرمادية أو البنية... ولا توجد أى إشارة لبرعم ورقة صغيرة فى

أى مكان. لكنها كانت داخل الحديقة الرائعة وأمكنها المجيء فى أى وقت عبر الباب الذى يغطيه اللبلاب وشعرت وكأنما وجدت عالماً بأكمله ملكها.

كانت الشمس ساطعة داخل الجدران الأربعة وقوس كبير من السماء الزرقاء يعلو هذه المنطقة بعينها من ميسيلثويت التى تبدو أكثر بريقاً ونعومة أكثر مما كانت عند البرارى. هبط أبو الحناء من قمة شجرته وقفز أو حلق من شجيرة إلى أخرى. ظل يزقزق بشكل جعل الجو مشحوناً، وكأنه يريها أشياء. كان كل شيء غريباً وصامتاً وأحست أنها تبعد مئات الأميال عن أى أحد. ولكنها -بشكل ما- لم تشعر بالوحدة إطلاقاً. كل ما كان يقلقها هو أن تعرف إن كانت الزهور حية أم ميتة، أو ربما بعضها حى ويمكن أن يزهر عندما يكون الجو أكثر دفئاً. لم ترد لها أن تكون حديقة ميتة. إن كان بها بعض حياة، كم ستكون رائعة، وكم آلاف من الزهور سوف تنمو فى كل جانب.

كان حبل القفز معلقاً بيدها على حين دخلت وسارت لبرهة، ففكرت فى أنها يمكنها القفز حول الحديقة كلها، وتقف كلما أرادت أن تتأمل شيئاً. أنتشر ما يشبه الممرات من الحشائش هنا وهناك. فى جانب أو جانبيين كان هناك المظلات دائمة الخضرة وبها مقاعد صخرية وأوعية زهور طويلة مغطاة بالطحالب.

توقفت عن القفز عندما وصلت المظلة الثانية. فوجئت بشتلة ورد بداخلها، ورأت شيئاً يبرز من الأرض السوداء وكأنه بعض النقاط الخضراء الشاحبة الصغيرة. تذكرت حينها ما قاله بن وذرستاف ونزلت على ركبتيها لتنظر إليها.

همست: "نعم، إنها أشياء نامية ضئيلة وربما تكون نباتات زعفران أو زهور اللين الثلجية أو نرجسا بریا".

انحنى قريباً جداً منها واستنشقت الرائحة المنعشة المنبعثة من الأرض الرطبة. لقد أعجبته كثيراً.

قالت: "ربما هناك نباتات أخرى نامية فى أماكن أخرى. سأجول فى جميع أنحاء الحديقة وأبحث".

سارت ولم تتوقف. سارت ببطء ولم ترفع عينيها من على الأرض. نظرت فى زهريات الورد القديمة فى الجوانب كما نظرت بين الحشائش. بعد أن أكملت دورتها محاولة عدم تخطى شىء، وجدت الكثير من النقاط التى رأتها واثارت مشاعرهما مرة أخرى.

خرجت منها صرخة بسيطة وقالت: "ليست حديقة ميتة تماماً، حتى لو كانت الزهور ميتة، هناك أشياء أخرى حية".

لم تكن تعرف أى شىء عن البستنة، لكنها لاحظت أن الحشائش كانت كثيفة جداً فى الأماكن التى كانت النقاط الخضراء تشق طريقها خلالها ووجدت أنها تحتاج مساحة كافية لتنمو. بحثت حولها حتى وجدت قطعة خشبية حادة بعض الشىء، ثم نزلت على ركبتيها وحفرت وأزالت الأعشاب والحشائش الضارة حتى صنعت مجالاً نظيفاً جميلاً حولها.

قالت بعد أن أنهت المنطقة الأولى: "الآن أرى هذه الزهور تستطيع التنفس، سأفعل المثل فى الكثير منها. سأنظف كل ما يمكننى رؤيته. لو لم أجد الوقت اليوم فسأتى غداً".

انتقلت من مكان لآخر، حفرت وأزالَت الأعشاب الضارة، وكانت مستمتعة جداً حتى إنها كانت تنتقل من مزهرية لأخرى بين الحشائش وتحت الأشجار. هذا المجهود جعلها تشعر بالدفء فخلعت معطفها أولاً ثم قبعتها ولا إرادياً كانت تبتسم للحشائش والبقع الخضراء طوال الوقت. كان أبو الحناء مشغولاً بشكل ملحوظ. كان مسروراً لرؤية دولته بدأت تشملها هذه الرعاية. كان دائماً يعجب من بن وذرستاف. حيث تجعل البستنة كل ما هو جيد للأكل في تفاعل مع التربة. الآن أتى شخص لا يتعدى نصف حجم بن، ولكنه كان لديه الدافع ليدخل حديقته ويبدأ في الحال.

ظلت الأنسة ماري تعمل في حديقتها حتى جاء موعد غداؤها. في الحقيقة، كانت قد تأخرت عندما تذكرت، وعندما ارتدت معطفها وقبعتها وأخذت حبل التقافز لم تصدق أنها كانت تعمل لساعتين أو ثلاث. كانت حقاً سعيدة طوال الوقت، والعشرات والعشرات من البقع الخضراء تمكنت من الحياة في أماكن نظيفة، وبدأت وكأنها مسرورة ضعف ما كانت عليه عندما كانت الحشائش والأعشاب الضارة تخنقها.

"سأعود بعد الظهر"، قالتها وهي تنظر حولها في مملكتها الجديدة، تحدثت الأشجار وشجيرات الزهور وكأنها تسمعها.

ثم جرت بخفة عبر الحشائش، دفعت الباب القديم البطيء لتفتحه، وانزلقت من تحت اللبلاب. احمر خداه وبرقت عيناها وأكلت جيداً؛ مما جعل مارتا مسرورة بها.

قالت: "قطعتان من اللحم وحصتان من سجق الأرز".

"ها! سوف تسعد أُمى عندما أخبرها بما فعله حبل التقافز بك".

بالنسبة لعملها فى الحديقة، كانت الآتسة مارى قد وجدت نفسها تحفر حول جذر أبيض يشبه جذر البصل إلى حد كبير. وضعته فى مكانه وأزاحت عليه التربة بعناية، والآن تتساءل لو يمكن لمارثا أن تخبرها ما هو هذا النبات.

قالت: "مارثا، ما هذه الجذور البيضاء التى تشبه البصل؟".

أجابت مارثا: "إنها بصلات النبات، كثير من زهور الربيع تنبت منها. الصغير منها هو زهر اللبن الثلجى والزعفران، والكبير لزهور النرجس".

سألت مارى، وقد واثتها فكرة جديدة: "هل يعلم دىكون كل شىء عنها؟".

"دىكون يستطيع أن ينبت الزهور من الصخر. تقول أُمى إنه فقط يهمس للأرض فتنبت النباتات".

سألت مارى بشغف: "هل تعيش البصلات لفترة طويلة؟ هل تعيش لسنين إن لم يهتم بها أحد؟"

قالت مارثا: "إنها أشياء تساعد نفسها. وهذا ما يجعل الفقراء يستطيعون اقتناءها. إذا لم تؤذى يعيش معظمها تحت الأرض لأزمنة طويلة وتخرج منتشرة بأزهارها. يوجد مكان هناك فى أشجار الغابة يزخر

بالآلاف من أزهار اللبن الثلجية. إنها من أجمل الأماكن منظرًا في يوركشاير عندما يأتي الربيع. ولا يعرف أحد متى بدأت زراعتها".

قالت ماري: "أتمنى لو جاءنا الربيع الآن، أريد أن أرى كل ما ينمو في إنجلترا".

أنهت طعامها وذهبت إلى مجلسها المفضل على بساط المدفأة.

قالت: "أتمنى - أتمنى لو كان عندي مجراف صغير"

فسألتها مارثا ضاحكة: "وماذا تريد فعله بمجراف؟ هل تنتوين العمل به؟ سأخبر أمي بذلك أيضًا".

نظرت ماري إلى النار وتأملت قليلاً. يجب أن تأخذ حذرًا إن أرادت أن تحتفظ بمملكتها السرية. لن يصيبها أذى، ولكن لو اكتشف السيد جرافن الباب الذي فتح فسيكون غاضبًا جدًا وسوف يغلق الباب بمفتاح جديد إلى الأبد مرة ثانية. إنها حقًا لا تتحمل ذلك.

قالت ببطء، وكأنها تقلب أفكارًا في عقلها: "إنه مكان كبير وحيد، المنزل وحيد، والغابة وحيدة، والحدائق وحيدة. كثير من الأماكن تبدو دائمًا مغلقة. لم أفعل أشياء كثيرة في الهند من قبل، ولكن أرى أناسًا أكثر - أهالي وجنود يمرون - وأحيانًا فرقًا موسيقية تعزف، ومربيتي كانت تحكي لي القصص. لا أحد أحدثه هنا غيرك أنت وبن ودرستاف. وأنت عليك أعباءك، وبن ودرستاف لا يتكلم معي في أغلب الأوقات. أعتقد لو كان عندي مجراف صغير، لكنت سأحفر في مكان ما كما يفعل، وربما أصنع حديقة صغيرة إن أعطاني بعض البذور".

تهلل وجه مارتا، وتعجبت:

"الآن! لو لم يكن ذلك مما قالته أُمى. تقول: يوجد أماكن كثيرة فارغة فى هذا المكان الواسع، لماذا لا يعطونها مساحة منه لنفسها، وحتى ولو لم تزرع إلا المقدونس والفجل؟ كانت ستحفر وتنقب بها وتكون سعيدة بها. هذا ما قالته بالضبط".

قالت ماري: "حقاً؟ كم تعرف، ألا يوجد ما لا تعرفه؟".

قالت مارتا: "نعم، إنها كما تقول: امرأة تربي اثني عشر طفلاً تتعلم شيئاً بجوار أطفالها الصغار وكأنه علم الحساب الذى يجعلك تستنتجين الأشياء".

سألت ماري: "كم يتكلف مجراف صغير؟".

فأجابت مارتا: "حسنًا، هناك محل أو ما شابه ذلك فى قرية ثويت، رأيت فيه مجموعة من أدوات الحديقة وهى مجراف وأداة تنقيب وشوكة مربوطين معًا كلها بشلنين. وكانت أدوات قوية بما يكفى لتعملى بها أيضاً".

قالت ماري: "لدى أكثر من ذلك فى حافظة نقودى. أعطتنى السيدة موريسون خمسة شلنات وأعطتنى السيدة ميدلوك بعض النقود من السيد كرافن".

تعجبت مارتا: "هل يتذكرك إلى هذا الحد؟".

"قالت السيدة ميدلوك إن لى شلناً كل أسبوع لأصرفه . تعطينى واحداً كل سبت. ولم أعرف فيم أصرقه؟".

قالت مارثا: "يا إلهى! إنها ثروة، تستطيعين أن تشتري أى شىء تريدينه فى العالم. إن إيجار كوخنا فقط شلن وثلاثة بنسات وبالكاد نحصل عليها. الآن وانتنى فكرة"، ووضعت يديها على فمها.

قالت مارى بشغف: "ماذا؟"

"فى دكان ثويت، يبيعون حزمًا من بذور الزهور الواحدة ببنس، ويكون أخى يعرف أيها أفضل وكيف يزرعها ويرعاها. إنه يتمشى كل يوم لمرات عديدة إلى ثويت فقط للمتعة. هل تعرفين كيف تطبعين الحروف؟".

أجابت مارى: "أستطيع الكتابة"،

هزت مارثا رأسها.

"يكون يستطيع فقط أن يقرأ الحروف المطبوعة. لو تستطيعين الطباعة، فسنتب له خطاباً نقول له أن يشتري أدوات البستنة والبذور فى نفس الوقت".

صاحت مارى: "أوه! يالك من فتاة طيبة! أنت فعلاً كذلك! لم أكن أعرف أنك طيبة هكذا. أعرف أننى أستطيع الطباعة إذا حاولت. لنطلب من السيدة ميدلوك قلمًا وحبراً وبعض الأوراق".

قالت مارثا: "لدى منها. لقد اشتريتها حتى أستطيع طباعة رسالة صغيرة إلى أمي يوم الأحد. سأذهب وأحضرها".

هرولت إلى خارج الغرفة، ووقفت ماري بجوار المدفأة ولفت نراعيها الرفيعين على بعضهما في سعادة غامرة.

قالت هامسة: "لو معى مجزاف، لاستطعت أن أجعل التربة جميلة وتظيفة وأغرس البذور. لو عندى بذور وتمكنت من زراعة الزهور، فلن تكون الحديقة ميتة مطلقاً. سوف تدب فيها الحياة".

لم تخرج ثانية بعد الظهر، فبعد أن عادت مارثا ومعها قلم وحبر وورق كانت مضطرة لإخلاء المنضدة ونقل الأطباق للطابق السفلى، وعندما دخلت المطبخ كانت السيدة ميدلوك هناك وطلبت منها أن تفعل شيئاً ما، لذلك انتظرت ماري وقتاً بدا لها طويلاً حتى عادت. ثم انشغلت في عمل جاد لتكتب إلى ديكون. لم تحصل ماري إلا على قدر قليل من العلم لأن مربياتها كن يكرهنها ويكرهن الوجود معها. لم تكن تستطيع التهجى جيداً ولكنها وجدت أنها استطاعت الطباعة عندما حاولت. وهذا هو الخطاب الذى أملته مارثا عليها.

"عزيزى ديكون،

أرسل إليك وأتمنى أن تكون بصحة جيدة. الآنسة ماري لديها مال وفير ونريدك أن تذهب إلى ثويت وتشتري لها بعض بذور الزهور ومجموعة أدوات الحديقة لى تصنع حوض زهور. أريدك أن تختار الزهور الأجل

والأسهل فى الزراعة؛ لأنها لم تقم بذلك من قبل وكانت تعيش فى الهند وهى مختلفة عن هنا. بلغ حبى لأمى ولكل منكم. سوف تحكى لى الآنسة مارى أكثر وفى زيارتى المقبلة سوف تسمع الكثير عن الأفيال والجمال والرجال الذين يذهبون لصيد الأسود والنمور.

أختك المحبة

مارثا فيوى سوربى."

قالت مارثا: "سنضع النقود فى الظرف وسأجعل مساعد الجزار يأخذها معه فى عربته. إنه صديق حميم لديكون".

"كيف سأحصل على الأشياء عندما يشتريها ديكون؟".

"سوف يحضرها إليك بنفسه. سوف يعجبه السير فى هذا الطريق".

تساءلت مارى: "أوه! متى سأراه! لم أظن أننى كنت لأرى ديكون".

سألت مارثا فجأة: "هل تريد أن تريه؟" لأن السعادة ظهرت على مارى.

"نعم. لم أر قط صبيًا يحبه الثعالب والغربان. أريد أن أراه بشدة".

بدأت مارثا موضوعًا جديدًا وكأنها تذكرت شيئًا.

قالت بسرعة: "الآن أظننى نسيت ما كان يجب أن أخبرك به فى الصباح. لقد طلبت من أمى، و قالت إنها ستطلب من السيدة ميدلوك بنفسها".

قالت مارى بلهفة: "هل تعنين -"

"ما قلت هو الثلاثاء. اطلبى منها إن كان يمكن أن يقلوك إلى كوخنا يوماً ما وتتناولى بعضاً من كيك أُمى الساخن بالشوفان مع الزبد وكوب من اللبن".

بدا ذلك وكأن كل ما كانت تحبه مارى اجتمع فى يوم واحد. أن تفكر فى الذهاب إلى البرارى فى وضح النهار عندما تكون السماء زرقاء! أن تفكر فى الذهاب إلى الكوخ الذى يأوى اثنى عشر طفلاً!

سألت فى تلهف تام: "هل تعتقد أمك أن السيدة ميدلوك ستوافق على ذلك؟".

"نعم، تظن ذلك. إنها تعلم كم أُمى امرأة منظمة وكيف أنها تحافظ على نظافة الكوخ".

قالت مارى وهى تفكر فى الأمر مستحسنة الفكرة: "إن ذهبت، يجب أن أرى أمك فضلاً عن ليكون، لا تبدو مثل الأمهات فى الهند".

عملها فى الحديقة وحماسها فى الظهيرة جعلها تشعر بالهدوء والتفكر. ظلت معها مارثا حتى وقت تناول الشاي، لكنهما جلستا فى استرخاء ولم يتحدثا كثيراً. ولكن قبيل نزول مارثا إحضار صينية الشاي، سألتها مارى سؤالاً.

قالت: "مارثا، هل تأملت غاسلة الأطباق من أسنانها ثانية اليوم؟".

فتنبهت مارثا وقالت: "ماذا يجعلك تقولين ذلك؟".

"لأننى عندما انتظرتك طويلاً قبل أن تعودى، فتحت الباب ومشيت فى الردهة لأرى إن كنت قادمة. وسمعت هذا البكاء البعيد مرة ثانية. تماماً مثل الذى سمعناه فى الليلة السابقة. لا يوجد رياح اليوم، لذلك فلا يمكن أن يكون صوت الرياح".

قالت مارثا بدون ارتياح: "إيه! ما كان يجدر بك أن تمشى عبر الردهات وتتنصتى. ذلك يغضب السيد كرافن ولا يعلم أحد ماذا يمكن أن يفعل".

قالت مارى: "لم أكن أتنصت، كنت فقط أنتظرك وسمعتة. وحدث ذلك ثلاث مرات".

"يا إلهى! هاهو جرس السيدة ميدلوك"، قالتها مارثا وهرولت خارج الغرفة.

قالت مارى والنحاس يغلبيها: "إنه أغرب منزل عاش فيه إنسان".

على حين ألقت برأسها على المقعد المزود بوسادة قريبة من كرسيها. أنهكها المكوث فى الهواء النقى والحفر وحبل التقافز، ففرقت فى النوم.

الفصل العاشر

ديكون

غابت الشمس عن الحديقة السرية لمدة أسبوع. هكذا كانت تسميها مارى عندما كانت تفكر فيها. إنها أحببت الاسم، كما أحببت حتى الإحساس عندما تحبسها أسوار الحديقة القديمة الجميلة. تكاد تكون وكأنها أخرجت من العالم إلى مكان يستوطنه الجن. كانت الكتب القليلة التى قرأتها تحكى عن قصص الجن، وقد قرأت عن الحقائق الغامضة فى بعض القصص. أحياناً كان أناس ينامون فى هذه الحقائق لمئة عام، ما وصفته بالغباء. لم تكن تنتوى النوم، حقيقة كانت لتظل متيقظة فى كل يوم يمر فى ميسلثويت. كانت قد بدأت فى حب الخروج من المنزل، ولم تعد تكره الرياح، بل استمتعت بها. استطاعت أن تجرى أسرع ولمسافة أكبر، واستطاعت أن تثب لمئة مرة. لابد أن مصابيح الحديقة أصابها الذهول. مثل هذه الأماكن الجميلة الرائقة التى أحاطت بهذه المصابيح، حيث إنها أخذت كل ما تريد من محيط التنفس، وحقيقة لو كانت السيدة مارى تعرف ذلك، إن هذه الأماكن بدأت تبتهج تحت الأرض المظلمة وتعمل بشكل مروع.

تمكنت الشمس من أن تصل إلى هذه الأماكن وتغمرها بالدفء، وعندما هطل المطر غمرها في الحال، ومن هنا بدأت تشعر بالحيوية أكثر.

كانت ماري شخصية صغيرة منعزلة مصممة، والآن وجدت الشيء الذي تهتم به وتنتهي إليه، فلکم كانت منهمكة من قبل. كم عملت وحفرت والنقطت الأعشاب في مثابرة من أمرها. لكنها تشعر بالسعادة مع كل ساعة تمر عليها في العمل ناهيك عن شعورها بالتعب. كان يبدو لها ذلك الأمر بمثابة مسرحية ممتعة. وكانت قد وجدت الكثير من البراعم الشاحبة ذات النقاط الخضراء بشكل أكبر مما كانت تتمنى أن تجد. ويبدو أنهم قد استهلوا في ذلك الأمر في كل مكان وفي كل يوم فقد كانت واثقة أنها وجدت أشكالا أخرى جديدة وصغيرة، وبعضها دقيق جداً لاحت بشق الأنف فوق الأرض. كان يوجد الكثير، الشيء الذي ذكرها بما قالته مارتا عن "زهرات اللبن الثلجية نحو الآلاف" ونباتات أخرى بصلية الشكل انتشرت وكونت أنواعاً جديدة.

وهؤلاء قد تركوا لأنفسهم لعشرات السنين وربما قد انتشروا في آلاف، مثل زهرات اللبن الثلجية. ثم تعجبت كم من الوقت يستغرقها قبل أن تصير زهرات. وكانت تتوقف عن العزق في بعض الأحيان لتتأمل إلى الحديقة، وتحاول أن تتخيل كيف ستبدو الحديقة حينما تغطي بالآلاف من الأشياء المزهرة الجميلة.

خلال هذا الأسبوع المشمس، كانت ماري أكثر حميمية مع "بن ودرستاف". كانت تفاجئه مرات عديدة بالظهور بجانبه كما لو أنها انبثقت

من الأرض. فى الحقيقة إنها كانت تخاف أن يأخذ معداته ويذهب لو رآها آتية من بعيد لذلك كانت تتسلل نحوه بصوت خافت قدر الإمكان. لكن فى الحقيقة لم يعترض على فعلها هذا كما كان يفعل فى بادئ الأمر. ربما كان مفتوناً بداخله من انبهارها بشركته التى أكل عليها الزمان وشرب. ثم إنها أيضاً كانت أكثر تمدناً من ذى قبل. لم يكن يعلم أنها عندما رآته للمرة الأولى كانت تحدثه وكأنها تحدث رجلاً من قومها، ولم يكن يعرف أن رجلاً قوياً من "يوركشاير" يألف تحية أسياده، وأنه فقط يتلقى منهم الأوامر لفعل أشياء.

قال لها ذات صباح عندما رفع رأسه ووجدها واقفة أمامه: "أنت مثل طائر أبى الحناء، لا أعرف مطلقاً متى يمكن أن أراك ومن أى جهة ستأتين".

قالت مارى: "إنه صديقى الآن"

فقال بن وذرستاف بحدة وبسرعة: "هكذا هو، يتجمل للنساء فقط للزهو والخيلاء. لم يكن ليفعل شيئاً إلا للتباهى. يملؤه الغرور مثلما يملأ اللحم البيضاء".

ناسراً ما كان يتحدث كثيراً، وفى بعض الأحيان لم يكن حتى يجيب أسئلة مارى إلا بإيماءة، لكن هذا الصباح تحدث معها أكثر مما هو معتاد. وقف وأسند أحد حذاءيه الطويلين المزود بمسامير، فوق مجرافه وهو يتفحصها. هزها بعنف وقال: "منذ متى وأنت هنا؟". فأجابت: "أعتقد منذ حوالى شهر".

فقال: "أنت الآن تفسدين سمعة "ميسلثويت"، لقد أصبحت أسمن مما كنت عليه فى البداية ولم تشتكى. حينما أتيت إلى هذه الحديقة كنت تشبهين بقرة صغيرة مهترئة. أفكر بينى وبين نفسى إننى أبداً لن أضع عيني على وجه أقبح ولا أفسد من ذلك".

لم تكن ماري تافهة، وكما أنها لم تفكر كثيراً فى شكلها، فإنها لم تتأثر كثيراً بكلامه. قالت: "أعرف أننى الآن أسمن، جواربى تضيق علىّ. اعتدت فيها على النتوءات. ها هو طائر أبى الحناء يا بن ودرستاف".

بالفعل ظهر طائر أبو الحناء، وكانت تعتقد أنه سيبدو أفضل من ذى قبل. كانت صدريته الحمراء ناعمة كالحرير، كان يحرك جناحيه وذيله ويميل رأسه، وكان يتبختر بكل ما يملك من مزايا. بدا عليه إصراره على كسب إعجاب بن ودرستاف. لكن بن كان ساخراً.

قال: "نعم، هذا هو أنت، أحياناً يمكنك أن تتحملنى عندما لا تجد أفضل منى. لا تنفك تحمر صدريتك وتلمع ريشك فى هذين الأسبوعين. أعرف ما صرت إليه. أغريت سيدة صغيرة وقحة فى مكان ما، ناشراً لها أكانيبك حول كونك أفضل نكور أبى الحناء فى "ميسيل مور" ومستعد لمصارعة كل الذكور الباقين".

هتفت ميري: "أوه، انظر إليه!".

كان من الواضح على الطائر مزاجه الساحز والجريء. وثب ليقترّب أكثر وأكثر ونظر إلى بن ودرستاف بشكل فاتن أكثر وأكثر. طار إلى أقرب شجيرة عنب ومال برأسه وأخذ يغنى أغنية رقيقة له.

قال بن مكشراً وجهه بطريقة جعلت ماري تشعر أنه كان يحاول ألا يبدو سعيداً: "تعتقد أنك ستتغلب علىّ بفعل ذلك، تعتقد أن لا أحد يستطيع مضاهاتك، هذا ما تظنه".

فرد أبو الحناء جناحيه، لم تكن ماري تصدق عينيها. طار عاليًا إلى مقبض مجراف بن ونرستاف وهبط على قمته. ثم تكشّر وجه الرجل العجوز ببطء ليصنع تعبيراً جديداً. وقف ساكناً وكأن على رأسه الطير، كأنه ما كان يجب أن يخرج إلى الدنيا خشية أن يظهر أبو حنائه. قال بصوت خافت: "حسناً، أعترف بخسارتي!"، قالها وكأنه كان يقول شيئاً آخر.

"أنت تعرف كيف تصل إلى ما تريد، نعم تعرف! عندك عدالة السماء، وتعرف الكثير".

وقف بدون حراك، لم يتنفس تقريباً، حتى ضرب أبو الحناء بجناحيه ضربة أخرى وطار بعيداً. ثم توقف نظره على مقبض المجراف وكأن به شيئاً من السحر، ثم عاود العزق ولم يقل شيئاً لدقائق عدة. لكن لأنه كسر تكشيرته المعتادة من وقتها فصاعداً، لم تخف ماري أن تتكلم إليه.

قالت: "هل لديك حديقة خاصة؟".

"لا. أنا مزارع وأسكن مع مارتن عند البوابة".

"لو لديك حديقة، ماذا كنت ستزرع فيها؟".

"كرنب و ويصل".

"ولكن ماذا لو أردت أن تزرع حديقة زهور، ماذا كنت ستزرع؟".
"بصلات النباتات، ونباتات ذات رائحة جميلة - فى الغالب زهور".
تهلل وجه ماري وقالت: "هل تحب الزهور؟".

اجتث بن ودرستاف عشبة ضارة ورماها جانباً ثم أجاب:
"حسنًا، نعم أحب الزهور. تعلمت ذلك من سيدة صغيرة كنت أعمل
لديها بستانيًا. كان لديها كثير من الزهور فى مكان تعشقه، وأحببت هذه
الزهور كما لو كانت أطفالاً - أو طيور أبى الحناء. رأيته تنحنى وتقبلها".
وانتزع عشبة أخرى ونظر إليها شزراً "كان ذلك منذ ما يقرب من عشر
سنين".

قالت ماري بشغف أكبر: "أين هى الآن؟"
أجاب وهو يقود مجرافه إلى داخل الحقل: "فى السماء، تسمع إلى
أحاديث الكاهن".

فسألته ماري باهتمام أكبر وأكبر: "ماذا حدث للزهور؟".
"تركت لحالها".

بلغت الإثارة بماري ما بلغت، ثم غامرت وسألت:
"هل ماتت الزهور تمامًا؟ هل تموت الزهور بالمرّة لو تركت لحالها؟".

اعترف بن وذرستاف على مضض: "حسنًا، لقد أحببت الزهور،
وأحببت السيدة، وهى أحببت الزهور. لقد ذهبت لمرة أو مرتين فى عام
لأعتنى بها قليلاً - أهدبها وأنظف التربة حولها. لقد ذبلت، لكنها كانت فى
تربة خصبة، فعاش كثير منها".

استفسرت مارى: "عندما تصبح الزهور بلا أوراق ويتحول لونها إلى
الرمادى والبنى وتجف، كيف تحكم إذا كانت حية أو ميتة؟".

"انتظرى حتى يأتى الربيع عليها - انتظرى حتى تشرق الشمس على
قطرات المطر ويتهمر المطر على أشعة الشمس، ومن هنا ستعرفين".

صاحت مارى: "كيف ... كيف؟" ولم تدارى اهتمامها.

"تفحصى الغصون والفروع، ولو رأيت ورماً ينتشر هنا وهناك،
لاحظيها بعد المطر الدافئ وانظرى ماذا يحدث".

توقف فجأة ونظر إلى وجهها الشغوف بفضول وسألها: "لماذا كل هذا
الاهتمام منك بالزهور وهذه الأشياء، كل ذلك فجأة؟".

أحست الآنسة مارى بحمرة تملو وجهها، وكان يبدو أنها تخشى أن
تجيب.

تلعثمت وقالت: "أنا - أنا أريد أن أقول - إن لى حديقة خاصة، أنا -
ليس هناك شىء أفعله. ليس لدى شىء - وليس لدى أحد".

فقال بن وذرستاف ببطء وهو ينظر إليها: "حسنًا، هذا صحيح. ليس لديك".

قال ذلك بطريقة غريبة جعلت ماري تشك إن كان بالفعل تعاطف معها. لم تتعاطف هي مع نفسها قط؛ كانت فقط تحس بالتعب والمحنة، لأنها كانت تكره الناس والأشياء كثيرًا. لكن العالم الآن يبدو أنه يتغير ويتحول للأحسن. لو لم يكتشف أحد الحديقة الغامضة فإنها ستستمتع بوقتها دائمًا.

ظلت معه لعشر دقائق أكثر أو خمس عشرة دقيقة سألته خلالها كل ما اجتأت أن تسأله. أجابها على كل هذه الأسئلة بطريقة المريبة المتجشمة، ولم يبد عليه الحنق ولم يأخذ مجرافه ويتركها. قال شيئًا عن الزهور عند مغادرتها فتذكرت الزهيرات التي قال إنه مولع بها.

سألته: "هل تذهب الآن وترى هذه الزهور؟".

"هذا العام لم أذهب. آلام المفاصل جعلت مفاصلي متصلبة".

قالها بصوته المتمتم، ثم فجأة بدا عليه الغضب منها، ولم تعرف لماذا.

قال بحدة: "الآن انظري هنا، لا تسألي أسئلة كثيرة كهذه. أنت أسوأ فتاة تسأل قابلتها. اذهبي والعبي بعيدًا. كان عملي اليوم هو الكلام". قال ذلك بحنق جعلها تتأكد أن لا فائدة من البقاء معه ولو لدقيقة واحدة أخرى. ذهبت وهي تثب ببطء في الممشى الخارجى، منشغلة به وقائلة لنفسها، شيء غريب، هنا شخص آخر أحببته على الرغم من سرعة غضبه. لقد أحببت بن وذرستاف الكهل. نعم، أحبته. كانت دائمًا تحاول أن تجعله يتحدث معها. بدأت أيضًا تعتقد أنه أكثر الناس معرفة بالزهور في العالم.

كان هناك ممشى مسيج بغار يلف الحديقة وينتهى إلى بوابة تفتح إلى أشجار كثيفة فى الغابة. فكرت أن تقفز على الممشى حول الحديقة الغامضة وتنظر فى الغابة لترى لو كان هناك أى أرانب تتقافز. استمتعت بالقفز كثيراً وعندما وصلت إلى البوابة الصغيرة فتحتها ودخلت لأنها سمعت صغيراً خافئاً وغريباً وأرادت أن تستبينه.

لقد كان بالفعل شيئاً غريباً. التقطت أنفاسها بشدة حين توقفت لتنظر إليه. رأت صبيّاً يجلس تحت شجرة، مسنداً ظهره إليها، وهو يلهو بأنبوب خشبى خشن. كان صبيّاً مريباً فى عمر الثانية عشرة، أنيق المظهر ذا أنف أحذب وخذ أحمر كالخشخاش، ولم تر السيدة مارى من قبل عينى طفل فى مثل تلك الاستدارة وتلك الزرقعة. وعلى جذع تلك الشجرة التى يستند عليها رأت سنجاباً بنى اللون متشبهاً بالشجرة يرقب الصبى ورأت طائر تُرجة عند شجيرة قريبة يشد رقبتة برقة ليرى، ورأت أرنبين يجلسان منتصبين بالقرب منه ويتنشقان بأنفيهما المرتجفة، ويبدو جلياً أن جميعها التفت حوله لترقبه وتنصت لذاك النداء الخافت الغريب الذى يتراءى من أنبويه. عندما رأى مارى رفع يده عالياً وتحدث إليها بصوت لا يقل ضعفاً عن صوت أنبويه

"لا تتحركى، سأجعلها ترحل". ظلت مارى ساكنة. توقف عن عزفه وبدأ ينهض من على الأرض. تحرك ببطء شديد وكأنه واقف مكانه، ولكن فى النهاية وقف على قدميه وإذا بالسنجاب يفر راجعاً إلى فروع شجرته، وطائر الدرجة سحب رأسه والأرنبان نزلا على الأقدام الأربعة وبدأ يقفزان بعيداً ولم يظهر عليهما الخوف بالمرة.

"أنا ديكون، أعرف أنك الآنسة ماري". فأدركت ماري أنها بشكل ما عرفت أنه ديكون منذ الوهلة الأولى. من غيره كان يمكن أن يسحر الأرناب وطيور الدرجة مثلما يفعل الهنود مع الثعابين؟ كان له فم واسع أحمر منحني وكانت ابتسامته تتوزع على وجهه كله.

قال موضحاً: "لقد نهضت ببطء لأنني لو صدر مني أي حركة سريعة لكنت روعتها. يجب على المرء أن يتحرك بلطف ويتكلم بصوت منخفض في حضرة الكائنات البرية".

لم يتحدث إليها، وكأنهما لا يعرفان بعضهما من قبل، ولكن كما لو أنه يعرفها جيداً. لم تكن ماري تعرف شيئاً عن الصبيان، وقد تحدثت إليه بشيء من الصرامة لأنها شعرت بخجل شديد. سألته: "هل وصلك خطاب مارثا؟".

أوما برأسه المجعد صدئ اللون "لهذا أتيت". انحنى ليلتقط شيئاً كان ملقى على الأرض بجانبه أثناء عزفه. "لقد أتيت بألوان الحديقة. هنا مجراف صغير وأداة لتقليب التربة وشوكة وعازقة. إنها أشياء جيدة. يوجد فأس (أداة يسوى بها الطين) أيضاً. وقد وضعت سيدة المحل نبتة خشخاش أبيض ونبتة مزهرة زرقاء عندما اشتريت البذور الأخرى".

قالت ماري: "هل سترينني البذور؟".



كانت تتمنى لو أنها تستطيع التحدث مثله. كان يتحدث بسرعة وسهولة. كان يبدو أنه استحسنها مع عدم خوفه من أنها لا تستحسنه، بالزغم من أنه مجرد صبي بربرى عادى بملايس مرقعة ووجه مضحك ورأس مجعد يكسوه لون الصدا الأحممر. عندما اقتربت منه لاحظت رائحة رائقة منعشة لنباتات وحشائش وأوراق تحيط به. أحببت تلك الرائحة كثيراً وعندما نظرت فى وجهه المضحك بخديه الأحمرين وعينييه الدائريتين الزرقاوين، نسيت إحساسها بالخجل.

قالت : "دعنا نجلس على هذا الزند ونراهم".

جلسا، وأخرج من جيب معطفه حزمة ورق بنية خرقاء صغيرة. فك الرباط وبالدخل كان يوجد الكثير من الحزم أصغر وأكثر نعومة كل واحدة منها عليها صورة لزهرة.

قَالَ: "هناك الكثير من نباتات المينونيت^(٢) الفواحة والخشخاش، ويعتبر هذا النبات الفواح الأجمل رائحة حينما ينمو، وهو ينمو فى أى مكان تضعينه فيه، وهكذا الحال مع الخشخاش. ستنمو وتزدهر عندما فقط تصفرين لها. إنها الأجمل".

توقف وأدار رأسه بسرعة، تهلل وجهه ذو الخد الخشخاشى.

قال: "أين هذا الطائر الذى يدعونا؟" جاء صوت سقسقته من شجيرة كثيفة شائكة الأطراف، تلمع بها ثمار قرمزية، ظنت مارى أنها تعرف صاحبها.

سألت: "هل هو حقاً يدعونا؟".

"نعم،" قالها ليكون وكأن ذلك أكثر شىء طبيعى فى العالم، "إنه يدعو صديقاً له. تماماً كما تقولين ها أنذا. انظرى إلى. أريد طائر الأبلق. إنه هناك فى الشجيرة. من صاحبه؟".

أجابت مارى: "صاحبه هو بن ودرستاف، ولكن أعتقد أنه يعرفنى قليلاً".

^(٢) *mignonette*: نبات بزهرة أخضر صغير، ورائحة حلوة، ذات قيمة عالية فى صناعة العطور لزيوتها الضرورية.

قال سيكون بصوته الخافت مرة أخرى: "نعم، هو يعرفك، وهو يحبك. لقد واجهك. وسيقول لى كل شىء عنك فى دقيقة".

تحرك ليقترّب كثيراً من الشجيرة بهركته البطيئة التى لاحظتها مارى من قبل، ثم أصدر صوتاً تماماً مثل صوت طائر أبى الحناء. أنصت الطائر لبضع ثوانٍ، وبتركيّز، ثم رد بصوته وكأنه يجيب عن سؤال. ضحك ليكون وقال: "نعم، إنه صديقك".

فصاحت مارى بشغف: "أتظن أنه صديقى؟" وأرادت أن تعرف: "هل تعتقد أنه حقاً يحبنى؟".

فأجاب ليكون: "لو لم يحبك ما جاء قريباً منك، الطيور نادرًا ما تختار أصدقاء. وطائر أبى الحناء يمكن أن يهين شخصاً أكثر مما يفعله الإنسان. انظرى، إنه يتجمل لك الآن إنه يقول: ألا تستطيعين أن ترين فتى؟".

يبدو الأمر وكأنه حقيقى. ولذلك مشى الطائر جانباً وأخذ يزقزق ويتمايل على حين كان يثب على شجيرته. فسألت مارى: "هل تفهم كل ما تنطق به الطيور؟". اتسعت ابتسامة ليكون حتى بدا كل فمه الأحمر المقوس العريض، وفرك رأسه المجعد.

قال: "أعتقد ذلك، وهى تعتقد أننى أستطيع. فقد عشت معها طويلاً فى البرارى. فقد شاهدها تشق البيض وتخرج وشاهدها حين نبت ريشها وحين تعلمت الطيران وابتدأت الغناء، حتى أظن أننى واحد منها. أحياناً أعتقد أننى طائر، أو ثعلب أو أرنب أو سنجاب أو حتى خنزير ولا أدرى".

ثم ضحك بعد ذلك وعاد للكتلة الخشبية مرة أخرى وبدأ يستكمل الحديث عن بذور الأزهار. وأخبرها كيف تبدو حين تصير أزهارًا، وكيف تزرعها وتتابعها تغذيها وتسقيها.

ثم فاجأها قائلاً: "انظرى هنا" مستديرًا لينظر إليها وقال "سأزرعها بنفسى من أجلك. أين تلك الحديقة؟" أمسكت يديها الرقيقتين معًا فوق صدرها. لم تدري ماذا تقول وظلت صامتة لدقيقة كاملة، فلم تفكر فى ذلك مطلقاً. شعرت باليأس وبالا حمرار ثم الشحوب. فقال ليكون: "لديك حديقة صغيرة، أليس كذلك؟".

كان حقيقياً أن احمرت ثم أصبحت شاحبة. رآها ليكون على هذه الحال. تحير لأنها لم تقل شيئاً، ثم سألها: "ألم يعطوك حديقة صغيرة؟ أليس لديك واحدة الآن؟".

أحكمت يديها أكثر وحولت عينيها نحوه وقالت فى بطم: "لا أعرف شيئاً عن الصبية، فهل تحفظ لى سرّاً إن أخبرتك إياه؟ إنه سر خطير ولا أدرى ماذا أفعل لو اكتشفه أحد. أظننى سأموت".

قالت تلك الجملة الأخيرة فى خوف. بدا ليكون أكثر حيرة من ذى قبل وبدأ يفرك يده فى رأسه المجعد ثانية. لكنه أجاب بشكل لطيف جداً.

وقال: "إننى أحتفظ بأسرار طيلة الوقت، لو أننى لم أحتفظ بأسرار الفتيان الآخرين وأشبال الثعالب وأعشاش الطيور وثغور الكائنات البرية، كان سينعدم الأمان فى هذه البرارى. نعم، أستطيع حفظ الأسرار".

لم تقصد الأنسة مارى أن تخرج يديها وتتشبث بقميصه لكنها فعلت ذلك. وقالت بسرعة: "لقد سرقت حديقة. إنها ليست ملكى وليست ملكاً لأحد. فلا أحد يريدّها ولا أحد يهتم بها، حتى إنها لم يدخلها أحد وربما قد مات كل شيء فيها؛ لست أدري".

بدأت تشعر بالحرّ على عكس ما كانت تشعر فى سابق حياتها. وقالت "أنا لا أهتم، أنا لا أهتم! وليس لأحد الحق أن يأخذها منى؛ فأنا وحدى التى أراها على حين لم يرعوها هم. هم يسلمونها للموت".

أنهت كلماتها فى أسى وهى تقول: "هم أغلقوها على نفسها". ألقّت ذراعيتها على وجهها ثم انفجرت فى البكاء _ مسكينة يا مارى.

بدأت عينا ديكون الزرقاوان الفضوليتان تستدير وتستدير وقال: "إيه إيه" ليخرج من حالة التعجب ببطء وبشكل يوحى بتعجبه وتعاطفه فى آن واحد.

قالت مارى: "لا أستطيع فعل شيء. فلا أملك شيئاً. وجدتها بنفسى ودخلتها وحدى. كنت فقط أشبه أبا الحناء ولم يكن أحد ليأخذها من أبى الحناء".

سألها ديكون بصوت منكسر: "أين تقع تلك الحديقة؟"

نهضت الأنسة مارى فى الحال من الكتلة الخشبية، وعرفت أن لديها الآن شعوراً بالتضاد وبالعدو، ولم تهتم على الإطلاق، فكانت الهندية المتجبرة والدافئة الجزيئة فى نفس الوقت.

قالت مارى "تعال معى أنا سأريك".

قادته مارى حول طريق الغار إلى الممشى حيث نما اللبلاب بشكل كثيف. تبعها ليكون على نحو مريب والشفقة تملو وجهه. وأحس أنها تقوده ليرى عش طائر غريب؛ لذا فعليه أن يتحرك ببطء. عندما خطت إلى الحائط رفعت اللبلاب المعلق أمامه ، كان هناك باب، دفعته مارى ببطء ففتح وعبرا منه معاً، حينها وقفت مارى ولوحت بيدها فى تحدٍّ وجرأة.

ثم قالت: "هذه هى". إنها الحديقة السرية، أنا الوحيدة فى هذا العالم التى تريد لها أن تحيا".

ظل ليكون يتلفت حوله ويتلفت ثانية وثانية.

همس: "آه، إنه مكان جميل غريب! وكأنى فى حلم".

الفصل الحادى عشر

عش طائر السمنة

ظل دىكون ينظر حوله لدقيقتين أو ثلاث، ومارى ترقبه، ثم بدأ يتمشى فيها بعذوبة، وبخفة تفوق مارى لما مشت المرة الأولى، وجدت نفسها بين الجدران الأربعة. كانت عيناه مأخوذة بكل شىء، الأشجار الرمادية والزواحف الرمادية تتسلقها وتتدلى من أغصانها، الكتل المتشابكة على الجدران وبين الأعشاب. الفجوات الدائمة الخضرة بين المقاعد الحجرية وجرار الأزهار الطويلة الواقفة عليها.

وآخر الأمر قال دىكون هامسًا: "لم أكن أتوقع أن سأرى هذا المكان". فسألته مارى وكان صوتها مرتفعًا: "هل كان لك علم بها من قبل؟"، فأشار لها بإشارة وقال: "لا بد أن نخفض أصواتنا وإلا سيسمعنا أحد وينتبه إلى وجودنا هنا بالداخل".

قالت له فى خوف وهى تضع يدها على فمها: "آه! لقد نسيت، هل تعرف بأمر تلك الحديقة؟".

كررت عليه السؤال بعدما استعادت نفسها.

فأوماً سيكون برأسه وقال "أخبرتني مارثا أن هناك حديقة لم يدخلها أحد من قبل"

وأجاب أيضاً: "ولطالما كنا نتساءل ما هو شكلها؟"

ثم توقف ونظر على الكتل الرمادية المتشابكة الرائعة من حوله، وعيناه المستديرتان سعيدتان سعادة مفرطة.

وأضاف قائلاً: "سوف تأتي الأعشاش فى فصل الربيع، ستكون الأعشاش الأكثر أمناً فى إنجلترا. فلن يقترب أحد من هذه الأشجار والورود المتشابكة ليبنى فيها. وإننى أتعجب كيف أن طيور البرارى لا تبني الأعشاش هنا".

وضعت مارى يدها على زراعته للمرة الثانية دون أن تدرك ذلك. ثم همست له: "هل تكون هنا ورود؟ هل يمكنك إخبارى؟ فقد ظننت أن كلها ماتت".

أجاب ديكون: "لا، ليست هى، ليس جميعها، فلتنظري هنا!" ثم خطا نحو أقرب شجرة عجوز، شجرة قديمة يغطى نبات الأشنة كل لحائها لكنه يدعم ستارة من الفروع المزهرة والأغصان المتشابكة ثم أخرج سكيناً سميكاً من جيبه وشق إحدى أوراقها.

ثم قال: "هنا كثير من الأخشاب الميتة ولا بد من قطعها، وكثير من الأخشاب القديمة لكنها خلقت بعض الأخشاب الجديدة فى العام الماضى"، لمس ديكون قطعة تبدو خضراء نكناء بدلاً من القطع الصلبة الجافة الرمادية وقال: "هذه قطعة جديدة"، لمستها مارى بنفسها وكلها توق به وقار وقالت "أهذه واحدة؟ أهذه حية _ حية؟" هنا قوس ديكون فمه الواسع الباسم.

وقال: "إنها فتيلة مثلك أو مثلى". هنا تذكرت مارى أن مارثا قد أخبرتها بأن كلمة فتيلة تعنى "حيوية" أو "حيًا".

فصرخت فى همس: "أنا مسرورة لأنها حية. أريد إحياءها جميعاً". لهتت باشتياق وقالت: "تعال ندور بأنحاء الحديقة ونعد القطع الحية". كان ديكون متلهفًا مثلها. تنقلا من شجرة إلى شجرة ومن شجيرة إلى أخرى. وديكون يحمل سكينه فى يده وبين لها أشياء رأتها رائعة.

وقال: "لقد أصبحت الأشجار برية، لكن الأجزاء القوية لا زالت مزدهرة، أما الضعيفة الحساسة منها فقد انقرضت، والباقي انتشر حتى صار أعجوبة، فانظري هنا!" وجذب لها غضناً سميكاً رمادياً يبدو جافاً. ثم أضاف قائلاً: "يظن الإنسان أن هذا كان خشباً ميتاً، لكننى لا أعتقد ذلك. سأقطع عند مستوى منخفض ناحية الجذور لأرى".

جثا على ركبتيه وأخذ يقطع بسكينه الأغصان التى تبدو دون حياة على مستوى لا يبعد عن الأرض. قال ديكون بابتهاج: "هنا، أخبرتك أنه هنا،

يوجد اخضرار فى الأخشاب إلى الآن، انظري إلى ذلك. قبل أن يتحدث نزلت مارى على ركبتيها محدقة بكل كيانها. بدأ يشرح لها وقال: "عندما تجدينها مخضرة قليلاً وبها عصارة مثل هذه فاعلمى أنها حية مثل تلك التى فصلتها. وإن رأيت بها جفافاً ووجدتها سهلة الكسر مثل التى قطعتها هناك، فإنها ميتة. وهنا جذر كبير وكأن كل ما حوله خرج منه، فإذا قطعت كل الأخشاب القديمة وحفرنا حولها وواليناها بالرعاية الكافية فسوف - توقف ويكون ورفع رأسه لأعلى ناظرًا لكل الغصون المزهرة المتسلقة والمعلقة أعلى منه - تكون هنا نافورة من الورد بحلول هذا الصيف".

تنقلا من شجيرة إلى أخرى ومن شجرة إلى الثانية. وأنبأ سيكون عن براعته فلقد كان قوياً ماهراً بسكينه، وعلم جيداً كيف يستبعد الأجزاء الجافة الميتة، واستطاع أن يعرف إذا ما كان الغصن غير مرجو له النجاح أو ما زالت تدب فيه الحياة الخضراء. فى تلك الدورة التى استغرقت نصف الساعة ظنت مارى أنها تستطيع فعل ذلك أيضاً، كادت مارى تطلق بين أنفاسها صرخة من البهجة والسعادة حين قطع غصناً ليس به حياة وأمسكت تحته ظلاً أخضر رطباً. كان المجراف والعازقة والشوكة مفيدتين جداً. وضح لها كيف تستخدم الشوكة على حين كان يحفر حول الجذور بالمجراف ليثير التربة ويخللها بالهواء.

ظلاً يعملان ويكدحان حول واحدة من كبرى الزهور، كانت قياسية من نوعها وكان إذا رأى شيئاً ملفتاً يطلق صرخات التعجب والمفاجأة. فهنا

صرخ وهو يشير إلى العشب الذى يبعد خطوات قليلة وقال: "لماذا؟ من فعل ذلك؟" حين رأى أحد أدوات ماري الخاصة الصغيرة حول النقاط الخضراء الشاحبة. قالت ماري "أنا فعلت ذلك".

فتعجب قائلاً: "لماذا فقد ظننتك لا تعرفين شيئاً عن البستنة".

قالت ماري: "أنا فعلاً لا أعرف، لكنها كانت ضعيفة جداً والعشب كان سميكاً وقوياً، لم يكن لديها مجال للتنفس. لذلك وفرت لها مساحة كافية، أنا حتى لا أعرف ما هي".

ذهب ليكون وجثاً قريباً منها بابتسامته العريضة. قال: "أنت محقة، ما كان البستاني ليفعل أفضل مما فعلت، ستنمو الآن مثل قصبة القاصوليا المتسلقة. هذه شجيرات زعفران وأزهار الثلج، وهذه شجيرات النرجس، ثم التفت إلى منطقة أخرى وقال: "وزهور النرجس هذه سيكون منظرها جميلاً".

تنقل من رقعة أرض إلى أخرى، قال وهو ينظر إليها: "لقد أتممت أعملاً تصعب على فتاة مثلك".

قالت ماري: "إن جسمي يزداد حجماً وقوة، اعتدت دائماً أن أكون متعبة، والحفر لا يمثل تعباً لي بالمرّة. وتروق لي رائحة التربة وأنا أقلبها".

أوماً سيكون برأسه فى تعقل وقال: "هذا من أفضل الأشياء لك. فلا يوجد أجمل من رائحة التربة النقية، إلا رائحة البراعم عند سقوط المطر. فى يوم المطر أخرج إلى البرارى، أتكى تحت شجيرة وأنصت إلى حفيف المطر

المتناغم على النبات ولا أفعل إلا أن أستنشق وأستنشق حتى تقول أُمى إن مقدمة أنفى تهتز مثل أنف الأرنب".

تساءلت مارى وهى تحقق فيه: "ألم تصب بالبرد قط؟". فهى لم تقابل ولدًا مسليًا وظريفًا مثله.

قال وهو يبتسم: "ليس أنا، منذ أن ولدت لم أصب بالبرد قط. كنت أتجول فى البرارى فى جميع الأحوال الجوية كما تفعل الأرانب. قالت أُمى إننى استنشقت هواءً نقيًا جدًا لمدة اثنى عشر عامًا مما جعلنى لا أصاب بالبرد. فأنا قوى مثل النبوت.

كان ليكون يعمل فى أثناء الحديث وكانت مارى تتبعه وتساعده بشوكتها.

قال فجأة وهو ينظر حوله بابتهاج: "لدينا الكثير من العمل هنا".

قالت مارى فى توسل: "هل ستأتى ثانية لتساعدنى فى العمل؟ أنا واثقة من أننى أيضًا أستطيع المساهمة. فأنا أقدر على العزق وسحب الأعشاب الضارة وسأفعل كل ما تطلبه منى مهما كان. آه يا ديكور فلتأتِ إذن".

أجابها بقوة: "سأجىء كل يوم إن أردتنى فى الضحى كان أو فى المطر، إنها أجمل متعة أحظى بها فى حياتى - أن أنام وأستيقظ فى الحديقة".

فقالت: "إذا كنت ستأتى، وتساعدنى فى إحيائها فسوف لا أعرف ما الذى سأفعله" أنهت كلماتها فى إحساس بالعجز. قالت لنفسها: "ما الذى تستطيعين فعله لفتى كهذا؟".

قال ليكون بابتسامته الفرحة: "سأخبرك ماذا تفعلين، سيزيد وزنك وتصبحين جائعة مثل ثعلب صغير بدأ لتوه فى المشى وستتعلمين كيف تذهبين مثلى إلى طائر أبى الحناء. آه! سنستمتع كثيرًا".

وأخذ يتجول بين الأشجار وتحت الأسوار والشجيرات وذهنه مشغول.

قال: "لا أريد أن أجعلها كحديقة يرعاها بستانى، كل ما فيها مطوق ومختصر، أليس كذلك؟ من الأفضل أن يكون بها أشجار طبيعية وبرية تتدلى وتتشابك ببعضها".

قالت مارى بشغف: "لا تجعلها تبدو منسقة، فهى لن تكون سرية إذا كانت منسقة".

وقف ليكون وهو يحك رأسه المجعد الأحمر وعليه نظرة حيرى. قال: "إنها بالتأكيد حديقة سرية، ولكن يبدو أن أحدًا بجواره أبو الحناء كان لابد أن يهتم بها منذ أغلقت من عشر سنين".

قالت مارى: "ولكن كيف كنت لأفعل ذلك؟".

كان يختبر فرع زهرة جميلة وهز رأسه.

تمتم قائلًا: "نعم، كيف؟ والباب موصد والمفتاح مدفون".

كانت الآنسة مارى تشعر دائمًا أنها مهما مر من عمرها فإنها يجب ألا تنسى أول صبح بدأت فيه حديقتها تنمو. بالطبع، بدا لها وكأن الحديقة

بدأت تنمو فى هذا الصباح. عندما بدأ دىكون ينظف المكان لكى يغرس
البذور، تذكرت ما غناه بيسيل لها عندما أراد أن يضايقها.

تساءلت: "هل هناك أية زهور تشبه الأجراس؟"

أجاب وهو يحفر بالفأس: "زهور السوسن بالوادي، وهناك زهور
الكانتربارى وأبراج الأجراس".

قالت مارى: "لنزرع بعضاً منها".

"يوجد بالفعل زهور سوسن هنا فى الوادي؛ لقد رأيتها. عندما تنمو
ستكون قريبة جداً من بعضها وسنضطر لإبعادها عن بعضها، ولكن هناك
الكثير. الأنواع الأخرى تأخذ سنتين لتزهر من البذرة، ولكن يمكننى أن
أحضر إليك بعض أوانى النباتات من حديقتنا الصغيرة. لماذا تريدين هذه
الزهور؟"

فحكّت له مارى عن بيسيل وإخوته وأخواته فى الهند وكيف كانت
تكرههم وكيف كانوا يسمونها "الآنسة مارى، متناقضة للغاية".

الآنسة مارى، متناقضة للغاية،

كيف تنمو حديقتك،

بها أجراس فضية، ومحارات رخوية،

ونبات القطيفة فى صفوف،

"تذكرتها للتو، وتعجبت لو كان هناك زهور مثل الأجراس الفضية".
عبست ماري قليلاً، وغرست فأسها في الأرض بغل.
قالت: "لم أكن متناقضة مثلهم".

لكن ليكون ضحك. وعلى حين كان يثير التربة السوداء الخصبة رآته
يستنشق رائحة، قال: "إيه! لا أظن أن هناك أحداً يمكن أن يكون متناقضاً
ومثل هذه الزهور موجودة، ومعها مثل هذه الأشياء البرية الودودة وهي
تصنع لنفسها أوطاناً، أو تبني أعشاشاً وتقنى وتصفر، أليس كذلك؟".
نظرت ماري إليه وهي جاثية تحمل البذور وأزاحت عن وجهها
العبوس.

قالت: "ديكون، أنت طيب فعلاً مثلما قالت مارثا. أنت تعجبني. لقد
أتممت الخمسة. لم أكن أظن أنني سأحب خمسة أشخاص".

جلس ديكون على كعبيه مثلما كانت تفعل مارثا وهي تلمع الموقد، رآته
ماري مسلياً ومبهجاً بعينيهِ الدائرتين وخده الأحمر وأنفه السامق السعيد.
قال: "فقط خمسة تحبينهم؟ من هم الأربعة الباقون؟".

أشارت بأصابعها وقالت: "أمك ومارثا وطائر أبي الحناء وبين
وذرستاف".

ضحك ديكون لدرجة أنه اضطر أن يكتم صوت ضحكه بيده.

قال: "أعلم أنك تعتقدين أنني الفتى الشاذ، لكننى أعتقد أنك أكثر فتاة شاذة رأيته".

ثم فعلت مارى شيئاً غريباً. مالت للأمام وسألته سؤالاً لم تكن تحلم أن تسأله أحداً. حاولت أن تسأله بلغة يوركشاير لأنها كانت لغته، والمواطن الهندى يسعد لو كلمته بلغته.

قالت: "هل أعجبك؟".

قال بصدق: "نعم ، أحبك أيتها الرائعة، وكذلك يحبك أبو الحناء. أنا موقن من ذلك".

قالت مارى: "أنتما اثنان، اثنان لى".

ثم بدأ فى العمل بجذ أكثر وفرح أكبر. فزعت مارى وأسفت عندما سمعت صوت ساعة الفناء الكبيرة تشير إلى موعد وجبة منتصف النهار.

قالت بحزن: "على أن أذهب، وعليك أن تذهب أيضاً، أليس كذلك؟".

تبسم ليكون وقال: "طعامى دائماً أحمله بسهولة معى. تدعنى أمد دائماً أضع معى بعض الطعام فى جيبى".

أخذ معطفه من على الحشائش وأخرج من جيبه حزمة صغيرة مكسدة مربوطة بمنديل نظيف به بعض الخشونة ولونه أبيض وأزرق. كان بها قطعتان سميكتان من الخبز بينهما شريحة ما.

قال: "إنه شيء قليل، لكنه خبز، ولكنني أحضرت معه اليوم قطعة من لحم خنزير سمين مقدد".

رأت ماري أنها وجبة رديئة، لكن بدا مستعداً للاستمتاع بها.

• قال: "أذهبي بسرعة وتناولى غداءك. سأنتهي طعامي أولاً. لدى بعض العمل الإضافي قبل عودتي إلى البيت".

جلس مستنداً إلى شجرة. قال: "سأستدعي أبا الحناء وأعطيهِ قشرة اللحم ليتقر فيها. إنه يحب الدهون كثيراً".

لم تحتمل ماري أن تغادره. فجأة أحست أنه نوع من جن الغابات ولن تراه ثانية عندما تعود إلى الحديقة. كان أطيب من أن يكون إنسياً. مشيت ببطء حتى وصلت منتصف الطريق المؤدي إلى البوابة، ثم توقفت ورجعت قائلة: "مهما حدث، فلن تخبر أحداً؟".

انتفخ خداه خشخاشياً اللون عند أول قضمه من الخبز واللحم، لكنه استطاع أن يبتسم على نحو مشجع.

قال: "لو كنت طائر سمينة^(*) وأريتني مكان عشك، هل تعتقدين أنني سأخبر أحداً؟ ليس أنا. أنت في أمان مثل طائر السمينة".

وكانت متأكدة أنها كذلك.

(*) *missel thrush* : طائر بني منقط، معروف بصوته العذب وحياته؛ يأكل التوت الهمال، وهذا يساعد في نشر النبات.

الفصل الثانى عشر

هل يمكن أن آخذ قطعة من الأرض؟

ركضت مارى بسرعة حتى كادت تنقطع أنفاسها حال وصولها لغرفتها. انفرد شعرها على جبهتها وأصبح لون خديها وردياً لامعاً. فى ذلك الوقت كان غداؤها جاهزاً على المائدة ومارثا على مقربة منه.

قالت مارثا: "هذا متأخر قليلاً، أين كنت؟".

ثم قالت بتلهل: "لقد رأيت بكون،".

قالت مارثا: "أعلم أنه قد جاء، كيف تريته؟".

قالت مارى بصوت صارم: "أرى — أرى أنه جميل!".

نظرت إليها مارثا وهى مندهشة لكنها بدت مسرورة أيضاً.

ثم قالت: "حسناً، إنه أفضل فتى ولد، لم نكن نعتقد بأنه كان وسيماً هكذا، لكن أنفه ممتد للخارج أكثر من اللازم".

قالت ماري: "أحبها ممتدة للخارج".

فقالت ماريثا: "وعينه شديدة الاستدارة، ضئيلة ومريية، مع أن لونه لطيف".

فقالت لها ماري: "أحبها مستديرة، ولونها بالضبط هو لون السماء التي تملأ البراري".

أشرق وجه ماري في ارتياح.

"تقول أمه إن ما جعل لونها هكذا أنه كان دائماً ينظر للطيور والغيوم. لكن فمه كبير، أليس كذلك؟".

قالت ماري في عناد: "إنني أحب فمه الكبير. وأتمنى لو أن فمي كان مثله".

ضحكت ماريثا في ابتهاج وقالت: "كان سيبدو قطعة مضحكة وشاذة في وجهك الصغير، لكنني علمت أن الأمر سيكون بتلك الطريقة حينما تريه. لكن كيف تبدو البذور وكيف تبدو أدوات الحديقة؟".

"وكيف علمت أنه أحضرهم معه؟".

"لم أكن أشك قط أنه سيحضرهم، كان بالتأكيد ليحضرهم إذا كانوا في يوركشاير. إنه لفتى وفي".

هنا خشيت ماري أن تسألها ماريثا أسئلة صعبة، لكنها لم تفعل. كانت شغوفة جداً بالبذور وأدوات البستنة، شعرت لدقيقة بالخوف. كان ذلك حينما بدأت تسألها عن المكان التي ستزرع فيه الزهور.

سألتها: "من الذى طلبت منه مكانًا لتزعى فيه؟".

قالت ماري فى تردد: "أنا لم أسأل أحدًا إلى الآن".

"حسنًا، أنا لم أكن لأسأل رئيس البستانين. إنه عجوز جدًا سيد روتش".

قالت ماري: "أنا لم أره قط، لقد رأيت فقط بعض البستانين وبن ودرستاف".

فنصحتها ماريًا قائلة: "لو كنت مكانك لسألت بن ودرستاف، إنه ليس سيئًا للغاية كما يبدو ولا تصف ما يبدو، لكنه مشاكس مع الكل، ومستمر كرافن يدعه يفعل ما يشاء نظرًا لأنه كان هنا فترة حياة مدام كرافن وكانت تحبه؛ لأنه كان يضاحكها دائمًا. فلربما يجد لك زاويةً بعيدةً فى مكانٍ ما على الطريق".

قالت ماري بتلهفٍ "وإذا كانت فى مكانٍ بعيدٍ إذن فلن يمانع أحد من اقتنائى لها، أليس كذلك؟".

أجابتها ماريًا: "لن يكون لهم مانع لفعل ذلك، فلن تسببى أى ضرر".

تناولت ماري غداها بأسرع ما يمكنها وعندما قامت من على المائدة كانت ستعدو إلى غرفتها لترتدى القبعة ثانيةً لكن ماريًا استوقفتها وقالت: "لدى شيءٍ أريد أن أخبرك به. لكننى تركتك لتتناولى العشاء أولاً. لقد عاد مستر كرافن هذا الصباح وأظن أنه يود رؤيتك".

فصارت ماري شاحبة تمامًا.

قالت: "يا إلهي، لماذا، لماذا، فلم يكن يريد أن يراني عند وصولي. سمعت بتشر وهو يقول ذلك".

فسرت لها مارثا وقالت: "حسنًا، تقول السيدة ميدلوك إن ذلك بسبب أمي. كانت في طريقها إلى قرية ثويت وقابلته، لم تحدثه قط قبل تلك المرة، لكن مستر كرافن جاء إلى كوخنا مرتين أو ثلاث. ثم نسي، لكن أمي لم تنس الأمر. وتجرات وأوقفته. أنا لا أرى ماذا قالت له عنك، لكنها قالت له شيئًا جعله يصمم أن يراك غدًا قبل رحيله". صرخت ماري: "أوه، هل سيرحل غدًا؟ إنني مسرورة جدًا!".

"إنه سيرحل لفترة طويلة، ربما لن يعود قبل الخريف أو الشتاء. فسوف يسافر لأماكن أجنبية. إنه دائمًا ما يفعل ذلك".

قالت ماري في امتنان: "أوه، إنني مسرورة— مسرورة جدًا!".

إذا لم يأت بحلول الشتاء أو الخريف فسيكون هناك وقت لنشهد الحديقة السرية وهي تبعث إلى الحياة. حتى لو اكتشفها وأخذها منها. فستكون على الأقل قد نالت ذلك وشاهدتها.

"متى تعتقدين برأيك أنه سوف يرى — لم تكمل ماري جملتها لأن الباب قد فتح، ودخلت السيدة ميدلوك، وقد ارتدت أفضل فستان أسود لديها مع القبعة، وقد وضعت بياقتها دبوس زينة عليه صورة وجه رجل.

إنها صورة ملونة للسيد ميدلوك الذى توفى منذ سنوات، ودائماً ما ترتديها حينما تهندم نفسها. لكنها بدت قلقة وعصبية.

قالت فى سرعة: "شعرك خشن، اذهبى ونظفيه. ساعديها يا مارثا لترتدى أفضل فساتينها. لقد أرسلنى السيد كرافن كى أحضرها له فى حجرة مكتبه".

هرب اللون الوردى من خدى مارى. وبدأ قلبها يخفق بصوت مكتوم وشعرت أنها تتحول ثانية إلى الطفلة الصامته الشاكية المتصلبة، إنها حتى لم تجب السيدة ميدلوك فقط استدارت ثم مشت نحو حجرتها على حين تبعثها مارثا. ولم تقل شيئاً عند تغيير فستانها، ولا فى أثناء تنظيف شعرها، وحينما أصبحت جاهزة ذهبى وتبعى السيدة ميدلوك فى صمت إلى أسفل الممرات. ماذا لديها لتقوله؟ فلقد أرغمت على الذهاب لترى السيد كرافن وهو لا يحبها، وحتى هى لا تحبه. فقد علمت ما الذى يظنه بها.

أخذت إلى مكان من البيت لم تدخله من قبل. فى آخر الأمر طرقت السيدة ميدلوك الباب، ودخلا الغرفة معاً حينما صاح أحدهم "ادخل".

كان بالغرفة رجل جالس على كرسى بذراعين مسنداً أمام المدفأة، فقالت له السيدة ميدلوك، "هذه مارى، يا سيدى".

فقال السيد كرافن: "يمكنك أن تذهبى أنت وتتركها هنا. وسأقرع الجرس لك عندما أريدك أن تأخذها".

حين خرجت السيدة وأغلقت الباب، ما استطاعت ماري إلا أن تقف منتظرةً كشيءٍ صغيرٍ شاكٍ وهي تثنى يديها الصغيرتين معاً. فقط رأت أن الشخص الذى على الكرسي لم يكن أحدهم إنما رجل ذو كتفين عاليتين عوجاوين، ذو شعر أسود تتخلله خطوط بيضاء ثم رفع رأسه عند كتفيه العاليتين وبدأ يتكلم معها وقال: "تعالى هنا" فذهبت إليه.

لم يكن قبيحاً، بل لو لم يخيم البؤس على وجهه لكان وسيماً. بدا وكأن رؤيتها أغاظته وكأنه لا يعرف أبداً ماذا يفعل معها. سألها: "هل أنت بخير؟".

فأجابت: "نعم"،

"هل يهتمون بك جيداً؟"

"نعم".

فرك جبينه بقلق وهو يتفحصها.

قال: "أنت نحيفة جداً".

أجابت ماري بأقصى ما تعرف من الحدة: "إن وزنى فى زيادة".

ما كان أبأس وجهه. كأن عينيه السمرائين لم تريها، كأنهما يريان شيئاً آخر، بالكاد كان يعيرها انتباهه.

قال: "لقد نسيتك، كيف لى أن أتذكرك؟ كنت أنتوى أن أرسل إليك مربية أو ممرضة أو أى شخص من هذا القبيل، لكنى نسيت".

بدأت مارى تتحدث. قالت: "من فضلك، من فضلك - لكنها اختنقت من التهاب كان على حلقها.

تساءل: "ماذا تريد أن تقولى؟".

قالت مارى: "أنا - أنا كبرت جداً على احتياجى لمرضة، و - من فضلك، لم أعد فى حاجة إلى مربية".

فرك جبينه ثانية وهو يحدق فيها، وتمتم بلاوعى: "هذا ما قالت المرأة المزارعة".

للمت بعضاً من الشجاعة، وقالت متلعثمة: "هل هى - هل هى والددة مارثا؟".

أجاب: "نعم، أعتقد ذلك".

قالت مارى: "إن لديها خبرة فى تربية الأطفال، فلديها اثنا عشر طفلاً".

بدأ يفيق ذهنه: "ماذا تريد أن تفعل؟".

أجابت مارى وهى تتمنى ألا يهتز صوتها: "أريد أن ألعب خارج المنزل، لم أحب ذلك قط فى الهند، هنا يجعلنى أشعر بالجوع، ويزداد وزنى". كان يشاهدها.

قال: "قالت المرأة المزارعة إن ذلك مفيد لك. ربما، لقد اعتقدت أنك لا بد أن يقوى جسمك قبل أن يكون لك مربية".

قالت ماري في جدال: "يزداد شعوري بالقوة عندما أَلعب والرياح تمر على البراري".

ثم سألتها: "أين تلعبين؟".

قالت بتلهف: "في كل مكان، أرسلت إلى والدتي مارثا حبلًا للقفز. أقفز وأجري - وأرى إن كان هناك ما ارتفع عن الأرض. لا أفعل أي شيء ضار".

قال بصوت قلق: "لا تخافى لهذا الحد، لا يمكنك أن تضرى نفسك، لا يفعل ذلك طفل مثلك! لك أن تفعل ما تشائين".

وضعت ماري يدها على حلقها خشية أن يرى الورم الواضح على حلقها أحست أنه يدخل حلقها. تقدمت خطوة منه. وقالت بارتجاف: "هل يمكنني؟". وبدا أن وجهها الصغير المضطرب أقلقه أكثر من ذي قبل.

تعجب وقال: "لا تخافى لهذا الحد، بالطبع يمكنك. أنا الوصي عليك، مع أنني هزيل بالنسبة لطفل. لا أستطيع أن أوفر لك وقتًا ولا اهتمامًا كافيًا. لقد هدّنى المرض، تعس ومتحير؛ لكنني أتمنى لك السعادة والراحة. لا أدرى أي شيء عن الأطفال، لكن السيدة ميدلوك ترى أن لديك كل ما تحتاجين. أرسلت في طلبك اليوم لأن السيدة سوربي قالت إنني يجب أن أراك. كانت ابنتها قد تحدثت عنك. قالت إنك تحتاجين هواءً نقيًا وحرية تمرحين خلالهما".

قالت ماري مرة أخرى : "إنها تعرف كل ما يتعلق بالأطفال".

قال السيد كرافن: "يجدر بها ذلك، أظن لديها من الجرأة ما تستطيع به أن توقفني في البراري، لكنها قالت. كانت السيدة كرافن عطوفة عليها".

بدا عليه الأسى عندما ذكر اسم زوجته المتوفاة.

"إنها سيدة محترمة. الآن وقد رأيتك أرى أنها كانت محقة فيما قالت. العبي خارج المنزل كما تشائين. فالمساحة كبيرة، وتستطيعين أن تذهبي حيث تشائين وترفهي عن نفسك كما تحبين. أتريدين أي شيء؟".

قال وكأن فكرة فاجأته : "هل تريدين ألعابًا، كتبًا أو دمي؟".

ارتعدت ماري وقالت: "هل يمكنني؟ هل يمكن أن آخذ قطعة من الأرض؟".

شغفها الزائد جعلها لا تدرك كم بدت كلماتها غريبة وأنها لم يكن يجب أن تعبر بهذه الكلمات.

اندهش السيد كرافن بعض الشيء، وكرر: "الأرض؟ ماذا تقصدين؟".

قالت في تلعثم: "أريد أن أغرس فيها بذورًا وأتركها تنمو، أريد أن أرى نباتات على قيد الحياة".

حدق فيها برهة ثم وضع يده على عينيه.

قال بتؤدة: "هل .. تهتمين بالحدائق كثيرًا؟".

قالت ماري: "لم أكن أعرف شيئاً عنها فى الهند، كنت دائماً مريضة ومنهكة، الحداثق دائماً كانت حارة. كنت أحياناً أصنع أحواضاً رملية صغيرة وأضع الزهور فيها. لكن الأمر هنا مختلف".

نهض السيد كرافن وبدأ يتمشى فى الغرفة. قال لنفسه: "قطعة من الأرض".

ظنت ماري أنها بطريقة أو بأخرى ذكرت بهشء ما.

توقف ونظر إليها، كانت عيناه حانيتين وعطوفتين.

قال: "لك ما تريدين من الأرض، لقد ذكرتني بشخص آخر كان يحب الأرض وما ينبت منها". ثم بشبه ابتسامة قال: "عندما ترين قطعة أرض تريدينها، خذها يا طفلى، واغرسى فيها الحياة".

"هل يمكننى أن آخذها من أى مكان - إن لم يكن يريده أحد؟".

أجاب: "من أى مكان، انهبى الآن، فأنا متعب".

دق الجرس ليدعو السيدة ميدلوك. وقال: "إلى اللقاء، سأكون بعيداً طوال الصيف".

جاءت السيدة ميدلوك بأسرع مما ظنت ماري، مؤكدة أنها كانت تنتظر فى الردهة.

قال السيد كرافن: "السيدة ميدلوك، الآن وقد رأيت الطفلة أدركت ماذا كانت تعنى السيدة سوربى يجب أن تكون أقل رقة قبل أن تبدأ لروسها.

أعطيتها طعامًا بسيطًا وصحيًا. دعيها تجرى بحرية فى الحديقة. لا تثقلى عليها بالعناية. إنها تحتاج حرية وهواءً نقيًا تمرح فيهما. يجب أن تأتى السيدة سوربى وتراها الآن ولاحقًا، وربما تذهب أحيانًا إلى الكوخ".

بدا السرور على السيدة ميدلوك. أحست بالراحة لأنها لن تضطر بعد الآن للعناية الشاقة بمارى. كانت مهمة متعبة ومملة عليها، ولم تكن تجرى أن تظهر إلا القليل مما تعرف. بالإضافة إلى أنها كانت مغرمة بوالدة مارثا.

قالت: "شكرًا سيدى، كنت أنا وسوزان سوربى نذهب معًا إلى المدرسة، وكانت حساسة وطيبة القلب. أنا لم أرزق بأطفال، وهى رزقت باثني عشر طفلًا ما كان هناك أنظف ولا أكثر صحة منهم. عن نفسى، سوف آخذ دائمًا بنصيحة سوزان سوربى فيما يخص الأطفال. يمكن أن تنعتها بـ "راجحة العقل" - أتفهم ما أعنى؟.

أجاب السيد كرافن: "نعم أفهم، خذى الآنسة مارى الآن وأرسلنى إلى بتشر".

عندما أخذتها السيدة ميدلوك إلى ردهتها، هرولت مارى إلى غرفتها، حيث وجدت مارثا فى انتظارها. فى الحقيقة رجعت مارثا مسرعة بعدما أخذت أوانى الطعام.

صاحت مارى: "سيكون لى حديقتى الخاصة! فى أى مكان أحب! لن يبقى معى مربية طويلًا! ستأتى أمك لترانى ويمكننى أن أذهب إلى الكوخ! قال إن فتاة صغيرة مثلى لا تتسبب لنفسها بضرر ويمكننى أن أفعل ما أشاء - أينما أشاء".

قالت مارثا بفرح: "إيه ! هذا شيء طيب جداً منه، أليس كذلك؟".

قالت ماري بوقار: "مارثا، إنه فعلاً رجل طيب، لكنه فقط بأئس الوجه دائماً ومقطب الجبين".

هرولت بأقصى سرعة إلى الحديقة. ابتعدت أكثر مما كان يجب عليها. كانت تعرف أن سيكون لابد وأن يكون خرج مبكراً إلى ممشاه الذي يبلغ خمسة أميال.

عبرت الباب تحت شجر اللبلاب، لم تجد سيكون يعمل في المكان الذي تركته فيه. كانت معدات البستنة موضوعة تحت شجرة. جرت نحو المعدات، نظرت في كل مكان حولها، ولم تر سيكون. ذهب بعيداً وترك الحديقة الغامضة خاوية إلا من ظائر أبي الحناء، وقد حلق فوق السور وهبط على شجيرة ورد ينظر إليها.

قالت في حزن: "لقد ذهب، هل كان - هل - هل كان مجرد جن الغابات؟"

جذب انتباهها شيء أبيض كان ملصقاً بشجيرة الورد. كانت قطعة من الورق، في الحقيقة، كان قطعة من خطابها الذي طبعته لمارثا لكي تعطيه إلى سيكون. كان مثبتاً على الشجيرة بشوكة كبيرة، وفي دقيقة عرفت أن سيكون كان قد تركه لها هناك. كان مطبوعاً عليه بعض الحروف الباهتة وشبه صورة. كانت الحروف في الأسفل وتقول: "سوف أعود".

الفصل الثالث عشر

أنا كولن

أخذت ماري الصورة ورجعت إلى المنزل، عندما ذهبت للعشاء عرضت الصورة على مارتا.

قالت مارتا بفخر كبير: "إيه! لم أكن أعرف مطلقاً أن يكون الذي أعرفه ذكي هكذا. أن توجد صورة لطائر السمينة على عشه، ضخمة وضعف حجمه في الطبيعة".

ثم أسركت ماري أن يكون قصد من خلال الصورة أن يبعث رسالة. كان يقصد أنها لا بد أن تتأكد من أنه سيحفظ سرها. حديقته هي الغش وهي مثل طائر السمينة. كيف أحببت هذا الفتى التلقائي الشاذ!

تمنت لو رجع في اليوم التالي، وغرقت في النوم راجية طلوع النهار. لكنها لا تعرف ماذا يفعل الطقس في يوركشاير، وخصوصاً في وقت الربيع. أيقظها في جوف الليل صوت المطر وهو يضرب بقطراته الثقيلة على نافذتها. كان المطر سيولاً تهطل، والرياح كانت تعوى حول أركان

ومداخل البيت الضخم العتيق. قعدت مارى فى سريرها وأحست بالبؤس والغضب.

قالت: "إن المطر دائماً يسير عكسى تماماً، إنه يأتى عندما لا أريده".

ألقت بنفسها ثانية على وسادتها ودفنت وجهها فيها. لم تبك، لكنها رقدت كارهة صوت المطر الذى يضرب بقوة، كرهت الرياح وعواءها، لم تستطع أن تعاود النوم. أيقظها الصوت الكثيب وقد شعرت هى نفسها بالكآبة. لو كانت شعرت ببعض سعادة ربما كان ذلك يهددها لتنام. كيف عوّت الرياح وكيف ضربت قطرات المطر الثقيلة على الزجاج!.

قالت: "كأن شخصاً ضل فى البرارى، وظل يتجول ويصرخ هنا وهناك".

ظلت متيقظة تتقلب من جنب إلى آخر لما يقرب من ساعة، وفجأة شىء ما جعلها تهب قاعدة على سريرها تنظر إلى الباب وهى تنصت. ظلت منصتة.

قالت هامسة: "ليس صوت الرياح الآن، ليس الرياح. إنه شىء مختلف. إنه ذاك البكاء الذى سمعته من قبل".

كان الباب غير موصد والصوت قائم من الأسفل عبر الدهليز، صوت بعيد ضعيف من البكاء المتقطع. ظلت منصتة لبضع دقائق وكل دقيقة تمر تجعلها أكثر تأكيداً.

أحست أنه لابد لها من أن تعرف ما هذا الصوت. كان أغرب حتى من الحديقة الغامضة والمفتاح المدفون. ربما مزاجها الثائر جعلها أكثر جرأة. وضعت قدمها على الأرض ووقفت.

قالت: "سأعرف ما هذا. الجميع نائمون ولا أكرث بالسيدة ميدلوك - لا تهمنى".

أخذت شمعة كانت بجوار سريرها وسارت فى صمت خارجة من غرفتها. ظهر لها الدهليز طويلاً جداً ومظلماً، لكن إثارتها منعته من التفكير فى ذلك. ظنت أنها تذكرت الزوايا التى يجب أن تتبعها لتصل إلى الدهليز القصير والباب المزركش الذى دخلت منه السيدة ميدلوك فى اليوم الذى فقدت فيه. أصبح الصوت أعلى هذا المر. لذلك أكملت سيرها ومعها ضوؤها الهزيل الذى بالكاد يهدى طريقها، وقلبها كان يدق حتى إنها تخيلت أنها سمعت دقاته. تحرك صوت البكاء الخافت وتبعته. كانت تتوقف أحياناً لدقيقة ثم تكمل المسير. توقفت وفكرت هل هذه هى الزاوية التى يجب أن أتبعها؟ نعم، أسفل هذا المر ثم إلى اليسار، ثم صعوداً درجتين، ثم إلى اليمين مرة أخرى. نعم، كان هناك الباب المزركش.

دفعت الباب بلطف لتفتحه وأغلقت خلفها، وقفت فى الدهليز وسمعت البكاء أكثر وضوحاً، رغم أنه لم يكن عالياً. كان صوت البكاء على الجانب الآخر من الحائط على يسارها وعلى بعد خطوات وجدت باباً. رأت وميض نور يأتى من تحت الباب. هناك شخص يبكى فى هذه الغرفة، إنه صغير السن. سارت نحو الباب وفتحته، ومن ثم وقفت فى الغرفة.

كانت غرفة كبيرة ذات أثاث عريق وأنيق. نار ضعيفة تتوهج في المدفأة، ومصباح ليلي موقد بجانب سرير ذى أربعة أعمدة مشدودة بقماش مطرز، وعلى السرير صبي يرقد ويكي بكاء متقطعاً. تعجبت ماري، هل هذه حقيقة أم أنها نامت وهي الآن فى حلم ولا تدرى. كان الصبي ذا وجه رقيق وحاد، عاجى اللون، وكان يبدو أن العينين متسعتان جداً على هذا الوجه الصغير. كان شعره كثيفاً متهدلاً على جبهته بخصل كبيرة ومصغراً حجم وجهه أكثر. كان يبدو أنه طفل مريض منذ زمن، لكن بكاءه زاد وكأنه تعب ومل وليس مجرد بكاء من الألم.

وقفت ماري قريباً من الباب وبيدها شمعته، وهي تكتم أنفاسها. تسللت عبر الغرفة، وعندما اقتربت من الصبي، انتبه إلى الضوء، أدار رأسه على وسادته والتفت إليها، عيناه الراميتان اتسعتا بشكل هائل. قال فى النهاية بصوت هامس شبه خائف: "من أنت؟ هل أنت شبح؟". قالت ماري: "لست شبحاً، هل أنت كذلك؟". وصوتها كان شبه خائف أيضاً.

ظل يحدق ويحدق فيها. لم تحتل ماري رؤية عينيه الغريبتين. كانتا رمايتين وكانتا تبدوان كبيرتين جداً لما يحوطهما من أهداب سوداء. بعد دقيقة أجاب: "لا، أنا كولن". قالت متلعة: "من كولن؟".

"أنا كولن كرافن، من أنت؟".
"أنا ماري لينوكس. السيد كرافن يكون زوج عمتي".
قال الصبي: "إنه أبي".
قالت ماري متلهفة: "أبوك؟ لم يخبرني أحد قط أن لديه ابناً! لماذا؟"
قال: "تعالى هنا،" وما زال مسلطاً عينيه عليها فى تعبير مثير.
اقتربت من السرير ثم أخرج يده ولسها.
قال: "أنت حقيقية، أليس كذلك؟، أحياناً كثيرة أرى أحلاماً حقيقية
كهذه، أنت واحدة منها".



كانت ماري انزلقت على دثار صوفى قبل أن تغادر غرفتها ووضعت قطعة منه بين أصابعه.

قالت: "حك هذه وانظر كيف هي سميكة ودافئة، سأسرق لك بعضاً منها لو تحب، لكى أريك كم أنا حقيقية. منذ دقيقة كنت أظن أنك أيضاً حلم".
سألها: "من أين أتيت؟"

"من حجرتى، الرياح كانت تعوى فما استطعت أن أنام وسمعت أحداً يبكى وأردت أن أعرف من هو. ماذا كان يبكيك؟".
"لأننى لم أستطع النوم أيضاً وأصيب دماغى بالصداع. أخبرينى باسمك ثانية".

"مارى لينوكس. ألم يخبرك أحد أننى جئت لأعيش هنا؟".
كان لا يزال ممسكاً قطعة الصوف، لكنه بدأ ينظر أكثر كأنه تأكد أنها حقيقية.

أجابها: "لا، لم يجرؤ".

سألته: "لماذا؟".

"لأننى من المفترض أن أخاف لو رأيتنى، لا أدع الناس يروننى أو يتحدثون معى".

سألته ماري ثانية: "لماذا؟" وكل دقيقة يزداد داخلها إحساس بالحيرة.

"لأنني دائماً بهذا الشكل، مريض ومضطرب للرقود. لن يدع أبى الناس يكلموننى أيضاً. وغير مسموح للخدم أن يتحدثوا عنى. فلو عشت ربما أكون أحذب، لكننى لن أعيش. يكره أبى التفكير فى أننى ربما أكون مثله".

قالت ماري: "يا له من بيت غريب. يا له من بيت غريب. كل شيء فيه سر غامض. الحجرات موصدة، والحدائق موصدة وأنت - هل كنت دائماً موصداً؟"

"لا، أنا أبقى فى هذه الغرفة لأننى لا أريد أن أخرج منها، فذلك يتعبنى كثيراً".

قالت ماري: "هل يأتى أبوك ليراك؟".

"أحياناً. فى العموم حينما أكون نائماً. هو لا يريد أن يرانى".

لم تمنع ماري نفسها من السؤال ثانية: "لماذا؟".

"أمى ماتت عندما ولدت، وهذا جعله يبتئس من النظر إليّ. يعتقد أننى لا أعرف ذلك، لكننى سمعت الناس يتحدثون. إنه يكرهنى تقريباً".

قالت ماري محدثة نفسها إلى حد ما: "إنه يكره الحقيقة لأنها ماتت".

سألها: "أى حقيقة؟".

تمتت ماري: "آه ، مجرد - مجرد حديقة كان يحبها في الماضي، هل كنت هنا دائماً؟"

"دائماً تقريباً، أحياناً كانوا يأخذونني إلى مكان قريب من البحر، لكنني لا أريد أن أظل هناك لأن الناس يحدقون فيّ. اعتدت أن أرتدى زياً حديدياً لأحتفظ بظهري مستقيماً، لكن عندما جاء طبيب مشهور من لندن ورأني قال هذا غباء. قال لهم أن يخلعوا ذلك ويتركوني في الهواء الطلق. أكره الهواء الطلق ولا أريد أن أخرج."

قالت ماري: "كنت لا أحب الهواء عندما جئت إلى هنا، لماذا تظل ناظراً إلى هكذا؟"

قال بشكل أكثر اضطراباً: "بسبب الأحلام الحقيقية، أحياناً عندما أفتح عيني لا أصدق أنني مستيقظ."

قالت ماري: "كلانا مستيقظ."

ألقت نظرة في أنحاء الغرفة بسقفها المرتفع وزواياها المبهمة وضوء نارها المعتم.

"إنها تبدو تماماً كحلم، ونحن في منتصف الليل، وكل من في البيت نائمون - كلهم إلا نحن. نحن مستيقظون تماماً."

قال الصبي بعدم ارتياح: "لا أريد أن يكون حلماً."

فكرت ماري فجأة وقالت: "إن كنت لا تحب أن يراك أحد، هل تريدني أن أذهب؟".

لم يزل يمسك بقطعة الصوف وفركها قليلاً.

قال: "لا، لو ذهبت لن أكون متأكدًا إن كنت حلمًا. لو أنك حقيقة، اجلسي على مسند القدمين الكبير هذا وتحدثي. أريد أن أعرف عنك".

وضعت ماري شمعتها على المنضدة القريبة من السرير وجلست على المسند الموسد. لم تكن تريد أن تذهب على الإطلاق. كانت تريد أن تبقى في الغرفة الغامضة المتخفية وتحدث مع الصبي الغامض.

قالت: "ماذا تريدني أن أخبرك به؟".

كان يريد أن يعرف كم مضى عليها في ميسلثويت؛ في أي الردهات تقع غرفتها؛ ماذا كانت تفعل؛ وما إذا كانت تكره البراري كما يكرهها، وأين كانت تعيش قبل أن تأتي إلى يوركشاير.

أجابت على كل أسئلته وأكثر منها، وهو متكئ على وسادته منصت إليها. جعلها تخبره بأشياء كثيرة عن الهند وعن رحلتها عبر المحيط. اكتشفت أنه لم يتعلم كثيرًا مما يتعلمه الأطفال لأنه كان معزولاً. علمته إحدى ممرضاته القراءة عندما كان صغيراً، وكان دائماً يحافظ على القراءة ومشاهدة الصور في كتب رائعة.

بالرغم من أن والده نادرًا ما رآه مستيقظًا، فإنه وفر له جميع أنواع الأشياء الجميلة ليسلى نفسه بها. ومع ذلك، لم يظهر عليه أنه يلهو ويمرح. كان يحصل على أى شىء يريده، ولم يجبر على فعل شىء لا يريد أن يفعله. قال بلامبالاة: "كان كل الناس مضطرين لفعل ما يسرنى، هذا يزيد مرضى وغضبى. لا يصدق أحد أننى سأعيش حتى أكبر".

قالها وكأنه اعتاد أن هذه الفكرة لم تعد تهمة. بدا وكأنه أحب صوت مارى. حينما كانت تتحدث، كان هو يستمع إليها باهتمام مع بعض نعاس. شعرت مرة أو مرتين أن النعاس يغلبه بالتدريج. لكنه فى النهاية سألها سؤالاً فتح موضوعًا جديدًا.

"كم عمرك؟"

أجابت مارى، ناسية نفسها للحظة: "عشرة أعوام، وكذلك أنت".
سألها بصوت مندهش: "كيف عرفت ذلك؟".

"لأنك عندما ولدت، أغلق باب الحديقة ودفن المفتاح. وهو مغلق منذ عشرة أعوام".

اعتدل كولن فى شبه جلوس مستديرًا نحوها ومستندًا على رصغه.
تساءل وكأنه فجأة انتبه: "أى باب حديقة موصد؟ من أغلقه؟ وأين دفن المفتاح؟".

"إنها - إنها الحديقة التى يكرهها السيد كرافن، أغلق الباب، ولا أحد - لا أحد يعرف أين دفن المفتاح".

أصر كولن بشغف وقال: "أى نوع من الحقائق تكون؟".

أجابت مارى بحرص: "لم يسمح لأحد بدخولها منذ عشرة أعوام".

لكن فات الأوان على حرصها. وكان هو مثلها تمامًا، هو أيضًا لم يكن يفكر فى شىء، وفكرة الحديقة الغامضة جذبت انتباهه مثلها. سألها السؤال بعد السؤال. أين هى؟ ألم تبحث قط عن الباب؟ ألم تسأل البستانيين قط؟

قالت مارى: "لا يريدون التحدث عنها، أظن أنهم أمروا بالآلا يجيبوا على أى سؤال".

قال كولن: "سأجعلهم يجيبون".

سألت مارى بتلهف: "هل تستطيع؟".

وبدأت تشعر بالخوف، لو جعل الناس يتحدثون، ماذا يمكن أن يحدث؟.

قال: "كلهم مضطرون لإسعادى، قلت لك ذلك، لو قدر لى الحياة، سيؤول هذا المكان إلى فى وقت من الأوقات، كلهم يعرفون ذلك. سأجعلهم يخبروننى".

لم تكن تعلم مارى أنها نفسها كانت تعيش حياة مدللة، لكنها ترى بوضوح أن هذا الصبى المحير كان كذلك. إنه اعتقد أنه يملك العالم كله. كيف كان مميزًا وفى الوقت نفسه يتحدث ببرود عن الموت.

سألته: "هل تظن أنك لن تعيش؟"، من ناحية لأنها كانت فضولية، ومن ناحية أخرى لكى تجعله ينسى أمر الحديقة.

قال باللامبالاة التى تحدث بها من قبل: "لا أظن أنى سأعيش، لطالما كنت أسمع الناس يتحدثون عن ذلك. فى البداية كانوا يعتقدون أنى لا أفهم لصغر سنى، والآن يظنوننى لا أسمع. لكنى أسمعهم. طبيبى ابن عم أبى. إنه فقير تمامًا، وإذا أنا مت فسوف تؤول إليه كل ميسليثويت عندما يموت أبى. لا أظنه يتمنى لى الحياة".

تساءلت مارى: "هل تريد أن تعيش؟".

أجابها بشكل متعب وسائم: "لا، لكننى لا أريد أن أموت. عندما يزيد على المرض أرقد هنا وأفكر فى الموت فأبكى وأبكى".

قالت مارى: "سمعت بكاءك ثلاث مرات، لكن ما كنت أعرف من يبكى. هل كنت تبكى لهذا السبب؟".

لم تزل تحاول أن تنسيه الحديقة.

"للأسف، لنتكلم فى شىء آخر. فلنتحدث عن الحديقة، ألا تريد أن تريها؟".

قالت بصوت منخفض: "نعم".

استمر على إصراره: "أنا أريد، لا أظن أننى أردت بالفعل رؤية شىء من قبل، لكننى أريد أن أرى تلك الحديقة. أريد أن يخرجوا لى المفتاح. أريد

أن يفتح الباب. سأجعلهم يأخذوننى إلى هناك على كرسيى. سأجد هناك الهواء النقى. سأجعلهم يفتحون الباب.

بلغت به الإثارة مبلغها وعيناه الغريبتان أشرقتا واتسعتا أكثر.

قال: "هم مجبرون على إسعادى، سأجعلهم يأخذوننى هناك وسأدعك تذهبين أيضاً.

تعلقت يدى مارى بعضها ببعض. سيفسد كل شىء - كل شىء! لن يعود ليكون مرة ثانية. لن تشعر ثانية أنها طائر السمنة ولديه عش آمن بعيد عن الأنظار.

صرخت: "لا - لا - لا - لا تفعل ذلك!"

حدق فيها وكأنها أصابها الجنون!

تساءل مستغرباً: "لماذا؟ قلت إنك تريدان الذهاب إلى هناك".

أجابت بنشيج فى صوتها: "نعم، ولكن لو جعلتهم يفتحون الحديقة ويأخذونك بهذا الشكل، فلن تكون الحديقة سرية بعد ذلك".

اعتدل فى جلسته أكثر وقال: "سرية! ماذا تقصدين؟ أخبرينى".

تلعثمت كلمات مارى وكأنها اختلطت على بعضها.

قالت بتلهف: "أترى - أترى، لو لم يعرف أحد غيرنا - لو وجدنا باباً مخفياً فى مكان ما تحت اللبلاّب - لو وجدنا - ونحن نستطيع ذلك،

ولو استطعنا أن ندخل من خلاله وأغلقناه خلفنا، ولم يدر أحد أننا بالداخل وأسميناها حديقتنا وتشبهنا بطيور السمينة وأن الحديقة هي عشنا، ولو لعبنا هناك كل يوم وحفرنا وغرسنا البذور ووهبناها الحياة -"،

قاطعها قائلاً: "هل هذا حقيقي؟"،

"سيكون قريباً إذا لم يفطن أحد لذلك، ستعيش البصيلات لكن الزهور-".

قاطعها مرة ثانية وكان ثائراً مثلها. استدرك بسرعة: "ماذا تعنى بصيالات؟".

"الزرجس البري وزهور السوسن و زهرة اللبن الثلجية. إنها تنمو فى الأرض الآن - وتنشر نقاطاً خضراء شاحبة على الأرض لأن الربيع قادم".

قال: "هل الربيع قادم؟ ما شكله؟ لا ترين الربيع وأنت مريضة فى غرفة مغلقة".

"الربيع هو شروق الشمس على المطر وهطول المطر على أشعة الشمس، وخروج الزهور وانتعاش النباتات فى التربة، عندما تكون الحديقة سرية سندخلها ونلاحظ الزهور وهى تكبر كل يوم، وانظر كم عدد الزهور التى ستتمو، أترى؟ أوه، ألا تدري كم من الأجمل أن تكون الحديقة سرية؟".

تراجع فى سريره ونام على وسادته وعلى وجهه تعبير مختلف.

قال: "لم يكن لدى سر قبل ذلك، ما عدا معرفتي بأننى لن أعيش طويلاً. لا يعرفون أننى أعرف ذلك، لذلك فهذا نوع من الأسرار. لكنى أحب هذا النوع أكثر".

ناشدته مارى: "إذا لم تدعهم يأخذونك إلى الحديقة، ربما - بل أنا متأكدة أنك ستعرف فى وقت ما كيف تصل إلى هناك. وبعد ذلك، لم يرد الطبيب أن تخرج على مقعدك، ولو استطعت دائماً أن تفعل ما تريد، ربما - يمكننا أن نجد صبيًا يهتم بدفع مقعدك، ثم نستطيع أن ندخلها وحدنا وتكون دائماً حديقة سرية".

قال ببطء وعيناه كأنهما تحلمان: "على أن أحب ذلك، لا أعترض على استمتاعى بالهواء النقى فى حديقة سرية".

استعادت مارى أنفاسها وشعرت بالأمان لأن فكرة السرية أسعدته. أصبحت متأكدة أنها لو حافظت على حوارها معه تستطيع أن تريه الحديقة كما تراها هى، وستروق له الفكرة، لأنه لن يحتمل أن يتسكع فيها كل الناس كما يريدون.

قالت: "سأصف لك شكلها الذى أتوقعه، إذا استطعنا أن ندخلها، كانت مغلقة لأمد بعيد، وربما أن نباتاتها كبرت وتشابكت".

ظل ساكنًا منصتًا إليها وهى تحدثه عن الزهور التى ربما تنقلت من شجرة إلى أخرى وتدلّت منها - عن الطيور الكثيرة التى ربما بنت أعشاشًا هناك لأنه مكان آمن. ثم حدثته عن طائر أبى الحناء وعن بن وذرستاف،

كان هناك الكثير لتقوله عن أبي الحناء. قالت الكثير والكثير عن أبي الحناء بسهولة واطمئنان حتى إنها لم تعد تخاف. أسعده ذكر أبي الحناء كثيراً لدرجة أنه ابتسم حتى بدا وجهه جميلاً، ومنذ البداية ظنت ماري أنه أبسط منها كثيراً، بعينه الكبيرتين وخصلات شعره الكثيفة.

قال: "لم أكن أعرف أن الطيور يمكن أن تكون هكذا، لكنك إن أقمت في غرفة لا ترين الأشياء أبداً. تعرفين الكثير. أحسست أنك دخلت هذه الحديقة من قبل".

لم تعلم ماذا تقول، لذلك لم تقل شيئاً.

هو أيضاً لم يكن ينتظر إجابة، وبعد ذلك بادرها بمفاجأة.

قال: "سأريك شيئاً، هل ترين هذه الستارة الحريريّة وردية اللون المعلقة على الحائط فوق رف المستوقد؟".

لم تلحظها ماري من قبل، لكنها نظرت إلى أعلى ورأتها. كانت ستارة حريرية ناعمة معلقة فوق شيء يبدو كصورة. أجابت: "نعم".

قال كولن: "الستارة مربوطة بحبل، انزهي وشديه".

نهضت ماري متحيرة. رأت الحبل. عندما شدته تراجعت الستارة على حلقات وظهر من خلفها صورة. كانت صورة فتاة وجهها ضاحك. كان شعرها لامعاً مربوطة بشريط أزرق، وعيناها المرحتان الرقيقتان كانتا تشبهان تماماً عيني كولن الحزینتين، كانتا رماديتين وكانتا تبدوان كبيرتين جداً لما يحوطهما من أهداب سوداء.

قال كولن فى أسف: "إنها أُمى، لا أفهم لماذا ماتت، أحياناً أكرهها لهذه
الفعلة".

قالت مارى: "يا للغرابة!"

قال فى تذمر: "لو ظلت على قيد الحياة، لما كنت مريضاً طوال الوقت،
بل يجدر بى أن أقول إننى يجب أن أعيش أيضاً. وما كان أبى ليكره أن ينظر
إلى. أقول كان من المفترض أن يكون ظهري قوياً. أعيدى الستارة ثانية".

فعلت مارى ما طلبه ورجعت إلى مسند القدمين.

قالت: "إنها أجمل بكثير منك، لكن عينيها مثل عينيك تماماً — على الأقل
لهما نفس الشكل واللون. لماذا تغطيها بالستارة؟".

تحرك فى تعب.

قال: "أنا أمرتهم بذلك، أحياناً لا أريد أن أراها وهى تنظر نحوى. إنها
تبتسم أكثر من اللازم وأنا مريض وبأش. أيضاً هى ملكى وحدى ولا أريد
أن يراها كل الناس".

مر بعض الوقت فى صمت قبل أن تتحدث مارى.

تساءلت: "ماذا ستفعل السيدة ميدلوك لو علمت أننى كنت هنا؟".

أجابها: "ستفعل ما أمرتها به، وأنا سأقول لها إننى طلبت منك أن
تأتى إلى هنا وتتحدثى معى كل يوم. أنا مسرور أنك أتيت".

قالت ماري: "وأنا كذلك، سأتى كثيرًا بقدر المستطاع، ولكن-
"ترددت" يجب على أن أبحث كل يوم عن باب الحديقة".

قال كولن: "نعم، لابد من ذلك، وستخبرينى بعد ذلك".

رقد يفكر لبضع دقائق، كما فعل من قبل، ثم تحدث بعدها.

قال: "أظن أنك يجب أن تكونى سرًا أيضًا، لن أخبرهم حتى يكتشفوا
ذلك. سأرسل الممرضة دائمًا خارج الغرفة وسأرى ماذا يمكننى أن أفعل
بمفردى. هل تعرفين مارتا؟".

قالت ماري: "نعم، أعرفها جيدًا".

"إنها تقوم على شؤونى". وأشار برأسه تجاه الدهليز الخارجى.

"إنها من ينام فى الغرفة الأخرى. ذهبت الممرضة أمس لتقضى الليلة -
مع أختها وهى دائمًا تقيم مارتا مكانها كلما أرادت الخروج. ستخبرك مارتا
متى تأتين هنا".

ثم أدركت ماري لماذا تضطرب مارتا حينما كانت تسألها عن البكاء.

قالت: "هل كانت مارتا على معرفة بك طوال الوقت؟".

"نعم؛ هى تحضر إليّ دائمًا. تحب الممرضة دائمًا أن تتحرر منى فتأتى
مارتا".

قالت ماري: "أنا هنا من وقت طويل، هل لي أن أذهب الآن؟ أرى عينيك ناعستين".

قال بشيء من الخجل: "أتمنى لو استطعت النوم قبل أن تتركيني".

قالت ماري وهي تقترب بمسندها: "أغلق عينيك، وسأفعل ما كانت تفعله ممرضتي في الهند. سأربت على يدك وألطفها وأغني لك بصوت منخفض".

قال في نعاس: "ربما سأحب ذلك".

كانت تأسف لحالته بشكل ما، ولم ترد أن تتركه متيقظًا، لذلك استندت إلى السرير وبدأت تلاطف يده وتغني أغنية صغيرة باللغة الهندوسية^(*).

قال في نعاسه: "هذا جيد"، وظلت هي تلاطف يده وتغني له. عندما رأت أهدابه السوداء نائمة على خديه وعينييه مقفلتين وقد نام سريعا، نهضت بلطف وأخذت شمعتها وتسلفت إلى الخارج في صمت.

(*) Hindustani : لهجة هندية اعتمدها فاتحو هندوستان المسلمون، في شمالي الهند ووسطها .

الفصل الرابع عشر

الأمير الهندي

عندما جاء الصبح، كانت الغابة مكسوة بالضباب، ولم يكن المطر قد توقف عن الهطول. لن يستطيع أحد الخروج من منزله. كانت مارتا مشغولة لدرجة أن ماري لم تجد الفرصة للحديث معها، لكن بعد الظهر طلبت منها أن تأتي وتجلس معها في حجرتها. جاءت حاملة جوربًا كانت تحبكه في وقت فراغها.

بمجرد أن جلسا، سألتها: "ما خطبك؟ كأنك تريدين أن تقولى شيئًا".
قالت ماري: "لقد عرفت مصدر صوت البكاء".

أوقعت ماري الجورب على ركبتيها وحدثت فيها بعينين شاخصتين.
تعجبت: "ألم تكونى تعلمين؟ قط!".

أكملت ماري: "سمعتة فى الليل، ذهبت لأرى من أين يأتى. كان كولن.
لقد وجدته".

احمر وجه مارثا خوفاً.

قالت وكأنها ستبكي: "إيه يا آنسة ماري، لم يكن يجدر بك أن تفعل ذلك - ما كان عليك ذلك! ستضعينني في مأزق. لم أقل لك شيئاً عنه قط - لكنك ستضعينني في مأزق. سأفقد وظيفتي وماذا ستفعل أمي!"

قالت ماري: "لن تخسري وظيفتك، كان مسروراً لرؤيتي".

صاحت مارثا: "هل كان كذلك؟ متأكدة؟ أنت لا تدريين ما شكله عندما يثور. لقد كبر على الصراخ كطفل رضيع، لكن عندما يفعل يصرخ بشكل معتدل فقط ليخيفنا. هو يعرف أننا لا نملك أرواحنا".

قالت ماري: "لم يغضب، سألته أن أذهب لكنه طلب مني البقاء معه. سألني أسئلة وجلست على مسند قدمين وتحدثت إليه عن الهند وعن طائر أبي الحناء وعن الحداثق. لم يكن يريد أن يتركني أذهب. أطلعني على صورة أمه. وقبل أن أتركه، غنيت له لكي ينام". وماري تحديق فيها بدهشة.

أكدت مارثا: "لا أصدق ذلك! هذا كأنك دخلت مباشرة إلى عرين أسد. لو كان مزاجه كما يكون في معظم الأوقات، لكان ألقى بنفسه في نوبة غضب من نوباته وأيقظ البيت كله. إنه لا يحب أن ينظر إليه الغرباء".

قالت ماري: "تركني أنظر إليه. كنت أنظر إليه وينظر إليّ. كنا نحديق في وجوه بعضنا البعض!"

صاحت مارثا بقلق: "لا أعرف ماذا أفعل! لو اكتشفت السيدة ميدلوك ذلك هستقول إننى كسرت الأوامر وأخبرتكم وسيطردوننى عائدة إلى أمى".

قالت مارى بحزم: "لن يخبر السيدة ميدلوك بأى شىء الآن. سيكون ذلك سرًا فى البداية فقط، وهو يقول إن كل فرد هنا مجبر على طاعته".

تنهدت مارثا وقالت: "نعم هذا صحيح - ولد سيئ!" ومسحت جبينها بمنزرها.

"هو يؤكد أنه سيخبر السيدة ميدلوك فيما بعد. سيريدنى أن أذهب وأتحدث معه كل يوم، وأنت من ستخبريننى متى يريدنى".

قالت مارثا: "أنا! سأفقد وظيفتى - سأفقدتها بالتأكيد!".

قالت مارى: "لن تفقدى وظيفتك لو فعلت ما يأمرك به، والجميع هنا مأمورون أن يطيعوه".

صاحت مارثا بعينين متسعيتين: "هل تقصدين أنه كان لطيفًا معك؟".

أجابت مارى: "أظن أنه تقريبًا أحببى".

قررت مارى وهى تلتقط نفسًا عميقًا: "من المؤكد أنك سحرته".

تساءلت مارى: "هل تقصدين السحر؟ سمعت عنه فى الهند، لكننى لا أجيده. أنا فقط دخلت غرفته وفوجئت برؤيته".

وقفت وحدقت فيه. ثم استدار وحدق فى وجهى. ظننى شبهاً أو حلمًا وأنا ظننته كذلك. كان غريباً أن نكون هناك بمفردنا فى منتصف الليل ولا يعرف أحد منا شيئاً عن الآخر. بدأنا نسأل بعضنا. وعندما سألته لو يحب أن أذهب قال لا".

قالت مارثا بتلهف: "يا له من عالم صغير!"

سألت مارى: "ما خطبه؟"

قالت مارثا: "لا أحد يعرف بشكل مؤكد، أصيب السيد كرافن بالجنون عندما ولد. قال الأطباء لا بد أن يودع مستشفى الأمراض العقلية. كان ذلك لأن السيدة كرفن توفيت كما قلت لك. لم يدر بصره إلى الطفل. كان يهدى فقط ويقول سيكون هناك أحدهم آخر مثله ومن الأفضل أن يموت".

سألت مارى: "هل كولين أحدهم؟ لم يظهر كذلك".

قالت مارثا: "ليس أحدهم بعد، لكنه بدأ حياته وكل شىء غير سليم. قالت أمى إن البيت كان به من المشاكل والعنف ما يجعل أى طفل مضطرباً. كانوا دائماً قلقين على ظهره الضعيف وكان الجميع يعتنون به - بأن يجعلوه ينام دائماً ولا يدعوه يمشى. فى مرة من المرات ألبسوه دعامة، لكنه اغتآظ ومرض على الفور. ثم أتى طبيب كبير ليراه وأمرهم أن يخلعوا ذلك. تحدث إلى الطبيب الآخر بشكل حاد ومؤدب. قال إنه أخذ أدوية أكثر من اللازم وترك لحاله أكثر من اللازم".

قالت مارى: "أظنه صبيئاً فاسداً جداً".

قالت ماريثا: "إنه أسوأ صبي فظ رأيته من قبل! ولم يكن أفضل عندما يكون مريضاً. كان يصاب بالسعال ونوبات البرد حتى كانت تقتله مرتين أو ثلاث. فى مرة كان يعانى من حمى روماتزمية وأصيب بالتيفود(*)". نعم، كانت السيدة ميدلوك مرعوبة ساعتها. كان غائباً عن الوعي وكانت هى تتحدث مع الممرضة، وظنت أنه لا يعرف شيئاً، وأكدت أنه سيموت هذه المرة، وهذا هو الأفضل له وللجميع. ثم نظرت إليه فرأته فاتحاً عينيه الكبيرتين ومحدقاً فى وجهها بشفقة كما كانت هى. لم تكن تعلم ماذا سيحدث، لكنه نظر فى عينيها وقال: أحضرى إلىّ بعض الماء وتوقفى عن الكلام".

سألت ماري: "هل تعتقدين أنه سيموت؟".

"تقول أُمى إنه ليس هناك من سبب لأن يعيش، فتى لا يتمتع بهواء نقى ولا يفعل شيئاً إلا أن يقرأ الكتب المصورة ويتناول الأدوية. إنه ضعيف ويكره ما يحدث له من مشاكل عندما يخرجونه خارج المنزل، ثم إنه يصاب بالبرد بسهولة ويقول إنه يصيبه المرض".

جلست ماري ونظرت إلى النار.

قالت ببطء: "إنى أتساءل إن كان خروجه فى الحديقة ورؤيته للنباتات وهى تنمو سيجعله فى تحسن. لقد حدث ذلك معى".

(*) typhoid : حمى التيفويد؛ مرض معدٍ حاد، يسبب بكتيريا فى الطعام أو الماء، وأعراضها؛ حرارة مرتفعة، صداع، سعال، نزيف، نزيف فى الأمعاء، بقع وردية اللون على الجلد .

قالت مارتا: "من أسوأ ما فعل، فى مرة أخذوه للخارج عند الزهور والنافورة. كان يقرأ فى جريدة عن إصابة أناس بما يسمى نزلة برد الزهور. ثم بدأ يعطس وقال لقد أصبت بها، ثم مر بستانى جديد لا يعرف الأوامر ونظر إليه فى فضول. استشاط غضباً وقال إنه كان ينظر إليه لأنه سيكون أحذب. أدخل نفسه فى نوبة حمى وظل طريق الفراش طوال الليل".

قالت ماري: "لو صاح فى غاضباً مرة، فلن أذهب إليه ثانية أبداً".

قالت مارتا: "سيحصل عليك إن أرادك، يجب أن تعلمى ذلك من البداية".

ثم بعد ذلك سمعت رنين جرس فللمت غزلها.

قالت: "لا بد أن الممرضة تريدنى أن أجلس معه قليلاً، أرجو أن يكون مزاجه رائعاً".

خرجت من الغرفة لحوالى عشر دقائق ثم رجعت ووجهها محير.

قالت: "حسناً لقد سحرتة، لقد جلس على أريكته ومعه كتب مصورة. قال للممرضة أن تظل بعيدة حتى الساعة السادسة. أما أنا فعلى الانتظار فى الغرفة المجاورة. عندما خرجت الممرضة دعانى إليه وقال: أريد أن تأتى ماري لينوكس وتتحدث معى، وتذكرى أنك لا يجب أن تخبرى أحداً. من الأفضل أن تذهبي بأقصى سرعة".

همت ماري بالذهاب بسرعة. لم تكن تريد رؤية كولن أكثر من يكون، لكنها كانت تتوق لرؤية كولن.

كانت النار مشتعلة وبراقة في المدفأة عندما دخلت غرفته، وقد رأت الغرفة جميلة بالفعل في ضوء النهار. كانت الألوان منتشرة على السجاد والستائر والصور والكتب على الحوائط مما جعل الغرفة متألقة بالرغم من السماء الغائمة والمطر المتساقط. كان يبدو كولين نفسه كلوحة. كان ملفعاً بثوب مخملي ومستنداً إلى وسادة مطرزة كبيرة. على كلا خديه كانت هناك نقطة حمراء.

قال: "تعالى، كنت أفكر فيك طوال الصباح".

أجابت ماري: "كنت أفكر فيك أيضاً، لا تدري كم مارثا مرعوبة. تقول إن السيدة ميدلوك ستقول إنها أخبرتني عنك وستطرد من العمل". فعبس وجهه.

قال: "أذهبي وأخبريها أن تأتي، إنها في الغرفة المجاورة".

ذهبت ماري وجاءت بها. كانت مارثا المسكينة ترتعد فرائسها. لم يزل كولين عابساً.

سألها: "أليس عليك أن تفعل ما يسرني أم العكس؟"

قالت مارثا بتلهف وقد احمر وجهها: "على أن أفعل ما يسرك سيدي".

"أليس على ميدلوك أن تفعل ما يسرني؟"

قالت مارثا: "على الجميع سيدي".

"حسنًا إذن، إذا أمرتك أن ترسلى إلى الآنسة ماري، كيف ستستطيع ماري أن تطردك؟".

فاستعطفته ماريًا قائلة: "من فضلك لا تتركها تفعل ذلك سيدي".

قال السيد كرافن مثل الكبار: "سأطردها إذا فكرت أن تقول كلمة في هذا الشأن، يمكنني أن أقول إنها لن تحب ذلك".

انحنى باحترام وقالت: "شكرًا سيدي، أريد أن أقوم بواجبي، سيدي".

قال كولن وهو لا يزال مثل الكبار: "ما أريده هو واجبك. وأنا سأهتم بك، انذهبي الآن".

عندما أغلق الباب خلف ماريًا، وجد كولن الآنسة ماري تتأمله وكأنه نال إعجابها.

سألها: "لماذا تنتظرين إلى هكذا؟ فيم تفكرين؟".

"أفكر في شيئين".

"ما هما؟ اجلسي وأخبريني".

قالت ماري، وهي تجلس على الكرسي الكبير: "هذا هو أول شيء، في إحدى المرات في الهند رأيت صبيًا وكان أميرًا هنديًا^(*) مزينًا جسده كله

(*) Rajah : أمير، أو رئيس، أو حاكم حاكم مندى .

بالبياقوت والزمرد والألماس. كان يتحدث مع قومه تمامًا مثلما كنت تتحدث مع مارثا. كان على الجميع أن يفعلوا كل ما يأمرهم به - فى دقيقة. أعتقد أنهم إن لم يفعلوا ذلك فسيقتلون".

قال: "ستخبريننى عن الأمراء لاحقاً، لكن خبرينى ما هو الشيء الثانى".

قالت: "كنت أفكر كم أنت مختلف عن سيكون".

سألها: "من سيكون؟ يا له من اسم غريب!".

اعتقدت أنها يمكنها التحدث عنه أيضاً. كان يمكنها أن تتحدث عن ليكون دون ذكر الحقيقة السرية. كانت تحب أن تسمع مارثا وهى تتحدث عنه. أيضاً، فقد تآقت للحديث عنه. وهذا يجعله أقرب منها.

قالت: "إنه أخو مارثا، يبلغ اثنى عشر عاماً، ليس كأى شخص آخر فى الوجود. يستطيع أن يسحر الثعالب والسناجب والطيور تماماً مثلما يفعل أهل الهند بالثعابين. يعزف نغمة رقيقة جداً على مزماره وتأتى إليه هذه الكائنات لتستمع".

كان على المنضدة قريباً منه بعض الكتب الكبيرة التى سحب أحدها إليه فجأة.

قال: "هنا صورة لرجل من مروضى الثعابين، تعالى وانظري إليها".

كان كتاباً جميلاً المنظر وبه رسومات رائعة، أشار إلى أحد الرسومات وسأل بشغف: "هل يستطيع أن يفعل ذلك؟".

فسرت ماري الأمر وقالت: "كان يعزف على مزماره وهم يسمعون، لكنه لم يدع ذلك سحرًا، إنما قال لأنه يعيش في الغابات كثيرًا فهو يعرف طرق التعامل معهم. يقول إنه يشعر أحيانًا أنه طائر أو أرنب، لأنه يحبهم أيضًا، أظنه كان يسأل أبا الحناء بعض الأسئلة، وكأنهما يتحدثان بسقسات ناعمة".

اتكأ كولن على أريكته على حين اتسعت عيناه واحمر خداه كأنهما يحترقان.

قال: "حدثيني عنه أكثر".

أكملت ماري: "إنه يعرف كل شيء عن الأعشاش والبيض، كما يعرف مواطن الثعالب وحيوانات الغرير وكلاب الماء. ومع ذلك يحفظ أسرارها حتى لا يعثر الأولاد على جحورها ويؤذوها. إنه يعرف كل ما هو حي في البراري".

قال كولن: "هل يحب الغابة؟ كيف سيكون حاله عندما يرى مثل هذا المكان العاري الموحش الضخم؟".

أكدت ماري: "إنه أجمل مكان، آلاف النباتات الجميلة تنمو هناك، والآلاف من المخلوقات الصغيرة كلها مشغولة ببناء الأعشاش وحفر الفتحات والجحور والسقسة والغناء والصرير لبعضهم البعض. كلهم مشغولون بهذه المتعة تحت الأرض أو فوق الأشجار ونباتات الخنج. إنه عالمهم".

"كيف تعرفين كل ذلك؟" قالها كولن وهو يستدير مستنداً على رسغه وناظرًا إليها.

قالت ماري بعد أن تذكرت: "لم أذهب هناك قط، إطلاقاً، فقط مررت عليها ليلاً، كنت أظنها موحشة. حدثتني عنها مارثا ثم حدثتني بعدها سيكون. عندما يتحدث بيكون عنها تحس كما لو أنك ترى أشياء وتسمع أشياء وكأنك تقف بين الأشجار في أشعة الشمس، ورائحة نبات الجولق كرائحة العسل - والمكان حولك ملئ بالنحل والفراشات".

قال كولن وهو يشعر بالتعب: "لا ترين شيئاً أبداً في مرضك".

كان أشبه بشخص ينصت إلى صوت على بعد ويحاول تحديده.

قالت ماري: "لا تستطيع إن كنت جالساً في غرفة".

قال في نبرة مستاءة: "لم أستطع الذهاب إلى البراري".

صمتت ماري لدقيقة ثم قالت بجرأة: "يمكنك، أحياناً".

تحرك كما لو أنه خاف من شيء. قال: "أذهب إلى البراري! كيف لي ذلك؟ إنني سأموت".

قالت ماري بعيداً عن التعاطف: "كيف لك أن تعرف ذلك؟".

لم تحب طريقته في التحدث عن فكرة الموت. ولم تشعر معه بشيء من الشفقة. بل كانت تشعر وكأنه يتباهى به.

أجابته بحدة: "لقد كنت أسمع ذلك منذ أن وعيت، كانوا دائماً يتهامسون بذلك ويظنون أنني لم أفهم. إنهم يتمنون لو أنني أموت أيضاً".

أحسبت الآنسة ماري أنها مختلفة تماماً. وقرصت شفيتها معاً.

قالت: "لو تمنوا لي الموت، فلن أموت. من يتمنى لك الموت؟".

"الخدام - وبالطبع د. كرافن، لأنه سيستحوذ على ميسيلثويت وينعم بالغنى بدلاً من الفقر. لا يجرؤ أن يقول ذلك، لكن تبدو عليه السعادة عندما يراني في حالة أسوأ. عندما أصبت بحمى التيفويد تورّد وجهه. أظن أن أبي يتمنى ذلك أيضاً".

قالت ماري بشيء من العناد: "لا أعتقد أنه كذلك" مما جعل كولن يستدير وينظر إليها ثانية.

قال: "فعلاً؟".

ثم اتكأ ثانية على أريكته وعاد كأنه يفكر. ثم مر وقت من الصمت. ربما كان الاثنان يفكران في أشياء غريبة لا يعتاد الأطفال عليها.

قالت ماري في النهاية: "إنني أحب طبيب لندن الكبير، لأنه جعلهم يخلعون عنك الرداء الحديدي، هل قال إنك ستموت؟".

"لا".

"ماذا قال؟".

أجاب كولن: "لم يتهامس، ربما عرف أنني أكره التهامس. سمعته يقول شيئاً واحداً بصوت مسموع. قال: "يمكن للصبي أن يعيش لو اقتنع هو بذلك. أحيطوه بالمرح". كان وقع صوته كأنه يلطف الأجواء".

قالت ماري وهي تفكر ملياً: "سأقول لك مَنْ ربما سوف يحيطك بالمرح".
وشعرت ماري وكأنه أحب ترسيخ هذه الفكرة بطريقة أو بأخرى.

أكملت: "أعتقد أن يكون يستطيع. إنه دائماً ما يتحدث عن كائنات حية. لا يتكلم أبداً عن الأشياء الميتة أو المريضة. دائماً ينظر أعلى إلى السماء ليشاهد الطيور المرفرفة. - أو ناظرًا أسفل إلى الأرض ليرى شيئاً ينمو. لديه عينان زرقاوان واسعتان تتفقدان كل شيء حولهما. يضحك ضحكة كبيرة بقمه العريض - خداه أحمران كثمار الكرز".

قربت مسنّدها من الأريكة وتغير تعبيرها وهي تتذكر العينين الواسعتين والفم المقوس العريض.

قالت: "انظر هنا، لا تدعنا نتحدث عن الموت. دعنا نتحدث عن الحياة. دعنا نتحدث ونتحدث عن يكون. وبعد ذلك سوف ننظر في صورك".

كان ذلك أفضل شيء قالته. أن تتحدث عن يكون يعني أن تتحدث عن البراري وعن الكوخ والأربعة عشر فردًا الساكنين فيه معًا يقتاتون على ستة عشر شلنًا في الأسبوع - وعن الأطفال الذين سمت أجسامهم على حشائش البراري كالخيول البرية. وعن والدته يكون - وعن جبل القفز - وعن البراري تحت أشعة الشمس - وعن النقاط الخضراء الباهتة الملتصقة

بسّطح التربة الأسود. وكان كل ذلك من الأحياء حتى إن هذه كانت أول مرة تتحدث فيها مارى بهذا الكم - وكانت أول مرة يتحدث فيها كولن ويستمع بهذا الكم. ثم بدأ الاثنان فى الضحك على لا شىء كما يفعل الأطفال وقت الفرح. ضحكوا حتى إنهم فى النهاية أثاروا الصخب كطفلين عاديين يبيلغان من العمر عشر سنوات، بدلاً من البنت الصغيرة الخشنة غير المحبة والولد السقيم الذى يؤمن أنه سيموت لا محالة.

عاش الاثنان وقتاً من المرح جعلهما نسيا الصور ونسيا الوقت. كانا يضحكان بصوت مرتفع عن صوت بن وذرستاف وأبى حنائى، وكان كولن يجلس فعلاً كما لو أنه نسى تماماً ظهره السقيم، عندما تذكر شيئاً فجأة. قال: "تعلمين هناك شىء لم نفكر فيه قط، نحن أبناء عم".

بدا الأمر غريباً أن تحدثا كثيراً جداً ولم يفتنا إلى شىء بسيط أنهما لم يضحكا كذلك من قبل، لأن المرح بلغ بهما أن كانا يضحكان من أى شىء. حينما كانا يضحكان، فتح الباب ودخل عليهما الدكتور كرافن والسيدة ميدلوك. انزعج الدكتور كرافن كثيراً ورجع فجأة حتى ارتطم مصادفة بالسيدة ميدلوك وقد كادت تقع على ظهرها.

تعجبت المسكينة ميدلوك وعيناها على وشك الخروج من رأسها وقالت: "السيد العظيم! السيد العظيم!".

قال الدكتور كرافن وهو يتقدم للأمام: "ما هذا؟ ماذا يعنى ذلك؟".

ثم تذكرت ماري الأمير الهندي مرة أخرى. أجاب كولن وكأن انزعاج الدكتور وارتعاب السيدة نتيجة تافهة. لم ينزعج كولن أو يخاف وكأن قُطا وكلبًا مرا في الغرفة.

قال: "هذه ابنة خالي ماري لينوكس، طلبت منها أن تأتي وتحدث معي. إنني أحبها. ويجب أن تأتي إلى هنا وقتما أرسل في طلبها". التفت الدكتور كرافن مؤنبًا للسيدة ميلوك.

قالت في تلهف: "أه سيدي، لا أعرف كيف حدث ذلك. لا يجرؤ أي من الخدم أن يتحدث - جميعهم لديه أوامره".

قال كولن: "لم يقل أحد لها شيئًا، لقد سمعت بكائي ووجدتني بنفسها. أنا مسرور من مجيئها. لا تكوني سخيفة يا ميدلوك".

وجدت ماري أن الدكتور كرافن لم يكن مسرورًا، ولكن بدا واضحًا أنه لم يستطع أن يعارض مريضه. جلس بجوار كولن وتحسس نبضه.

قال: "آسف، كان هناك الكثير من الإثارة، والإثارة ليست جيدة لك يا ولدي".

قال كولن، وعيناه تبرقان بشكل خطير: "

يكون هناك المزيد من الإثارة لو حُجِبْتُ عني، أنا أفضل. هي تجعلني أفضل. يجب أن تحضر الممرضة الشاي لها مع ما تحضره لي. سنحتسى الشاي معًا".

نظر الدكتور كرافن والسيدة ميدلوك إلى بعضهما بشكل مضطرب، لكن من الواضح أن ليس لديهما شيء يفعلانه.

تجرات ميدلوك وقالت: "يبدو أنه تحسن بالفعل سيدي، ولكن - وهي تفكر ملياً - كان يبدو أفضل هذا الصباح قبل أن تأتي إلى الغرفة".

قال كولن: "لقد جاءت إلى الغرفة ليلة أمس، وظلت معي فترة طويلة. غنت لي أغنية هندوسية جعلتني أخلد إلى النوم، شعرت بالتحسن عندما استيقظت. طلبت إفطاري. وأريد شايي الآن. أخبري الممرضة يا ميدلوك".

لم يمكث الدكتور كرافن طويلاً. تحدث إلى الممرضة لبضع دقائق عندما حضرت مع كلمات تحذيرية قليلة لكولن. لا يجب أن يتحدث كثيراً؛ لا يجب أن ينسى أنه مريض؛ لا يجب أن ينسى أن جسده يتعب بسهولة. عرفت ماري أن ثمة أشياء كثيرة غير مريحة يجب عليه ألا ينساها.

بدا كولن مضطرباً وظل يحدق في وجه الدكتور كرافن.

قال في النهاية: "أريد أن أنسى ذلك، إنها جعلتني أنساه. ولهذا أريدها".

بدا الدكتور كرافن غير سعيد عند مغادرته للغرفة. اختلس نظرة مرتبكة إلى الفتاة الصغيرة الجالسة على الكرسي.

بمجرد أن دخل الغرفة أصبحت الطفلة الصلبة الصامتة مرة أخرى ولم ير فيها عنصر جذب. كان الولد يبدو فعلاً أكثر بريقاً، بالرغم من أنه تنهد بشدة بعد أن خرج الطبيب ونزل عبر الردهة.

قال كولن على حين كانت الممرضة تضع الشاي على المنضدة القريبة من الأريكة: "دائماً يريدون أن يطعموني أشياء لا أريدها، الآن لو تأكلين سأكل. تبدو هذه الفطائر لذيذة وساخنة. حدثيني عن أمراء الهند".

الفصل الخامس عشر

بناء العش

بعد أسبوع آخر من المطر ظهر القوس الكبير فى السماء الزرقاء مرة ثانية وهطلت الشمس التى كانت شديدة الحرارة. وبالتالى لم تكن هناك فرصة لرؤية أى من الحديقة ولا يكون، واستمتعت اللطيفة مارى بوقتها كثيراً. لم يبد ذلك الأسبوع طويلاً، فلقد أمضت الساعات من كل يوم مع كولن فى حجرته، يتكلمون عن المهرجا الأمير الهندى أو عن الحداثق أو عن يكون وكوخ البرارى. كانا يتصفحان الكتب الرائعة والصور وأحياناً كانت مارى تقرأ لكولن وأحياناً أخرى يقرأ لها هو. والغريب أن فى لحظات استمتاعه وشغفه لم تره عاجزاً على الإطلاق، ما عدا أن وجهه شاحباً وأنه دائم الجلوس على الأريكة.

قالت السيدة ميدلوك ذات مرة: "إنك شاب بارع تستطيع الاستماع والنهوض من فراشك لتتبع الأشياء والأمور كما فعلت فى تلك الليلة، لا يوجد هناك أى قول إنها لم تكن بركة على عدد كبير منّا. ولم تنتابه نوبة

الغضب ولا نوبة الأنين منذ أن صارت له صداقات. كانت الممرضة ستتخلى عن مهمتها لأنها أصابها الإعياء الشديد منه، لكنها لا تمنع من البقاء الآن" وقالت وهي تضحك قليلاً: "لقد قمت بالمهمة معها".

حاولت ماري أن تكون حذرةً أثناء حديثها مع كولن عن الحقيقة الخفية، وكان هنالك أشياء محددة تريد أن تعرفها منه، لكنها أحست أنها لا بد أن تعرف تلك الأشياء دون أسئلة مباشرة. في المقام الأول ولأنها أحببت أن تكون معه وإلى جواره، أرادت أن تعرف إذا كان من نوع الصبيان الذي يمكن أن تخبره بالأسرار. هو لم يكن على الأقل مثل ديكون، لكن من الواضح أنه كان مسروراً بفكرة الحقيقة التي لا يعرف أحد بها فظنت ماري بذلك أنه ربما يكون موثقاً به.

لكنها لم تعرفه لفترة طويلة حتى تتأكد من هذا. الشيء الثاني الذي كانت تود اكتشافه هل هو شخص موثق به، إن كان كذلك بالفعل ألن يكون من الممكن أن تأخذه إلى الحقيقة دون أن يكتشف أحد ذلك؟ وكما قال الدكتور الكبير إنه يحتاج الهواء المنعش وأضاف كولن قائلاً إنه لا يمانع من استنشاق الهواء في الحقيقة الخفية. ربما إذا أخذ القدر الكافي من الهواء المنعش وتعرف على ديكون وأبي الحناء ولو رأى الأشياء وهي تنمو ربما لن يفكر في الموت.

رأت ماري نفسها في المرأة أحياناً في الفترة الأخيرة عندها أدركت أنها نظرت لمخلوق مختلف تماماً عن الطفلة التي جاءت من الهند. فهذه تبدو ألطف وأجمل. وحتى مارتا لاحظت ذلك التغيير عليها.

وقالت : "إن هواء البرارى جعلك بحالة جيدة فعلاً" فلا أنت تقتربين من البدين ولا أنت بالهزيل. وحتى شعرك لا يتساقط فجأة من رأسك ضعيفاً متدلياً. فبه بعض الحياة التى تنبع قليلاً منه". فقالت ماري: "إنه يشبهنى". "إنه ينمو أقوى وأشد سمكاً. وهناك الكثير منه أنا واثقة"، قالت مارتا: إنه يبدو كذلك بالتأكيد، وهى تنفـش جزءاً منه حول وجهها". إنك لا تبدو نصف قبيحة عندما يكون بهذه الطريقة خاصة وأن هناك بعض الاحمرار فى هذين الخدين".

لو أن الحداثق والهواء المنعش فعلت بها كذلك فلايد أنه سيكون جيداً لكولن.

لكن فى هذا الوقت، لو كره أن ينظر الناس إليه ، ربما لن يود أن يرى ليكون . وسألته يوماً: "لماذا تغضب حينما يُنظر إليك؟".

فأجاب: "أنا دائماً أكره ذلك، حتى حين كنت صغيراً جداً. ثم عندما أخذونى إلى شاطئ البحر واعتدت حينها أن أرقـد فى غـرـبـتى كان الجميع يـحـدق بى وكانت السيدات يتوقفن ويحادثن الممرضة ثم يبدأن بالهمس حينها أدرك ما يقولون عنى إننى لن أعيش ولن أكبر".

وكانت السيدات أحياناً يربطن بأيديهن على خدي قائلين: "طفل مسكين!" وذات مرة حينما فعلت سيدة هذا الأمر صرخت بصوت عالٍ وعضضت يدها. فخافت وهربت".

قالت مارى، وهى ليست معجبة بهذا: "لقد اعتقدت السيدة أن أصابك الجنون ككلب،" فقال، كولن وهو عابس: "إننى لا أهتم بما ظنته بى،" فقالت مارى: "إننى أتعجب لماذا لم تصرخ في أو تعضنى حينما جئت إلى حجرتك؟" ثم بدأت تضحك ببطء.

فقال لها: "لقد ظننتك شبحاً أو ربما حلمًا، أنت لا تستطيعين أن تعضنى شبحاً أو حلمًا، وأيضاً هم لا يتأثرون إن صرخت." فسألتها مارى وهى غير متأكدة: "هل تكره أن أن ينظر إليك صبى؟".

أسند ظهره إلى وسادته وصمت فى تفكير، وقال فى بطء كما لو كان يدقق بكل كلمة: "إنه صبى واحد، هو صبى وحيد الذى أعتقد أننى لن أمانع من رؤيته لى. إنه ذلك الصبى الذى يعلم أين تعيش الثعالب— هو سيكون." قالت مارى: "أنا واثقة أنك لن تمانع منه".

قال وهو ما زال يفكر بالأمر: "والطيور وحيوانات أخرى، وربما لذلك فأنا لا أمانع. هو نوع من ساحر الحيوان وأنا أكون حيواناً ولذا".

ثم ضحك بعد تلك الجملة وضحكت هى أيضاً، فى الحقيقة لقد ضحكا بقدر كبير ووجدوا أن فكرة الحيوان الصبى المختفى داخل جرة مضحكة بالفعل. وما شعرت به مارى بعدئذ أنه لا يلزم الآن الخوف بشأن سيكون.

فى أول صباح يشرق بعد أن عادت والسماء زرقاء مرة أخرى استيقظت مارى باكراً جداً. كانت الشمس تصب أشعتها المائلة خلال الستائر، وكان

هناك شىء بهيج فى هذا المشهد لدرجة أنها قفزت من الفراش وجرت
مسرعة نحو النافذة. وسحبت الستائر وفتحت النافذة ذاتها فإذا بنسمة
هواء منعشة عطرة تهبّ عليها.

أصبحت البرارى الآن زرقاء ويبدو وكأن سحراً أصاب الدنيا كلها.
مع وجود أصوات رقيقة متباينة هنا وهناك وفى كل مكان، كما لو أن أعداداً
كبيرة من الطيور بدأت تنغيمها لأجل حفلة موسيقية. أخرجت مارى يدها
من الشباك وتركتها فى الشمس.

ثم قالت: "إنه الدفء... إنه الدفء. سوف يجعل النقاط الخضراء
تنطلق لأعلى ولأعلى وسيجعل الأبصال والجذور تعملان وتكافحان بكل
قوة تحت الأرض".

ركعت لأسفل وأخرجت جسمها خارج النافذة بعيداً قدر ما أمكنها،
وهى تتنفس الأنفاس العميقة وترتشف الهواء إلى أن ضحكت لأنها تذكرت
ما قالت والدته ديكون عن طرف أنفه الذى يرتعش كأنف الأرنب، "ثم قالت
لابد أن الوقت باكر، فتلك السحابات القليلة كلها وربية اللون وأنا لم أر
السماء بهذا الشكل قط. لا أحد مستيقظ الآن. حتى إننى لا أسمع صوت
صبيان الإسطبل".

ثم أتتها فكرة مفاجئة جعلتها تزحف على قدميها. وقالت: "لا أستطيع
الانتظار! سأذهب لأرى الحديقة!". فى هذا الوقت كانت قد تعلمت ارتداء
ملابسها بنفسها فارتدتها فى خمس دقائق. وعلمت بوجود باب صغير

جانبي يمكن أن تتسلل منه وهبطت السلم وهي ترفرف بقدميها ذات الجوارب ثم ارتدت حذاءها وهي في الردهة.

هي الآن محررة وعندما فتح الباب انبثقت عبره وقفزت خطوة في وثبة واحدة، هنا كانت تقف على العشب ، الذي اتضح عليه اللون الأخضر ، والشمس تهطل أشعتها من فوقها و حولها نسمات عذبة دافئة وتزمر وزقزقة وغناء يجيء من كل شجرة وشجيرة حولها. شبكت يديها في بهجة خالصة ونظرت لأعلى إلى السماء التي كانت لؤلؤية وبيضاء وورديّة . وشديدة الزرقة، ويتدفق منها ضوء الربيع حتى أحست أنها لابد أن تغنى وتزمر بنفسها بصوت مرتفع، وكانت تعلم أن الدج وأبا الحناء وطيور القبرة لا يمكنهم المساعدة ، ركضت عبر الممرات وحول الشجيرات متجهة نحو الحديقة.

وقالت لنفسها: "كل شيء مختلف الآن، فالعشب أكثر اخضرارًا وأشياء قد ارتفعت في كل مكان، وأشياء قد أسدلت في كل مكان وقد ظهرت براعم خضراء من الأوراق. وأنا واثقة أن سيكون سيأتي ظهيرة هذا اليوم". أحدث المطر الطويل الدافئ أشياء غريبة لأحواض النباتات العشبية التي لاصقت الممشى على الجدار السفلى. كان هناك إبراق وإخراج لأشياء من جذور مجموعات النباتات وبدا منتشرًا هنا وهناك لمحة اللون الأرجواني الأديكن والأصفر بين جذوع الزعفران.

قبل ستة شهور ما كانت ترى السيدة مارى كيف كان يستيقظ هذا العالم ، لكنها الآن لم تتغيّب عن شيء. فبعدما وصلت إلى المكان حيث يختبئ

الباب تحت اللبلاب، روعها صوت فضولي مرتفع. كان نعيب غراب أتى من أعلى الجدار، وحينما نظرت لأعلى وجدت طائراً كبيراً أزرق وأسود لامع الريش يجلس وينظر لأسفل نحوها فى حكمة. لم تر غراباً بهذا القرب من قبل فجعلها مرتبكة قليلاً، لكنه بعد لحظة واحدة فرد جناحيه ورفرف بعيداً عبر الحديقة تمنى ألا يبقى بالحديقة ثم دفعت الباب لتفتحه وهى تتساءل إذا كان هو.

حينما دخلت تماماً فى الحديقة رأت أنه ربما انتوى أن يبقى لأنه نزل على شجرة تفاح صغيرة، وكان يرقد تحت شجرة التفاح حيوان أحمر اللون قليلاً، ذو ذيل كثيف، وكلاهما يراقب الجسد المنحنى والرأس الأحمر الصدىء لديكون، الذى كان راكعاً على العشب وهو يجتهد فى العمل.

طارت مارى عبر العشب نحوه.

وصرخت قائلة: "ياه! ديكون! ديكون!" كيف أتيت إلى هنا فى هذا الوقت الباكر! كيف! لقد ارتفعت الشمس للتو نهض ضاحكا متوردا وأشعث؛ وعيناه تشبهان السماء.

وقال: "إيه، لقد نهضت قبله بفترة. كيف لى أن أظل بالفراش! والعالم الجميل قد بدأ ثانية هذا الصباح، وقد بدأ العمل والبدنة والخربشة وأنغام المزامير وبناء الأعشاش وزفير الروائح العطرة حتى يجب عليك الخروج بدلاً من الاستناد على ظهرك. حين تقفز الشمس فى السماء تفقد البرارى صوابها من البهجة، وكنت وسط نبات الخلنج، وركضت كمجنون، أصبح

وأغنى وجئت مباشرة إلى هنا. لم أستطع البقاء بعيداً عن هنا. لماذا، الحديقة هنا ترقد في حالة انتظار؟".

وضعت ماري يدها على صدرها ولهتت كما لو كانت تركض. وقالت: "ليكون ليكون؟ أنا سعيدة جداً بالكاد يمكنني التنفس!".

حالما رآه يتحدث مع غريب نهض الحيوان الصغير كثيف الذيل من مكانه تحت الشجرة وأتى إليه، ونعق الغراب مرة وهبط من فرعه واستقر بهدوء على كتفه.

قال ليكون وهو يملك رأس الحيوان الأحمر: "هذا شبل الثعلب، واسمه كابتن. وهذا _سووت_ يخلق سووت _معى_ في البراري وكابتن يجرى كما لو كانت كلاب الصيد تجرى وراءه. كلاهما يشعر كما أشعر".

لم يبد على هذين المخلوقين الخوف من ماري. فحين بدأ ليكون بالمشي بقي سووت كما هو على كتفه وهول كابتن بجانبه.

وقال لها ليكون: "انظري هنا. انظري كيف ارتفعت هذه النباتات وهذه وتلك! وانظري الى هنا!".

جثى على ركبتيه وقلدته ماري. نزلا على مجموعة كاملة من الزعفران قد انبتت بلون أرجواني وبرتقالي وذهبي. أحنت ماري وجهها لأسفل وقبلتها، وقبلتها.

وحيثما رفعت رأسها قالت: "لا تقبل أحداً هكذا قط، الزهور شيء مختلف".

بدا ليكون متحيراً لكن مبتسماً وقال: "أه، لقد قبلت أُمى هكذا كثيراً حينما كنت أعود من البرارى بعد عدة أيام من التجول، وكانت تقف بالباب تحت الشمس وهى تنظر فى سعادة وراحة". ظلا يعدوان من مكان إلى آخر بالحديقة ووجدوا أشياء عجيبة حتى ألزما نفسيهما أن يذكر أحدهما الآخر بأن يهمسا أو يتحدثا بصوت منخفض.

أراها ليكون براعم ورقة منتفخة على الفروع الوردية التى بدت ميتة. وأراها عشرة آلاف نقطة جديدة اخضرت واندفعت من القلب. وضعا أنفيهما الصغيرين الملهفين قريباً من الأرض وشمّاً موسم الربيع الدافئ وهو يتنفس؛ حفرا وجذبا النبات وضحكا بنشوة وصوت منخفض حتى تشقلب شعر السيدة ماري كشعر ديكون، وخداها كانا أحمرين كما الخشخاش.

كل سعادة وجدت على الأرض كانت بالحديقة هذا الصباح، وفى منتصفها جاءت البهجة أكثر بهجة من ذى قبل، لأنها كانت أكثر روعة. ثم طار شيء بسرعة شديدة عبر الحائط واندفع خلال الأشجار إلى أن انتهى إلى جزء ناضج بالزاوية. ضوء قليل لطائر أحمر الوجهه وشيء يتدلى من منقاره. وقف ليكون ساكناً تماماً واضعاً يده على ماري كما لو أنهما اكتشفاً أنهما يضحكان فى الكنيسة.

همس في اتساع يوركشاير: "نحن لا نستطيع الحركة، نحن بالكاد نستطيع التنفس. أنا علمت أنه كان رفيق صيد حين بذرتة لاحقاً. إنه أبو حناء وذرستاف. إنه بينى عشه. إنه سيبقى هنا إذا لم نطرده". استقرّا بهدوء على العشب وجلسا هناك دون حركة.

قال ديكون: "لا يجب أن يبدو علينا أننا نراقبه عن كثب، سوف يغضب إذا وصله انطباع أننا نتدخل الآن. سيكون مختلفاً إلى حد ما إلى أن ينتهى ذلك كله. هو يعد للتدبير المنزلى. سوف يصبح أكثر جبناً وأكثر عرضة لأخذ الأمراض. لن يحصل على وقت لا للتزاور ولا للمرافقة والقيـل والقال. يجب أن نظل ساكنين قليلاً وننظر فقط كما لو أننا أعشاب وأشجار وشجيرات. وحينما يتعود على رؤيتنا أنا سَأُزَقْزَقُ قليلاً وهو سَيَعْرِفُ أننا لن نكون في طريقه.

لم تكن السيدة مارى متأكدة بأنها تعرف كيف تُحاولُ الظهور كما يبدو ديكون— مثل العشب والأشجار والغابات. لكنه قال الشيء الغريب كما لو كان أبسط شيء وأكثر شيء طبيعي بالعالم، وهى شعرت بأنه يجب أن يكون سهلاً تماماً إليه، وشعرت أنه يجب أن يكون سهلاً كما قال، فراقبته بعناية لدقائق قليلة، وهى تتعجب إذا كان يمكن له أن يتحول بشكل هادئ إلى الأخضر ويكون كالفرع والأوراق. لكنه ظل جالساً فقط وبشكل رائع وعندما تكلم خفض صوته بقدر من النعومة. حتى كان صعباً عليها أن تسمعه، لكنها استطاعت.

وهو يقول: "هذا هو موسم الربيع، وبناء العش. أنا أؤكد أن هذا ما يجرى كل عام منذ بدء العالم. فلهم طريقته في التفكير وفعل الأشياء ومن الأفضل ألا يتدخل الشخص. يمكن أن تخسرى صديقاً في موسم الربيع أسهل من أى موسم آخر إن كنت فضولية وبذيئة".

قالت ماري برقة عالية: "إن تحدثنا عنه فأنا لا أستطيع التوقف عن النظر إليه، يجب أن نتحدث عن شيء آخر. هناك شيء أريد أن أخبرك إياه". قال ديكون: "هو سيفضل هذا إذا تكلمنا عن شيء آخر، ماذا لديك لتخبريني به؟".

قالت ماري هامسة: "حسناً... هل تعلم بأمر كولن؟".

أدار رأسه لينظر إليها وسألها: "ماذا تعرفين عنه؟".

أجابت ماري: "إننى قد رأيته. كنت أتحدث معه كل يوم هذا الأسبوع. أرادنى أن أجيء. ويقول إننى أساعده أن ينسى أمر المرض والموت،"

نظر ديكون فى ارتياح لحظة ما خمدت المفاجأة من وجهه المستدير. وهتف وقال: "إننى مسرور لذلك، أنا حقاً مسرور جداً. ذلك يجعلنى أكثر ليئلاً. أعلم أننى لا يجب أن أتحدث عنه وأنا لا أحب إخفاء الأشياء".

فقالت ماري: "ألا تحب إخفاء أمر الحقيقة؟".

أجاب ليكون: "أنا لن أتحدث عنها أبدًا، لكنني قلت لأمي، قلت لها — أمي، إن لدى سرًا أحتفظ به. وهو ليس سيئًا وأنت تعلمين هذا، إنه ليس أسوأ من إخفاء أماكن أعشاش الطيور، أنت لا تمانعين في هذا، أليس كذلك؟".

كانت ماري تحب دائمًا أن تسمع عن أمه. فسألته وهي لا تخشى إطلاقًا مما ستسمع: "وماذا قالت لك؟".

ابتسم ليكون بطريقة معينة حلوة. وأجاب: "ما قالتها، كعادتها، فركت رأسي وضحكت وقالت: "إيه، أيها الفتى يمكنك أن تحتفظ بالأسرار التي تحبها. لقد عرفتك اثني عشر عامًا".

فسألته ماري: "وكيف عرفت أمر كولن؟".

"كل الناس يعلمون أمر السيد كرافن ويعلمون أن هناك فتى يبدو أنه كسيح، ويعلمون أن السيد كرافن لا يحب أن يحدثه أحد عنه. الناس جميعًا آسفون لأجل السيد كرافن لأن السيدة كرافن كانت سيدة شابة جميلة وكانا مولعين ببعضهما البعض. ودائمًا ما تتوقف السيدة ميدلوك عند كوخنا أثناء زهابها إلى ثويت ولا مانع لديها أن تحدث أمي أمامنا نحن الأطفال، لأنها تعلم أننا قد ربينا على الوفاء...

كيف اكتشفت أمره؟ كانت مارثا في ضيق المرة الأخيرة التي أتت فيها إلى البيت. وقالت إنها سمعته مغتاطًا وكان يسأل أسئلة ولم تكن تعرف ماذا تقول".

قصت له ماري ما حدث منتصف الليل عن أصوات الريح التي أيقظتها والأصوات الضعيفة البعيدة لصوت المشتكى ذلك الذي قادها أسفل الطرقات المظلمة ومعها شمعتها وانتهت بافتتاحها باب الغرفة ذات الإضاءة الخافتة وسرير كرافن ذي الأعمدة الأربعة في الزاوية. وعندما وصفت ذلك الوجه العاجي الأبيض والعيون السوداء المحددة الغريبة حينها هز ليكون رأسه.

وقال: "إنهما يشبهان عيني أمه تمامًا، إلا أن عينيها كانتا مبتسمتين دائمًا. يقولون إن السيد كرافن كان لا يتحمل أن يراه متيقظًا وذلك لأن عينيّه تشبهان تمامًا عيني أمه وهما الآن مختلفان في وجهه الضعيف البائس".
همست ماري: "هل تظن أنه يريد موته؟".

"لا بل إنه يتمنى لو لم يولد. هكذا تقول أمي وهذا أسوأ شيء في الحياة يمكن أن يحدث لطفل. فكما أنهم ليسوا مرغوبًا بهم فلن ينمو ولن يزهرُوا أبدًا. لقد اشترى السيد كرافن كل ما يمكن أن يشتري بالمال من أجل الفتى المسكين لكن يود أن ينسى أنه على ظهر الأرض. لسبب واحد، أنه يخشى أن ينظر إليه يومًا ويجد أنه أحذب".

قالت ماري: "حتى كولن نفسه يخشى من هذا وأن ظهره لن ينتصب، ويقول إنه دائم التفكير فإن أصابه يومًا نتوء فسوف يجن ويصرخ حتى الموت. لا يجب أن يظل راقداً يفكر في أشياء كهذه. لا يمكن لفتى أن يتحسن إذا كان فكره في هذا النوع من الأشياء؟".

كان الثعلب يرقد على العشب بالقرب منه ، متطلعًا أن يربته الآن أو لاحقًا ، وانحنى ليكون وفرك رقبتة برقة وأخذته التفكير في صمت لدقائق . وعمًا قريب رفع رأسه وشاهد الحديقة .

وقال: "متى كانت أول مرة ندخل فيها هنا، كان كل شيء فيها رماديًا . لكن انظري حولك الآن وأخبريني ألا يوجد اختلاف " .

نظرت ماري حولها وحبست أنفاسها قليلاً . وصاحت: "لماذا ! فالجدران الرمادية تتغير كما لو كانت السحب الخضراء تزحف فوقها . تمامًا مثل حجاب الشاش الأخضر " .

قال ليكون: "أها، وستكون أكثر وأكثر اخضرارًا حتى يختفى اللون الرمادي . هل يمكنك أن تخمّني فيما كنت أفكر؟"

قالت ماري بتحمس "أعلم أنه كان شيئًا لطيفًا، وأعتقد أنه يخص كولن:"

"كنت أفكر لو أنه خرج إلى هنا فلن يراقب النتوءات التي تكبر على ظهره بل سيراقبُ البراعم تفرُّ على شجيرات الورد،" أوضح ذلك ليكون: "وسوف يصبح أكثر صحة، كنت أتساءل إذا كنا نستطيع أن نجلب له المرح بأن يخرج إلى هنا ويرقد تحت الأشجار في عربته " .

قالت ماري : "أنا نفسي كنت أتساءل ولقد كنت أفكر في ذلك غالبية الوقت ولقد تحدثت إليه، وساءلت نفسي إن كان يستطيع أن يحفظ سرًا وتساءلت أيضًا إن كنا نستطيع أن نحضره إلى هنا دون أن يراه أحد . أعتقد أنه يمكنك أن تدفع عربته . قال الطبيب لابد له من الهواء النقي المتجدد

وإن أراد أن تأخذه للخارج فلن يجرؤ أحد أن يعصيه . هو لن يخرج بسبب الناس الآخرين وربما سيكونون مسرورين لو أنه خرج معنا . يمكن أن يأمر البستانيون أن يبتعدوا وعليه فلن يكتشف أحد الأمر". كان سيكون يفكر بإمعان حتى إنه خدش ظهر كابتن.

وقال: "سوف يكون مفيداً له، إننى أؤكد ذلك"، لن نفكر أبداً فى أنه لم يكن ليولد. نحن لابد أن نكون طفلين يراقبان نمو حديقة ، وسيكون كذلك هو الآخر. فتیان وفتاة صغيرة يشهدون موسم الربيع. أؤكد أن ذلك سيكون أفضل من علاج الطبيب.

قالت مارى: "لقد ظل راقداً بحجرته طويلاً ودائم الخوف من ظهره، وهو ما جعله مريباً غريب الأطوار، إنه يعلم أشياء كثيرة نافعة من الكتب لكنه لم يعرف شيئاً آخر . يَقُولُ إنه كَانَ مريضاً جداً لدرجة أنه لا يلاحظ الأشياء وَيَكْرَهُ الخروجَ وَيَكْرَهُ الحداثقَ والبستانيين. لكن يحب أن يسمع عن هذه الحديقة لأنها مختبئة. أنا لم أجري أن أخبره الكثير ، لكنه أراد أن يراها".

قال سيكون: "بالتأكيد سوف نأتى به إلى هنا فى وقت ما ، إننى أستطيع دفع عربته بقدر كاف. هل لاحظت كيف كان أبو الحناء وصاحبه يَعْمَلانِ على حين نَحْنُ نَجْلِسُ هنا؟ انظرى إليه وهو جاثم على غصنه، أتساءل أين أفضل مكان لوضع ذلك الغصن الذى ناله بمنقاره".

صفر إحدى صفارات النداء الخفيفة وأدار أبو الحناء رأسه ونظر إليه متسائلاً، وهو مازال ممسكاً بغصنه فى منقاره. تحدث إليه ليكون كما فعل وذرستاف، لكن نغمة سيكون كانت نوعاً من النصيحة الودية.

وقال: "أين لك أن تضعها، سيكون كل شيء على ما يرام. أنت عرفت كيف تبني لك عشاً من قبل أن تخرج من البيضة. شيء متواصل معك، يا فتى. لا يوجد وقت لتضييعه".

قالت ماري وهي تضحك في ابتهاج: "أوه، أحب أن أسمعك تحدثه ! إن بن وذرستاف يوبخه ويلهو به، وهو يحجل حوله وكأنه فهم كل كلمة قيلت، وأعلم أنه يحبه. يقول بن وذرستاف إنه مغرور حتى إنه يفضل أن تلقى الأحجار عليه عن أن يلاحظها أحد".

ضحك ليكون أيضاً واستأنف الكلام: "أنت تعرف أننا لن نزعجك"، قالها لأبي الحناء.

"نحن أقرب أن نكون أنفسنا أشياء بريّة. نحن بناءة عُش أيضاً، بوركت. ولكن انتبه لا تشبنا".

ومع ذلك لم يجب أبو الحناء ، لأن منقاره كان منشغلاً، عرفت ماري —عندما طار بعيداً بغصينه إلى زاويته الخاصة من الحديقة— إن ظلام عينيه الندية اللامعة أفادت أنه لن يُخبر سرهم لأحد في العالم.

الفصل السادس عشر

قالت ماري: "لن أفعل!"

كان لديهم الكثير من العمل في ذلك الصباح، مما أخر ماري عن الرجوع للمنزل، وكانت أيضًا على عجلة لإنجاز عملها حتى أنها نسيت كولن تقريبًا حتى آخر لحظة.

قالت لمارثا: "أخبري كولن أنني لن أستطيع القدوم إليه الآن، أنا مشغولة جدًا في الحديقة".

تزايدت الرهبة على مارثا.

قالت: "آنسة ماري، يمكن أن يخرج عن شعوره عندما أخبره بذلك".

ولكن ماري لم تكن بهذا القدر من الرهبة من كولن مثل الآخرين، كما أنها لم تكن من النوع المنكر لذاته.

أجابتها قائلة: "لا أستطيع البقاء، فإن يكون ينتظرنى". ثم هرولت بعيدًا.

كانت الظهيرة أكثر جمالاً وأكثر انشغالاً أيضاً عن الصباح. كانت معظم الأعشاب الضارة قد أزيلت بالفعل من الحديقة ومعظم الزهور والأشجار كانت قد شذبت وأثيرت التربة حولها. كان سيكون قد أحضر مجرافاً لنفسه وكان قد علم ماري كيف تستخدم كل أدواتها، لدرجة أنه حتى ذلك الوقت كان واضحاً أنه بالرغم من أن ذلك المكان البري الجميل لم يرق لكونه "حديقة بستانى". غير أنها كانت برية ذات نباتات نامية قبل انتهاء فصل الربيع.

قال سيكون وهو يعمل بكل طاقته: "سيكون من فوق هناك أزهار تفاح وأزهار كرن، وسيكون هناك أشجار مزهرة من الخوخ والبرقوق بجانب الحائط، وستكون الحشائش مثل سجادة من الزهور".

كان الثعلب الصغير والغراب مشغولين وسعيدين مثلهما، وكان أبو الحناء ووليفه يطوفان رائحين وغادين مثل خطين دقيقين للبرق. أحياناً كان الغراب يرفرف بجناحيه الأسودين ويطلق بعيداً فوق قمم الأشجار فى المنتزه. كل مرة كان يرجع الغراب ويجثم قريباً من سيكون وينعب لعدة مرات، وكأنه كان يحكى مغامراته، ويكون يتحدث إليه كما كان يتحدث لطائر أبى الحناء. مرة كان يكون مشغولاً عن إجابته من البداية، فطار وحط على كتفيه وبلطف قرص أذنه بمنقاره الكبير. عندما أرادت ماري أن تستريح قليلاً، جلس سيكون معها تحت شجرة ثم أخرج زمماره من جيبه وعزف عليه لحنه العذب الصغير الغريب، فظهر سنجابان على الحائط وظلا ينظران ويستمعان.

قال سيكون وهو ينظر إليها أثناء حفرها: "لقد أصبحت قوية شيئاً ما،
بدأ شكلك يختلف، أكيد".

كانت ماري متوردة بسبب العمل العضلي والروح المعنوية المرتفعة.

قالت بابتهاج: "وزنى يزداد يوماً بعد يوم، على السيدة ميدلوك أن
تحضر إلي أثواباً أكبر حجماً. تقول مارثا إن شعري يزداد كثافة. فهو ليس
ناعماً ولا مفروداً".

غادروا الحديقة وكانت الشمس تشرع في الغروب وترسل أشعتها
ذهبية اللون لتتبدد تحت الأشجار.

قال سيكون: "سأكون بحال طيبة غداً، وسأحضر للعمل قبل شروق
الشمس".

قالت ماري: "وأنا أيضاً".

هرولت إلى المنزل بأسرع ما استطاعت قدماها أن تتحمل. كانت تريد
أن تحكى لكولن عن صغيرى الثعلب والغراب وعما فعله موسم الربيع.
كانت متأكدة من أنه سيحب سماع ذلك. لذلك لم تسعد عندما فتحت باب
غرفتها ووجدت مارثا واقفة فى انتظارها بوجهها الحزين.

سألتها: "ما الخطب؟ ماذا قال كولن عندما أخبرته أننى لم أستطع
المجيء".

قالت مارثا: "إيه ! أتمنى أن تذهبي. لقد كاد أن يدخل فى واحدة من نوبات غضبه. استهلك الكثير من الجهد لتهدئته. كان يراقب الساعة طوال الوقت".

أطبقت مارى شفيتها. لم تعد تألف مراعاة الآخرين بخلاف كولن ولم تر سبباً يجعل صبيّاً مريض المزاج يتدخل فى أكثر شىء أحبته. لم تعرف شيئاً عن الشفقة بأناس اعتادوا المرض والعصبية ولم يعلموا أنهم يمكنهم التحكم فى انفعالاتهم ولا يحتاجون لأن يكون الآخرون مرضى وعصبيين أيضاً. عندما كانت تصاب بالصداع فى الهند كانت تفعل كل ما بوسعها لترى أن كل الناس لديهم نفس الصداع أو شيئاً سيئاً مثله. أحست أنها كانت محقة، ولكنها الآن بالطبع شعرت أن كولن كان مخطئاً تماماً.

لم يكن على أريكته عندما دخلت الغرفة. كان نائماً على ظهره فى سريريه ولم يدر وجهه إليها. كانت بداية غير مطمئنة، شارت مارى إليه بطريقتها الحادة.

قالت: "لماذا لم تقم من سريرك؟"

أجابها دون أن ينظر إليها: "لقد قمت من سريرى عندما ظننت أنك قادمة، ثم أمرتهم أن يأخذونى لسريرى بعد الظهر. كان ظهري يؤلمنى ورأسى يؤلمنى وكنت متعباً. لماذا لم تأتى؟"

قالت مارى: "كنت أعمل فى الحديقة مع ديكون".

عبس وجه كولن ونظر إليها بشكل يوحى أنه تنازل. قال: "لن أدع هذا الولد يأتى هنا إذا ذهبت ومكثت معه بدلاً من أن تجلسى وتحدثى معى".

طارت مارى من الفرحة. كانت تستطيع أن تخفى فرحتها. فقط صارت فظة وعنيدة ولم تكثرث لما حدث.

أجابت بسرعة: "إذا طردت سيكون، فلن أدخل هذه الغرفة أبداً".

قال كولن: "ستضطرين إن أردت أنا".

قالت مارى: "لن أفعل!".

قال كولن: "سأجبرك، سوف يجرونك إلى هنا".

قالت مارى بعنف: "هل سيفعلون أيها الأمير الهندي! يمكنهم أن يجرونى إلى هنا لكنهم لا يستطيعون إجبارى على الكلام عندما يأتون بى إلى هنا. سأجلس وأحكم أسناني ولن أقول لك أى شىء بالمرة. أنا حتى لن أنظر إليك. سأظل محدة فى الأرض".

كانا ثنائياً لطيفاً حيث حدقا فى بعضهما. لو كانا طفلين من أولاد الشوارع لقفزا فى وجه بعضهما ودخلا فى معركة عنيفة. وبما أنهما كذلك، فقد فعلا ما يتبع هذه النظرات.

قال كولن: "أنت شىء أنانى؟".

قالت مارى: "وأنت ماذا؟ الأنايون دائماً يقولون ذلك. كل من لا يفعل ما يريدونه يكون أنانياً. أنت أنانى أكثر منى. أنت أكثر صبى أنانى رأيت فى حياتى".

قال بسرعة وحدة: "لست كذلك! لست أناًياً مثل يكون الطيب هذا. إنه يبقيك تلعبين فى التراب وهو يعلم أننى وحدى طوال الوقت. إنه أناًى، لو تحبين!"

برقت عينا مارى غضباً، وقالت: "إنه أفضل من أى صبى على الأرض. إنه - إنه مثل الملك".

يمكن أن يبدو ذلك سخيلاً لكنها لم تكثر.

قال كولن بسخرية شديدة: "ملك طيب! إنه ولد شعبى جاء من الكوخ من البراري!".

أجابت مارى بسرعة: "إنه أفضل من أمير هندى شعبى! أفضل ألف مرة!".

لأنها كانت الأفضل، بدأت تأخذ الموقف الأقوى. الحقيقة أنه لم يدخل فى عراك مع أحد من أقرانه فى حياته، وفوق كل شىء كان ذلك جيداً له، بالرغم من أنه لا هو ولا مارى كان لهما دراية بذلك. أدار وجهه على وسادته وأغلق عينه فانهمرت منها دمة كبيرة وجرت على خده. بدأ يشعر بالشفقة والأسف على نفسه - ليس على أى شخص آخر.

قال: "لست أناًياً مثلك، لأننى دائماً مريض، وأنا متأكد من الورم الذى سأحمله على ظهري، وبجانب ذلك سأموت".

جادلته مارى بلا تعاطف وقالت: "لست كذلك،"

فتح عينيه واملأهما شعور بالنقمة. لم يسمع كلامًا قيل له مثل ذلك من قبل. أصبح فجأة غاضبًا ومسرورًا، إن شعر أحد بذلك فى وقت واحد. صاح قائلًا: "لست كذلك؟ أنا سأموت! تعلمين أننى سأموت! الجميع يقولون ذلك".

قالت مارى بفضاظة: "لا أصدق ذلك! تقول ذلك فقط لتكتسب عطف الآخرين. أو من أنك تتباهى بذلك. لا أصدق ذلك! لو كنت ولدًا طيبًا كان يمكن لذلك أن يكون صحيحًا! لكنك معقد أكثر من اللازم".

بالرغم من ظهره المريض، جلس كولن بشكل صحيح تمامًا. أمسك وسادته وقذفها فى وجهها صارخًا: "أخرجى من الغرفة!". لم يكن قويًا بدرجة تكفى لتصل إليها، فقط وقعت الوسادة تحت قدميها، لكن وجه مارى بدا مطبقًا مثل كسرة البندق. قالت: "سأذهب، لكننى لن أرجع ثانية".

سارت نحو الباب وعندما وصلت إليه استدارت وقالت: "كنت أنتوى إخبارك عن كل أنواع الأشياء الجميلة، أحضر ليكون ثعلبه وغرابه وكنت سأخبرك بكل شىء، الآن لن أقول لك أى شىء".

خرجت من الغرفة وأغلقت الباب خلفها. وهناك ذهلت عندما رأت الممرضة المتدربة واقفة وكأنها كانت تتنصت، وزاد من دهشتها أنها كانت تضحك. كانت فتاة ضخمة وأنيقة لكنها لم تبدُ كمترربة بالمرّة. لأنها لم تكن

تتحمل المرضى وكانت دائماً تخلق الأعذار لتترك كولن لمارثا أو لأي شخص آخر يحل محلها. لم تكن ماري تحبها قط، ببساطة وقفت وحدقت فيها وهي تقهقه خلف منديلها.

سألتها: "ما يضحكك؟".

قالت المريضة: "أضحك عليكما أيها الصغيران، هذا أفضل شيء يمكن أن يحدث لطفل مريض مدلل وهو أن يجد أحداً يقف أمامه بنفس طريقته". ثم ضحكت خلف منديلها ثانية. "لو كان لديه أخت مشاكسة تتعارك معه لكان ذلك وسيلة إنقاذه".

"هل سيموت؟"

"قالت المريضة: "لا أدري ولا يهمني، الهستيريا والانفعال هما نصف ما يوجعه".

سألت ماري "ماذا تعنى هستيريا؟".

ستجدينها لو وضعته في نوبة غضب بعد ذلك- ولكنك بمعدل ما أعطيته شيئاً يصل به للهستيريا، وأنا مسرورة من ذلك".

رجعت ماري إلى غرفتها وقد تلاشى شعورها الذي جاءت به من الحديقة. كانت غاضبة ولديها شعور بخيبة الأمل ولم تشعر بأي أسف تجاه كولن. كانت تتطلع إلى إخباره أشياء كثيرة عظيمة، وكانت تريد المحاولة لتقرر هل ستكون الأمور على ما يرام إن وثقت به وأودعته الأسرار. كانت قد بدأت تفكر في إمكانية حدوث ذلك، أما الآن فقد غيرت رأيها كلياً. فلن

تخبره أبداً ويمكنه المكوث بحجرته ولا ينال أى قسط من الهواء المنعش
وليمت إن أراد!.

سيخدمه ذلك فعلاً! شعرت بجموذة شديدة جداً لمدة دقائق، نسيت
أمر يكون تقريباً والستار الأخضر الذى يحبو حول العالم والريح الناعمة
التي تهب من البرارى.

كانت مارثا فى انتظارها فى ذلك الوقت، وقد تبدل القلق على وجهها
بالفضول والاهتمام. كان هناك صندوق خشبى على الطاولة وقد أزيح
غطاؤه، كان الصندوق مليئاً برزم مرتبة. فقالت مارثا: "لقد أرسله لك السيد
كرافن، ويبدو وكأن به ألبوم صور".

حينها تذكرت مارى ما سألها عنه فى ذاك اليوم الذى ذهبت إليه فى
حجرته. "هل تريدن أى شىء _ عرائس - لعب - كتب؟" ثم فتحت الرزم
متسائلة هل أرسل عروسةً وتتعجب ماذا ستفعل بها إن كان قد أرسلها.
لكنه لم يرسل عروسة. بل العديد من الكتب المتحفة كتلك التى يقتنيها كولن،
اثنتان منها عن البستنة ممثلتان بالصور. واثنان أو ثلاثة ألعاب وكان معها
أيضاً منضدة كتابة جميلة صغيرة عليها علامة ذهبية لأحرف أولى وقلم
ومحبرة ذهبية.

كُل شىء كَانَ لطيفاً جداً حتى بدأ السرور على وجهها وخرج الغضب
من رأسها. مَا تَوَقَّعَتْ أَنْ يَتَذَكَّرَهَا مطلقاً وقلبها الصغير الصلب بدا دافئاً جداً.
قالت: "أستطيع أن أكتب أفضل من أن أطبع، وأول ما سأكتبه بهذا القلم سيكون
رسالة أخبره فيها أننى قد التزمت كثيراً".

لو كانت الصداقة كما هي مع كولن لكانت ركضت في الحال لتريه الهدايا. ولربما كانوا سيلقون نظرة على الصور ويقرؤون قليلاً في كتب البستنة، ولربما حاولوا اللعب باللعب. وكان سيحظى باستمتاع كبير لم يحظ به من قبل ولو مرة. ألم يفكر ولو لمرة أنه سيموت ولم يضع يده على عموده الفقري ليرى إذا ما ظهر به نتوء. له طريقته لعمل ذلك، تلك التي لم تتحملها. أعطاهما ذلك شعوراً بالانزعاج والخوف؛ لأنه هو نفسه يبدو خائفاً دائماً. لأنه قال إذا وجد يوماً نتوء صغيراً بظهره فسيعلم أن حديثه بدأت في النمو. الشيء الذي سمع السيدة ميدلوك تهمس به إلى المريضة أعطاه تلك الفكرة وظل يعتقد سرّاً إلى أن ثبت تماماً في عقله. قالت السيدة ميدلوك إن الانحناء بدأت تظهر في ظهر أبيه عندما كان صغيراً. ذلك الذي لم يخبر أحداً به إلا ماري. وأن أغلب "نوبات غضبه" — كما يسمونها — نشأت من الخوف الهستيرى الداخلى. كانت آسفة لأجله حالما أخبرها بذلك. قالت لنفسها: "دائماً ما يبدأ التفكير في هذا عندما يكون غاضباً أو متعباً، ولقد كان غاضباً اليوم إذن ربما — ظل يفكر بهذا طيلة الظهيرة". ظلت واقفة بلا حراك ناظرة إلى السجادة وهي تفكر. ثم ترددت، وعقدت حاجبيها قائلة: "لقد قلت إننى لن أرجع ثانية — لكن ربما — فقط ربما، أنا سأذهب وأرى إن كان يريدني — فى الصباح. ربما سيحاول أن يلقي وسادته عليّ ثانية، لكن — أعتقد — سوف أذهب".

الفصل السابع عشر

نوبة غضب

كانت قد استيقظت مبكرًا جدًا فى الصباح وعملت يجد فى الحديقة حتى أصبحت مجعدة وغلبها النعاس، لذلك بمجرد أن أحضرت مارثا عشاءها وتناولته كانت سعيدة بخلودها إلى النوم. عندما وضعت رأسها على وسادتها تمتمت لنفسها قائلة: " سأخرج قبل الإفطار وأعمل مع ليكون ثم بعد ذلك - أعتقد - سأذهب لأراه".

كانت تظن أن الوقت منتصف الليل عندما أيقظها مثل ذلك الصوت المفزع الذى جعلها تقفز من سريرها بسرعة. ماذا كان ذلك؟ - ماذا كان ذلك؟ فى اللحظة التالية أدركت تمامًا أنها عرفتة. كانت الأبواب تفتح وتغلق وصوت الأقدام تهرول فى الردهات وشخص ما يبكى ويصرخ فى نفس الوقت، يصرخ ويبكى بطريقة فظيعة.

قالت: "إنه كولن، انتابته واحدة من نوبات غضبه التى أسمتها
المرضة هستيريا. تبدو مرعبة فى سمعى؟".

حينما كانت تستمع إلى صراخه ونشيجه لم تتعجب من هلع الناس
ومجاراتهم له بالإضافة إلى سماع صوته.

وضعت يديها على أذنيها وأحست بالتعب والارتجاف.

ظلت تقول: "لا أعرف ماذا أفعل. لا أعرف ماذا أفعل. لا أستطيع تحمل
ذلك".

تساءلت إذا كان سيتوقف لو تجرأت وذهبت إليه، ولكنها تذكرت كيف
طردها من غرفته وظنت أن رؤيتها ربما تحوله للأسوأ. حتى عندما كانت
تحكم ضغط يديها على أذنيها كانت لا تستطيع منع هذه الأصوات الفظيعة.
كرهت هذه الأصوات وأصيبت بالذعر منها حتى إنها فجأة ودت لو دخلت
نفسها فى نوبة غضب وأرعبته كما يرعبها. لم تعد على تعصب مزاج أحد
غيرها. تركت يديها من على أذنيها وقفزت وسحقت بقدمها.

صاحت عاليًا: "لا بد أن يوقف. لا بد أن يوقفه أحد. لا بد أن يضربه
أحد". ثم سمعت صوت أقدام تهوول فى الردهة ثم فتح بابها ودخلت
المرضة. لم تكن تضحك الآن بأى شكل. إنها الآن تبدو شاحبة تمامًا.

قالت بسرعة كبيرة: "لقد دخل فى نوبة غضب هستيرية، سوف يؤذى
نفسه. لا يستطيع أحد أن يفعل أى شىء معه. تعالى وحاولى كطفل طيب.
إنه يحبك".

قالت ماري وهي تفرك قدمها بانفعال: "لقد طردني من غرفته هذا الصباح". هذه الفكرة نفسها أسعدت الممرضة. الحقيقة أنها كانت تخشى أن ترى ماري تصرخ وتخبي رأسها تحت دولاب الملابس.

قالت: "هذا صحيح، أنت في الحالة العصبية السليمة. اذهبي ووبخيه. امنحيه شيئاً جديداً يفكر فيه. اذهبي يا طفلي بأسرع ما يمكنك".

لم تمكث ماري طويلاً حين أدركت أن الأمر مضحك مثلما أنه مخيف، المضحك أن الكبار كانوا خائفين وجاؤوا لفتاة صغيرة أحسوا أنها سيئة مثل كولن نفسه. هرولت بامتداد الردهة وكلما اقتربت من الصراخ ازداد غضبها. أحست أنها غاضبة تماماً وقت وصولها إلى الباب. صفعت الباب بقوة وفتحته ثم هرولت عبر الغرفة إلى السرير المربع.

كانت أن تصرخ: "توقف! توقف! فأنا أكرهك! الجميع يكرهونك! أتمنى لو هرع الجميع خارج المنزل وتركوك تصرخ مع نفسك حتى الموت! لن تستغرق إلا دقيقة، وأتمنى ذلك!".

لم يكن لأى طفل رحيم أن يقول ذلك أو يفكر فيه. ولكنه حدث حتى إن الصدمة من سماعه كانت أفضل شيء ممكن لهذا الصبي الهستيرى الذى لم يجزؤ أحد أن يكبحه أو يعارضه.

كان يرقد على وجهه يضرب وسادته بيديه وكان بالفعل يقفز من مكانه. كان وجهه يبدو مخيفاً، أبيض وأحمر ومنتفخاً، وكان يلهث ويكتم صوته، ولكن ماري الصغيرة المتوحشة لم تكثرث ولو لذرة.

قالت: "إن صرختَ صرخة واحدة أخرى، فسأصرخ أيضاً، وأستطيع الصراخ بصوت أعلى منك وسوف أرفعك، سوف أرفعك!" .

بالفعل توقف عن الصراخ لأنها أفزعته كذلك. صراخها الذى وصله أصابه بالذعر. كانت الدموع تنهمر على وجهه وتتناثر عليه .

قال وهو يلهث وينشج: "لا أستطيع التوقف! لا أستطيع - لا أستطيع!" .

صاحت ماري: "بل تستطيع، نصف ما يمرضك هو الهستيريا والغضب - فقط الهستيريا - الهستيريا - الهستيريا!" وكانت تفرك بقدمها فى كل مرة تقولها.

قال كولن وهو يلهث: "تحسست الحدة - تحسستها، أعلم أنني سوف - سوف أحمل حدة على ظهري ثم أموت"، وبدأ يتلوى مرة أخرى واستدار على وجهه وظل ينشج وينتحب لكنه لم يصرخ.

عارضته ماري بقوة: "لم تتحسس حدة، كان ذلك فقط حدة هستيرية. الهستيريا تؤدي إلى الحداث. لا يوجد شيء بشأن ظهرك البغيض - لا شيء سوى الهستيريا! استدر ودعنى أنظر إليها".

أعجبته كلمة "هستيريا" وأحست بشكل ما أن للكلمة تأثيراً عليه. ربما كان هو مثلها ولم يسمعها من قبل.

قالت أمرة: "يا ممرضة، تعالى هنا وأرينى ظهره الآن".

كانت الممرضة والسيدة ميدلوك ومارثا يقفن مجتمعات يحملقن فيها،
وأفواههن نصف مفتوحة. ثلاثتهن كن يشهقن خوفاً لمرات عديدة. تقدمت
الممرضة وهى شبه خائفة. كان كولن يلهث بتنهدات متقطعة.

قالت مترددة بصوت خافت: "ربما لن يدعى".

سمعها كولن، وزفر وسط بكائه قائلاً: "أرى- أريها! وسوف ترى
إذن!".

عندما تعرى ظهره، كان نحيلاً وهزيلاً. تستطيع أن تعد كل ضلع وكل
مفصل من العمود الفقري، مع أن الأنسة ماري لم تعدهم عندما انحنت
وفحصتهم بوجه كثيب وقاس. كانت تبدو فظة وكلاسيكية حتى إن الممرضة
أدارت وجهها حتى تدارى اهتزاز فمها. مرت دقيقة من الصمت، حتى كولن
حاول حبس أنفاسه على حين كانت ماري تتفحص أعلى عموده الفقري
وأسفله، بتركيز كما لو كانت طبيب لندن الشهير.

قالت فى النهاية: "لا يوجد ولا حذبة واحدة! ولا أكبر من دبوس- فيما
عدا فقرات العمود الفقري، ويمكنك أن تتحسسهم فقط لأنك نحيف. أنا
نفسى لدى فقرات فى عمودى الفقري، ومن المعتاد أن تظهر مثل ما عندك،
حتى بدأ جسمى يسمن، ولست سمينة بشكل يخفيها بعد. لا يوجد حذبة
أكبر من دبوس. لو قلت بوجودها مرة أخرى فسوف أسخر منك".

ما عرف أحد، سوى كولن نفسه، كم كان تأثير هذه الكلمات
الطفولية عليه. لو كان وجد أى أحد يتحدث معه عن هذه الأشياء المروعة

الخفية .. لو كان تجراً من قبل أن يوجه أسئلة .. لو كان لديه صحبة من الأطفال ولم يرقد على ظهره فى منزل كبير ومغلق، يتنفس هواء مثقلاً بالخوف من الناس الذين كان معظمهم جاهلاً ومتعباً منه، لكان أدرك أن معظم مخاوفه وأمراضه اختلقها من نفسه. لكنه ظل راقداً يفكر فى نفسه وفى آلامه وعقله لساعات وأيام وشهور وسنين. والآن جاءت هذه الفتاة الغاضبة بلا تعاطف وأصرت بعناد على أنه لم يكن مريضاً كما كان يظن، كما أنه شعر بالفعل أنها ربما تقول الحقيقة.

قالت المريضة: "لا أدري أنه ظن أن به حدة فى ظهره. ظهره ضعيف لأنه لا يحاول أن يجلس. كنت أقول له إنه لا يوجد أى حدة فى ظهره".

تجرع كولن وأدار وجهه ناظراً إليها، وقال فى حزن: "هل كنت ستقولين؟".

"نعم، سيدى".

قالت ماري: "هناك!" وتجرعت أيضاً.

استدار كولن على وجهه مرة أخرى وأنفاسه منكسرة بشهيقه الطويل، والتي أخدمت عاصفة نشيجه، ظل كذلك لدقيقة، برغم الدموع الغزيرة التي انهمرت على وجهه وبللت وسادته. فى الحقيقة كانت الدموع تعنى أن راحة كبيرة مثيرة للفضول انتابته. ثم استدار ونظر إلى المريضة مرة أخرى وتحدث إليها بطريقة تبعد كل البعد عن طريقة أمراء الهند.

قال: "هل تعتقدين أننى - يمكننى - أن أعيش حتى أكبر؟".

لم تكن الممرضة ماهرة ولا طيبة القلب، لكنها ردت كلمة طيب لندى.
"ربما تعيش إذا فعلت ما يطلب منك ولم تفسح الطريق لغضبك، وإذا مكثت أكبر مدة ممكنة فى الهواء الطلق".

انتهت نوبة الغضب لدى كولن، فضعف جسمه وأنهكه البكاء حتى جعله ذلك يبدو لطيفاً. رفع يده قليلاً تجاه مارى فهدأ غضبها واتجهت بذراعيها نحوه، حتى بدا نوعاً من الاختلاق.

قال: "سوف - سوف أخرج معك يا مارى. لن أكره الهواء النقي عندما نجد ..". وتذكر فتوقف عن أن يكمل ويقول: "عندما نجد الحديقة الخفية".

ثم قال: "أحب أن أخرج معك إذ سيأتى ليكون ويدفع كرسيى. أريد أيضاً أن أرى يكون والثعلب والغراب".

أعادت الممرضة ترتيب السرير وهزت الوسائد وفردتها. ثم صنعت لكولن كوباً من شاي لحم البقر المجفف^(*) ولمارى كوباً آخر، حيث كانت مسرورة جداً بذلك الكوب بعد انفعالها الشديد. ذهبت السيدة ميدلوك ومارثا مسرورتين، وبعد أن أصبح كل شىء مرتباً وهادئاً بدت الممرضة وكأنها تريد أن تذهب هى الأخرى. كانت فتاة سليمة الجسم وكانت مستاءة

(*) beef tea: مشروب ساخن مصنوع من الماء، الذى غلى فيه اللحم البقرى المجفف .

من إقلاق نومها، فتتأهت فاتحة فمها وهى تنظر إلى مارى، وقد وضعت مسند الأقدام قريباً من السرير وأمسكت بيد كولن.

قالت: "يجب أن تعودى وتخلدى للنوم، سوف ينام بعد برهة إن لم يكن منزعجاً. وأنا نفسى سأنام فى الغرفة المجاورة".

همست مارى لكولن: "هل تريدننى أن أغنى لك الأغنية التى تعلمتها من مربيتى؟".

جذبت يداها يديها بلطف وأدار عينيه المتعبتين إليها بجاذبية.

قال: "نعم، إنها أغنية رقيقة جداً. وسوف أنام فى دقيقة".

قالت مارى للممرضة المتتائبة: "سأجلس معه حتى ينام. يمكنك الذهاب لو تحبين".

قالت الممرضة بشكل متردد: "حسنًا، إن لم يخلد للنوم فى نصف ساعة فلا بد أن تنادينى".

قالت مارى: "حسنًا جداً".

خرجت الممرضة من الغرفة سريعاً وبمجرد خروجها جذب كولن يد مارى مرة ثانية.

قال: "كدت أن أقولها، لكنى توقفت فى الوقت المناسب. لا أريد أن أتكلم وسأنام، لكنك قلت إن لديك الكثير لتقولينه لى، هل — هل تعتقدين أنك توصلت لأى شىء يدلنا على الطريق المؤدى للحديقة السرية؟".

نظرت ماري لوجهه الصغير المسكين المتعب وعينيه المنتفختين ورق قلبها.

أجابته: "نعم، أظنني وجدت. وإذا خلدت للنوم فسأخبرك غداً". واهتزت يداه شيئاً.

قال: "إيه يا ماري! إيه يا ماري! لو تمكنت من الدخول إليها، عليّ أن أعيش حتى أكبر! هل تظنين ذلك بدلاً من غناء أغنية المربية - يمكنك فقط إخباري كما فعلت في اليوم الأول كيف تتخيلينها من الداخل. بالتأكيد سيجعلني ذلك أخلد إلى النوم".

أجابت ماري: "نعم، أغمض عينيك".

أغمض عينيه وتمدد تماماً، أمسكت بيديه وبدأت تتحدث ببطء شديد وبصوت خافت جداً.

"أظنها تركت وحدها طويلاً - حتى تحولت كلها إلى كتلة متشابكة جميلة. أعتقد أن الزهور تسلفت وتسلفت وتسلفت حتى تدلت من فروع الأشجار والحوائط وزحفت على الأرض - تقريباً مثل ضباب رمادي غريب. بعض هذه الزهور مات .. ولكن معظمها ظل على قيد الحياة، وعندما يأتي الصيف يكون هناك ستائر ونافورات من الزهور."

أظن أن الأرض مليئة بأزهار النرجس البري وأزهار الثلج والزنابق والسوسن وهي تشق طريقها للخروج من الظلام. والآن بدأ الربيع - ربما - ربما -

الدندنة الرقيقة فى صوتها جعلته أكثر سكوتاً ، رأت ذلك واستمرت.

"ربما تخرج من بين الحشائش - ربما هناك عناقيد من الزعفران
الإرجواني والأخرى الذهبية- حتى الآن. ربما بدأت الأوراق تخرج
وتنسدل- وربما يختلف اللون الرمادى ويزحف حجاب من الشاش
الأخضر - وينتشر- فوق كل شيء. وتأتى الطيور لتتنظر إليها - لأنها -
ساكنة جداً وأمنة. وربما - ربما - ربما -".

حقيقة برقة وببطء، "ربما وجد أبو الحناء وليفاً - ويبنى الآن عشاً.

ثم غرق كولن فى النوم.

الفصل الثامن عشر

"لا يجب أن تضيعى الوقت"

بالطبع لم تستيقظ مارى باكراً فى الصباح- فقد تأخرت فى النوم لأنها أنهكت، وحينما جلبت لها مارثا إفطارها، أخبرتها أنه مع أن كولن كان هادئاً تماماً إلا إنه كان مريضاً ومحموماً كما هو الحال معه دائماً، بعدما ينهك نفسه فى نوبة البكاء. تناولت مارى إفطارها ببطء على حين كانت تنصت للحديث.

قالت مارثا: "يقول إنه يتمنى بعد إذذك أن تذهبى وترىه قريباً قدر الإمكان، إنه شىء غريب، يا للغرام الذى حمله إليك. هذا ما وهبته الليلة الماضية — أليس كذلك؟ ما كان أحد غيرك ليخبرنى أن يفعل ذلك. نعم! مسكين هذا الفتى! لقد فسد حاله حتى إن تحفظه لا ينقذه. تقول أُمى إن أسوأ أمرين يمكن أن يحدثا لطفل هما ألا يكون له طريق خاص به مطلقاً - أو أن يكون دائماً له طريق واحد".

لا تعرف أمى أيهما أسوأ. كنت أنت ألطف مزاجاً، أيضاً. لكنه يقول لى عندما دخلت حجرته، "من فضلك أخبرى الأنسة مارى أن تتفضل بالحضور وتحدث معى؟ فكرى فى قوله تتفضل! هل ستذهبين سيدتى؟".

قالت مارى: "سأجربى لأرى دىكون أولاً، لا، سأذهب لأرى كولن أولاً وأخبره - أعلم بما سأخبره". وبدأ عليها إحياء مفاجئ.

ارتدت قبعتها حالما وضلت حجرة كولن وقد بدا لبرهة خائب الأمل. كان فى فراشه. كان وجهه أبيض بشكل مثير للشفقة وهالات سوداء تحيط بعينيه. قال لها: "أنا مسرور بمجيئك، رأسى يؤلنى بل وجسدى كله يؤلنى لأننى متعب جداً. هل ستذهبين إلى أى مكان؟". نهبت مارى نحوه واتكأت قبالة سريريه.

. وقالت: "لن أمكث طويلاً، سأذهب إلى دىكون، لكننى سأعود. كولن، إنه شىء خاص بالحديقة".

. ابتهج وجهه بالكامل وعاوده اللون قليلاً. صاح كولن: "أحقاً"، لقد كنت أحلم بها طوال الليل. وسمعتك تقولين شيئاً عن اللون الرمادى الذى تحول كله إلى الأخضر، وحلمت أننى واقفب فى مكان تملؤه أوراق خضراء متناثرة. والطيور على الأعشاش فى كل مكان وهى تبدو مستريحة وساكنة. سأرقد وأظل أفكر بها حتى تعودين".

بعد خمس دقائق كانت مارى مع دىكون فى حديقتهما. كان معه الثعلب والغراب للمرة الثانية، لكن هذه المرة أحضر معه سنجابين لطيفين.

قال: "لقد جئت على ظهر فرس صغير هذا الصباح، اسمه جنب، إنه فتى جيد. لقد أحضرت هذين فى جيوبى. هذا أحدهما ويسمى "نت"، وهذا الآخر ويسمى "شل".

عندما قال "نت" وثب سنجاب على كتفه الأيمن، وعندما قال "شل" وثب الآخر على كتفه الأيسر.

عندما جلسا على الحشائش وكابتن يلف حول أقدامها، سوت يستمع بهيبة من على شجرة ونت وشل يتشتمان قريباً منهما، بدا ذلك لمارى أنه صعب عليها تحمل فراق تلك البهجة، ولكن عندما بدأت تروى قصتها تغيرت النظرة المرحّة على وجهه ليكون تدريجياً مما غير فكرها. رأت أنه شعر بالأسف تجاه كولن أكثر منها.

نظر إلى السماء ودار ببصره من حوله.

قال: "فقط استمعى لتلك الطيور، تبدو وكأنها تملأ العالم، تغرد وتعزف، انظرى إليها وهى تتواثب حولنا، وأصغى إليها وهى تنادى بعضها. عندما يأتى الربيع يبدو وكأن العالم كله ينادى. تنبسط أوراق الشجر فتستطيعين رؤيتها وأقول دائماً ينتشر العبير فى كل مكان".

أخذ شهيقاً بأنفه المرفوعة المسرورة، وقال: "وهذا الولد المسكين الراقد السجين لا يرى شيئاً حتى إنه صار يفكر فى أشياء تجعله يصرخ. إيه! يجب أن نخرجه إلى هنا- يجب أن نعطيه الفرصة ليشاهد ويستمتع ويستنشق الهواء ونعرضه لفترة طويلة للشمس الساطعة. ولا يجب أن نضيع وقتاً فى ذلك".

كان يكون عندما يهتم لأمر يتحدث بلهجة يوركشاير الثقيلة، رغم أنه فى الأوقات العادية يحاول أن يعدل منها حتى تفهمه مارى. لكنها أحببت لهجته المحلية وكانت تحاول نفسها أن تتعلم كيف تتحدث بها. لذلك تحدثت بها قليلاً الآن.

قالت: "نعم، هذا ما يجب علينا فعله، سأقول لك ماذا يجب أن نفعل أولاً". واصلت حديثها على حين ابتسم ليكون، لأنه كان مسروراً عندما حاولت الفتاة الصغيرة أن تقلد لهجة يوركشاير.

"لقد اشتاق لأن يراك. يريد أن يراك ويرى سوت وكابتن. عندما أنجع إلى المنزل وأحدثه سأطلب منه أن تأتوا لرؤيته فى الصباح. وأحضر هذه المخلوقات معك، ثم - وبعد فترة - عندما تزداد أوراق الشجر ويظهر برعم أو اثنان سنأتى به وأنت عليك أن تدفع كرسيه، سنحضره إلى هنا ونريه كل شيء".

عندما أنهت كلامها كانت فخورة بنفسها شيئاً ما. لم تكمل حديثاً طويلاً هكذا بلهجة يوركشاير من قبل وكان ذهنها حاضراً.

قال ليكون ضاحكاً: "يجب أن تتحدثى بلهجة يوركشاير هذه للسيد كولن، سيضحكه ذلك، وليس هناك ما هو أكثر فائدة للمرضى من الضحك. تقول أُمى إن ضحك نصف ساعة كل صباح كفيلاً بعلاج فتى من حمى التيفويد".

قالت مارى ضاحكة من نفسها: "سأحدثه بلهجة يوركشاير اليوم".

جاء الوقت على الحديقة لتصير فى النهار وفى الليل وكأن سحرة مروا خلالها ونشروا الجمال على أرضها والفروع والأغصان بصولجانها. كان من الصعب البعد عن هذه الحديقة، خاصة عندما تسلل نت على فستانها وتسلق شل على ساق شجرة التفاح التى يجلسون تحتها، حيث ظلا ينظران إليها بعيون متسائلة. لكنها عادت إلى المنزل، وعندما جلست قريباً من سرير كولن بدأ يتحسس الرائحة كما كان سيكون يفعل وإن لم تكن طريقته بخبرة كافية.

قال بفرحة عارمة: "تبدو رائحتك مثل رائحة الزهور والأشياء المنعشة. ما هذه الرائحة التى أشمها منك؟ إنها لطيفة ودافئة وعذبة فى نفس الوقت". قالت مارى: "إنها رائحة نسيم الحداثق. إنها جاءت من الجلوس على الحشائش تحت شجرة مع ديكون ومع كابتن وسوت ونت وشل. إنها رائحة موسم الربيع خارج المنزل تحت أشعة الشمس".

قالت ذلك بقدر ما استطاعت من التحرر. ولا تدرى كم تبدو لهجة يوركشاير متحررة إلا إذا سمعتها بنفسك. بدأ كولن يضحك.

قال: "ماذا تفعلين؟ لم أسمعك تتحدثين هكذا من قبل. يبدو ذلك مضحكاً".

قالت مارى مبتهجة بالنصر: "كنت فقط أستعرض لك بعضاً من لهجة يوركشاير، لا أستطيع التحدث بسلاسة مثل ديكون أو مارثا لكنك ترى أننى أستطيع مشابهتهما بعض الشيء. هل تستطيع فهم شىء من لهجة

يوركشاير عندما تسمعها؟ أم أنك من أبناء يوركشاير ، ولدت وتربت فيها؟
ألا تشعر بالخجل من وجهك؟".

ثم بدأت فى الضحك أيضاً وضحكا سوياً حتى إنهما لم يستطيعا
التوقف وتردد صدى صوتهما فى الغرفة مما جعل السيدة ميدلوك ترجع
من طريقها فى الردهة وتفتح الباب وتنظر إليهما فى دهشة.

تحدثت بلهجة يوركشاير المتحررة لأنه لم يكن أحد يسمعها وكانت
مذهولة جداً، قالت: "حسناً ، حسب كلامى، من كان ليسمع مثل ذلك ، من
على وجه الأرض كان ليتخيل ذلك".

كان من الحديث الكثير. بدا كولن وكأنه لم يسمع الكثير عن ليكون
وكابتن وسوت ونت وشل والفرس المسمى بجنب. كانت مارى تجرى فى
الحديقة مع ليكون لكى ترى جنباً. كان فرساً برياً صغيراً وأشعث، له
خصلات كثيفة متدلّية على عينيه، ووجه جميل، وأنف مخملى ممرغ فى
التراب. كان نحيفاً من عيشه على حشائش الغابة، لكنه كان صلباً وقوياً
كأن عضلات أقدامه مصنوعة من الحديد الصلب. كان قد رفع رأسه
وصهل برقة عندما رأى ليكون وهرول إليه ووضع رأسه بين كتفيه فتحدث
ليكون فى أذنيه فرد عليه جنب بصهيل متقطع خافت مع بعض النفخات
والنخرات. جعله ليكون يقدم لمارى حافره الأمامى ويقبلها على خدها بأنفه
وفكيه المخملين.

سألها كولن: "هل حقاً يفهم كل كلام ليكون؟".

أجابت ماري: "يبدو كذلك، يقول سيكون أى شيء يفهمك لو كنت صديقه فعلاً، لكنك يجب أن تكون صديقاً بالفعل".

اتكأ كولن هادئاً لبضع دقائق وبدأت عيناه الرماديتان تحملقان في الحائط، لكن ماري رأت أنه يفكر.

قال في النهاية: "أتمنى لو صادقت الأشياء، لكنني لست كذلك. لم يكن لدى صداقات مع أى شيء. ولا أستطيع تحمل الناس".

سألته ماري: "هل تستطيع تحملني؟"

أجاب: "نعم، أستطيع، إنه شيء مضحك، لكنني أحبك أيضاً".

قالت ماري: "قال بن ودرستاف إنني أشبهه، قال إنه يؤكد أن لديهما نفس الانفعال البغيض. أظنك تشبهه أيضاً. نحن الثلاثة متشابهون— أنا وأنت وبن ودرستاف. قال إنه لا يستطيع أحد النظر إلينا طويلاً وأننا من الفظاظة كما نبذو. لكنني لا أشعر أنني بنفس الفظاظة منذ أن رأينا أبا الحناء ويكون".

"هل تشعرين وكأنك كنت تكرهين الناس؟"

قالت ماري بلا أدنى تأثر: "نعم، كان من المفترض أن أمقتك لو كنت قابلتك قبل أن أرى أبا الحناء ويكون".

أخرج كولن يده النحيقة ولسها.

قال: "يا ماري، أتمنى لو أنني لم أقل ما قلته عن طرد ليكون. كنت أكرهك عندما قلت إنه مثل ملك وسخرت منك - لكن ربما هو كذلك".

اعترفت بصراحة: "حسنًا، كان من المضحك أن أقول ذلك، لأن أنفه مرفوعة وله قم عريض وملابسه مليئة بالرقع ويتحدث لهجة يوركشاير المتحررة، لكن - لكن لو جاء ملك إلى يوركشاير وعاش في البراري - لو كان هناك ملك في يوركشاير - أو من أنه كان سيتفهم معنى الكائنات الخضراء وكان سيساعدها على النمو وكان سيعرف كيف يتحدث إلى الكائنات البرية كما يفعل ليكون وكانوا سيعرفون أنه صديق بالتأكيد".

قال كولن: "لا يجب أن أضع اعتبارًا لنظرة ليكون إليّ، أريد أن أراه".

قالت ماري: "أنا سعيدة لأنك قلت ذلك، لأن - لأن -".

وفجأة جال بخاطرها أن الوقت حان لتخبره، كان كولن يعلم أن شيئًا جديدًا قادم إليه.

صرخ بتلهف: "لأن ماذا؟".

كانت ماري قلقة حتى إنها قامت من مقعدها واقتربت منه وأمسكت بكلتا يديه.

ناشدته قائلة: "هل يمكن أن أثق بك؟ لقد وثقت بديكون لأن الطيور تثق به. هل يمكنني أن أثق بك؟ بالتأكيد - بالتأكيد؟".

كان وجهها تملوه الهيبة لدرجة أنه أجابها هامساً: "نعم- نعم!".
"حسناً، سيأتى سيكون ليراك فى صباح الغد، وسيحضر حيواناته معه".

صاح كولن فرحاً: "أوه! أوه!".

واصلت ماري، ووجهها شبه شاحب من الهيبة، : "لكن هذا ليس كل شيء، البقية أفضل. يوجد باب للحديقة. وجدته. إنه تحت اللبلاّب المسدول على الحائط".

لو كان كولن صبيّاً صحيحاً وقويّاً لصاح "هوراي! هوراي! هوراي!".
لكنه كان من الضعف والهزال، مما جعل عينيه تتسعان وتتسعان وحبس أنفاسه.

ثم صرخ بشبه نشيج: "أوه يا ماري، هل سآراها؟ هل سآدخلها؟ هل سآعيش حتى أآدخلها؟".

ثم تشبث بيديها وجذبهما ناحيته.

قالت له بحدة وسخط: "بالطبع سآراها! بالطبع سآعيش حتى تآدخلها، لا تكن سآيفاً".

وكانت غير هستيرية وطبيعية وطفولية مما جعله يستعيد مشاعره الطيبة وبدأ يضحك من نفسه، ثم جلست ماري لدقائق بعد ذلك لا تصف له ما كانت تتخيل أن تكون الحديقة عليه ولكن ما هى عليه بالفعل، وقد نسى كولن آلامه ومتاعبه وظل يستمتع بآبتهاج.

قال فى النهاية: "إنها تمامًا مثلما تخيلتها، تبدو وكأنك كنت قد دخلتها بالفعل. قلت لك ذلك عندما أخبرتنى عنها فى البداية".

ترددت مارى لبرهة ثم تجرأت وقالت الحقيقة.

"كنت قد رأيتهـا- وكنت قد دخلتها، وجدت المفتاح ودخلت منذ أسابيع. لكننى ما كنت أجرؤ أن أخبرك- لم أتجرأ لأننى كنت خائفة ألا أثق بك- بالتأكيد".

الفصل التاسع عشر

"لقد أتى الربيع!"

بالطبع تم استدعاء دكتور كرافن هذا الصباح، بعد أن هاجمت كولن إحدى نوباته. فدائمًا ما كان يرسل إليه في الحال، عندما يحدث ذلك. وعند وصوله؛ دائمًا ما كان يجد صبيًا أبيض مرتجفًا راقدًا في فراشه، متجهماً وهستيرياً للغاية، مهبطاً للدخول في حالة تشنج لأقل كلمة. في الحقيقة؛ كان دكتور كرافن يرهب من صعوبات هذه الزيارات ويكرهها. في هذه المرة كان بعيداً عن ضيعة ميسلثويت حتى الظهيرة.

وعندما وصل سأل - بانفعال - السيدة ميدلوك "كيف حال الصبي؟".

وأضاف: "سوف يحطم أوعيته الدموية يوماً ما في إحدى هذه النوبات. فالصبي نصف مجنون، ومصاب بالهستيريا والانقياد وراء الأهواء".

أجابت السيدة ميدلوك "حسنا سيدى"، "إنك لن تصدق عينيك عندما تراه . فهذه الطفلة البسيطة، متجهةً الوجه، والتي لا تقل عنه سوء، قد فتنته. كيف فعلت ذلك، فلا تفسر له . يعلم اللورد أنها لا تلفت انتباه أحد، وبالكاد ما تسمع صوتها؛ لكنها فعلت ما لم يجرؤ أحدنا على فعله . حيث باغته ليلاً كالقطة الصغيرة، ودقت الأرض بقدميها، وأمرته أن يتوقف عن الصراخ ، يبدو أنها أفزعته بطريقة ما؛ لذا توقف فعلياً. هذا المساء، حسناً أن تأتى وترى بنفسك سيدى . فالأمر قد فاق التوقع".

كان المشهد الذى رآه دكتور كرافن، حينما دخل غرفة مريضه، حقاً مذهشاً له، فبمجرد أن فتحت السيدة ميدلوك الباب، سمع أصوات ضحك وثرثرة . حيث كان كولن جالساً معتدلاً على أريكته، مرتدياً عباءته، ناظرًا إلى صورة فى أحد كتب الحديقة، متحدثاً إلى الطفلة سيئة المظهر، التى أصبح من الصعب فى تلك اللحظة ، نعتها بالسيئة على الإطلاق؛ حيث كان وجهها متقدماً من شدة السعادة والمتعة.

كان كولن يقول إن "هذه المرتفعات الممتدة الزرقاء، والتى سنرى العديد منها". "تسمى ديل-فين - يامز".

"يقول ليكون إنها نبات العايق المزهرة التى كبرت وتضخمت"، صاحت مارى: "بالفعل هناك كتل موجودة".

حينئذ رأوا دكتور كرافن فتوقفوا. حيث كانت مارى هادئة تماماً، على حين بدا كولن عبوساً.

قال دكتور كرافن بانفعال طفيف- وهو الذى كان عصبياً جداً "أسفت لسماعى أنك كنت مريضاً بالأمس، يا بنى".

أجاب كولن كأمر: "أنا أفضل الآن، أفضل بكثير". سأخرج على مقعدى ليوم أو يومين إذا كان المناخ لطيفاً. أحتاج بعض الهواء المنعش".

جلس دكتور كرافن بجانبه، وجس نبضه، فنظر إليه بتعجب.

وقال: "سيكون يوماً رائعاً،" وكن حريصاً جداً على ألا تجهد نفسك".

قال الأمير الشاب: "الهواء المنعش لن يتعبنى".

على حين فى مرات سابقة؛ كان هذا الشاب النبيل نفسه، يصرخ بغضب ويصر على أن الهواء المنعش سيصيبه بالبرد ويقتله، لم يكن عجيباً أن شعر طبيبه بالفزع قليلاً.

وقال: "ظننتك لا تحب الهواء المنعش".

فأجاب الأمير: "نعم حينما أكون وحيداً"، "لكن ابنة خالى ستخرج معى".

فاقترح دكتور كرافن: "والمرضة بالطبع".

"لا، لا آخذ الممرضة"،

قالها بفجامة زائدة؛ فتذكرت مارى تلقائياً كيف بدا الأمير النبيل الشاب، بماسه وزمردده ولؤلؤه المعلق فى كل أجزائه. وبياقوته العظيم

فى اليد الصغيرة السوداء، التى كان يلوح بها كى يأمر خدمه ، أن يقتربوا
ليقدموا التحية، ويتلقوا أوامره.

وأضاف: "أبنة خالى تعرف كيف تحرص علىّ. فأنا دائماً أفضل عندما
تصطحبني. فقد جعلتنى أفضل ليلة أمس. وهناك فتى قوى أعرفه، سيدفع
مقعدى".

شعر دكتور كرافن ببعض القلق. فإذا كان لهذا الصبى الهستيرى
المتعب فرصة كى يتحسن، فسوف يفقد هو نفسه الفرصة كاملة فى إرث
ضيعة ميسلثويت؛ لكن كرافن لم يكن رجلاً بلا ضمير، فرغم كونه رجلاً
ضعيفاً، فإنه لم ينتو ترك الصبى يتعرض لخطر حقيقى.

فقال كرافن: "مؤكد أنه صبى قوى ومتزن. يجب أن أعرف شيئاً ما
عنه. من هو؟ ما اسمه؟".

فجأة صاحت مارى: "إنه دىكون"، وشعرت بطريقة أو بأخرى أن أى
شخص يعرف البرارى، ينبغى أن يعرف دىكون. كانت محقة، أيضاً. حيث
رأت ذلك فى التو إذ تحول الوجه الجاد للدكتور كرافن إلى ابتسامة مريحة.
قال كرافن: "آه دىكون". "لو أنه دىكون حقاً فسوف تشعر بالأمان
الكافى. فهو قوى كسيسى البرارى".

أضافت مارى "وهو ثقة" فهو الفتى الأكثر ثقة فى يوركشاير". أخذت
مارى تتحدث مع كولن بلهجة يوركشاير ونسيت نفسها.

سألها دكتور كرافن، بضحكة واضحة: "هل علمك سيكون ذلك؟".

قالت ماري بفتور: "تعلمتها كما لو كانت الفرنسية. فهي تشبه لهجة محلية في الهند. يحاول الماهرون تعلمها. أحبها وكولن أيضاً".

قال كرافن: "حسنًا، حسنًا. فلو أسعدتك، ربما لا تسبب لك ضررًا. هل تناولت مهدئ البروميد بالأمس، كولن؟".

أجاب كولن: "كلا، لم أرد تناوله أولاً، فبعد أن هدأتني ماري، حدثتني بصوت خافت كي أنام، عن الربيع وهو يتسلل إلى الحديقة".

قال دكتور كرافن: "هذا يشبه المهدئ"، حيث بدا متحيرًا أكثر من أى وقت مضى، ملقياً نظرة سريعة جانباً على الآنسة ماري الجالسة على كرسيها، ناظرة لأسفل بهدوء نحو السجادة. "واضح أنك أفضل، ولكن يجب أن تتذكر".

ظهر الأمير ثانية، مقاطعاً: "لا أريد التذكر. عندما أنفرد بنفسى وأتذكر، فإن جسدى كله يتألم، وأفكر فى أشياء تجعلنى أبدأ فى الصراخ؛ لأننى أكرهها جداً. فلو كان هناك طبيب فى أى مكان ينسىك مرضك بدلاً من تذكره. لكنك أحضرته إلى هنا...".

ولوح بيد نحيفة قد كانت بالفعل مغطاة بخواتم ذات ختم ملكى مصنوع من الياقوت:

"ذلك لأن ابنة خالى أنستنى أنها سبب تحسنى".

لم يمكث دكتور كرافن أبداً مثل هذه المهلة القصيرة بعد "نوبة صرع"؛ فعادة ما اضطر إلى البقاء فترة طويلة جداً، فضلاً عن القيام بأشياء مبهكة عديدة. فبعد ظهر اليوم لم يعط أى دواء أو يترك أية أوامر جديدة، وتناسى أى مشاهد سيئة. وعندما نزل الطابق السفلى؛ بدا مستغرقاً فى التفكير، وحينما تحدث مع السيدة ميدلوك فى المكتبة، شعرت بأنه رجل حائر للغاية. فبادرته قائلة: "حسناً سيدى ، هل صدقت ذلك؟".

قال الطبيب "من المؤكد أنها حالة جديدة. وبلا أدنى شك فالوضع أفضل من سابقه".

قالت السيدة ميدلوك: "أثق فى رأى سوزان سوربى ، بالتأكيد، بالأمس زرت كوخها وأنا فى طريقى إلى ثويت ، وتحدثت معها قليلاً" وأخذت تقول لى: "حسناً، ساره آن، ربما لم تكن طفلة جيدة. وربما لم تكن طفلة جذابة، ولكنها طفلة، والأطفال يحتاجون الأطفال. ذهبنا إلى المدرسة معاً. سوزان سوربى وأنا".

قال دكتور كرافن: "أعرف أنها أفضل ممرضة. عندما أجدها فى الكوخ ، أدرك الاحتمالات التى أنقذ بها مريضى".

ابتسمت السيدة ميدلوك. حيث كانت مغرمة بسوزان سوربى.

"فقد تواصلت معها"، واستمرت بصراحة تامة: "ظللت أفكر طوال الصباح فى أمر واحد قالته بالأمس". تقول: "ذات مرة عندما أعطيت الأطفال بعض النصائح بعد أن تشاجروا ، قلت لهم جميعاً: "عندما كنت فى المدرسة

أوضحت دروس الجغرافيا أن العالم شكل مثل البرتقالة واكتشفت- وأنا قبل العاشرة- أن كل البرتقالة لا تنتمي لأحد. لا يملك أحد أكثر من جزئه من الربع، وفي بعض الأحيان لا توجد أجزاء كافية يمكنك الدوران حولها دورة كاملة، لكن لا أنت- ولا غيرك- يعتقد أنه يملك البرتقالة كلها وإلا فسوف تكتشفون أنكم مخطئون، ولا يمكنكم اكتشافها دون صدمات قوية. وتضيف: "ماذا يتعلم الأطفال من الأطفال". "غير أنه لا معنى للاستيلاء على كل قشر البرتقالة وجميعه. فلو فعلت ذلك فمن المحتمل ألا تحصل حتى على البذر؛ والذي يكون مرًا جدًا في أكله".

قال دكتور كرافن، مرتدياً معطفه: "هي امرأة فطنة".

فأنهت السيدة ميدلوك، بسعادة غامرة: "حسنًا، فلها طريقة في قول الأشياء". "أحيانًا كنت أقول لها، إيه! سوزان، إذا كنت امرأة متميزة ولم تتحدثي لغة يوركشاير فسأتحين الفرصة التي أقول لك فيها كنت ماهرة".

تلك الليلة نام كولن مستغرقًا نون يقظة، وعندما استيقظ في الصباح بقي مستلقيًا وابتسم نون علم بذلك، ابتسم لأنه شعر بارتياح ملحوظ. حيث كان لطيفًا حقًا إن كان متيقظًا، بعد أن تقلب ومدد أطرافه بتلذذ. شعر كأن السلاسل الحديدية التي قيدته قد تلاشت وتركته ينطلق. فلم يعرف أن دكتور كرافن قد قال إن أعصابه استرخت وأراحت نفسها. بدلاً من الاستلقاء والتحديث في الجدار والتمنى بالألا يستيقظ، كان عقله ممتلئًا بالخطط التي وضعها هو ومارى بالأمس، عن صور الحديقة، وصور يكون ومخلوقاته البرية. وكان لطيفًا للغاية أن يجد أشياء كي يفكر فيها. فلم يمر

أكثر من عشر دقائق عندما سمع تحرك أقدام عبر الممر فكانت ماري بالبواب.
فى اللحظة التالية دخلت الغرفة وأسرعت نحو سريره، حاملة نسيماها
الطلق المشبع بعطر الصباح.

صاح ديكون: "لقد كنت بالخارج! لقد كنت بالخارج! هاهى رائحة
أوراق الشجر العطرة".

لقد كانت تجرى وشعرها منطلق ومتطاير وكانت مشرقة ووردية
الخدین، رغم عدم ملاحظته ذلك.

قالت، وهى تلهث قليلاً لسرعتها: "إنها رائحة! أنت لم تر أى شىء
جميل مطلقاً! لقد أتى الربيع! اعتقدت أنه كان قد أتى ذلك الصباح الآخر،
لكنه كان فى طريقه فقط. هو هنا الآن! لقد أتى، الربيع! هذا ما يقوله
ديكون!".

صاح كولن: "أحقاً ذلك؟"، ورغم أنه لا يعلم عنه شيئاً فى واقع الأمر،
غير أنه شعر بنبض قلبه. فجلس - فعلياً - معتدلاً فى السرير.

وأضاف، بضحكة نصفها بإثارة مريحة ونصفها الآخر فى خياله
الشخصى: "افتحى النافذة!". "ربما نسمع الأبواق الذهبية!".

ورغم أنه ضحك، أصبحت ماري بجانب النافذة فى لحظة، وفى لحظة
تالية فتحت النافذة على مداها، فتسلل خلالها الانتعاش والعطور وتغريد
الطيور.

وقالت: "ها هو الهواء الطلق. استلق على ظهرك، واستنشقه بعمق. ذلك ما يفعله ليكون عندما يستلقى فى البرارى . يقول إنه يشعره فى عروقه فيضفى عليه قوة ، فيشعر كأنه سيخلد. فتتنفسه مرارًا.

كانت تكرر فقط ما أخبرها به ليكون، ولكنها انشغلت بخيال كولن.

وقال: "الخلود! هل هذا ما يجعله يشعر بذلك؟، ففعل كما أخبرته، مستنشقا بعمق مرارًا وتكرارًا حتى شعر أن شيئًا جديدًا ومبهجًا للغاية بدأ يحدث له.

وأصبحت ماري بجانبه ثانية.

وقالت وهى تجرى متعجلة: "الأشياء مزدحمة على الأرض. فهناك أزهار متفتحة وبراعم على كل شىء، وقد غطى الساتر الأخضر اللون الرمادى كله تقريبًا، والطيور فى عجلة من أمرها نحو أعشاشها خشية أن يفوت الأوان؛ فيتشاجر بعضها (وقالت: "ها هو الهواء الطلق. استلق على ظهرك، واستنشقه بعمق") كى يجد مكانًا فى الحديقة السرية. وشجيرات الزهور تبدو مثل الفتيل كما ينبغى أن يكون، وهناك أزهار الربيع فى الممرات وفى الغابات. نمت البذور التى زرعناها، وجلب ليكون الثعلب والغراب والسناجب والحمل الرضيع".

ثم توقفت لالتقاط الأنفاس.

ومنذ ثلاثة أيام وجد ليكون الحمل الرضيع مستلقيا بجانب أمه النافقة بين شجيرات القندول فى البرارى. ولم يكن الحمل الأول الذى فقد

أمه ووجهه سيكون وعرف كيف يعامله. كان يأخذه إلى الكوخ مدثراً بسترته ويدعه قرب المدفأة وكان يرضعه اللبن الدافئ. كان شيئاً ليناً بوجه طفولى ساذج ودود وسيقان طويلة نوعاً ما عن جسده. فقد حمله ليكون بيديه أعلى الأرض وكانت زجاجة اللبن فى جيبه مع سنجاب، وعندما جلست مارى تحت شجرة وشعرت بدفئه الرقيق يغمر حضنها، أحست بسعادة غريبة فاقت الوصف. إنه حمل .. حمل ! حمل حى يرقد فى حضنك مثل الطفل.

كانت تصفه بفرح كبير، وكان كولن يستمع ويستنشق الهواء بعمق، عندما دخلت الممرضة. وانطلقت قليلاً نحو مرآة النافذة المفتوحة. فقد جلست مختنقة فى غرفة عدة أيام حارة؛ لأن مريضها كان على يقين أن النوافذ المفتوحة تصيب الناس بالبرد.

استفسرت الممرضة: "هل أنت متأكد بأنك لا تشعر ببرد، سيد كولن؟".



فأجاب "كلا". "إننى أستنشق الهواء الطلق بعمق. إنه يجعلك قوية. سأنهض إلى الأريكة كي أفطر. ابنة خالى ستقطر معى.

خرجت الممرضة، مخفية ابتسامة، لتطلب وجبتى إفطار. فوجدت قاعة الخدم مكاناً أكثر مرحاً من حجرة المرضى، والآن فقط يريد كل شخص أن يسمع الأخبار القادمة من الطابق العلوى. كان هناك قدر كبير من المزاح عن الشاب غير المعروف المنعزل الذى، كما قال الطباخ: "قد عثر على سيده، وكان مفيداً له". لقد أرهقت قاعة الخدم من الحالات العصبية، ورئيس الخدم؛ الذى كانت لديه أسرة، أعرب عن رأيه مراراً أنه من الأفضل تماماً لذلك المريض "أن يعزل جيداً".

عندما جلس كولن على أريكته، ووضع الإفطار لاثنتين على الطاولة، أمر الممرضة بطريقة معظم الأمراء.

قال: "سوف يأتى صبى وثعلب وغراب وسنجا بان وحمل؛ ليرونى هذا الصباح. أريدهم بالطابق العلوى بمجرد مجيئهم. فلا تبدئى فى اللعب مع الحيوانات فى قاعة الخدم وتبقيهم هناك. أريدهم هنا".

أظهرت الممرضة همساً طفيفاً وحاولت إخفاءه بالسعال.

وأجابت: "نعم، سيدى".

وأضاف كولن، ملوحاً بيده: "سأخبرك ما يمكنك القيام به. يمكنك أن تخبرى مارثا أن تحضرهم إلى هنا. فالصبى شقيق مارثا. اسمه سيكون وهو ساحر للحيوانات".

قالت المريضة: "أتمنى ألا تعضنى الحيوانات، سيد كولن".
قال كولن بصرامة: "أخبرتكَ أنه ساحر". "حيوانات السحرة لا
تعض أبدًا".
قالت ماري: "هناك سحرة الثعابين فى الهند؛ ويستطيعون وضع
رؤوس ثعابينهم فى أفواههم".
ارتجفت المريضة "يا إلهى!".
تناولا إفطارهما فى هواء الصباح المتدفق عليهما. كان إفطار كولن
طيباً للغاية، وراقبته ماري باهتمام بالغ.
قالت "سوف تبدأ فى البدانة تماماً كما بدأت أنا، لم أكن أتناول
إفطارى مطلقاً وأنا فى الهند، لكن الآن دائماً ما أريده".
قال كولن "أشبهت إفطارى هذا الصباح"، "ربما بسبب الهواء
الطلق، تعتقدن متى سيأتى ليكون؟".
سيأتى بعد قليل. رفعت ماري يدها حوالى عشر دقائق.
وقالت "اسمع!". "هل سمعت نعيباً؟".
أنصت كولن وسمعه، أغرب صوت فى العالم تسمعه داخل منزل،
نعيب فظ.
أجاب: "نعم".

قالت ماري: "هذا الغراب سوت. أنصت مرة أخرى. هل تسمع ثغاءً، ثغاءً خافتاً؟".

صرخ كولن باندفاع تام: "آه، نعم".

قالت ماري: "هذا هو الحمل الوليد. سوف يأتي".

كان حذاء ديكون للبراري سميكاً وثقيلاً، ورغم أنه حاول أن يمشي بهدوء غير أن الحذاء أحدث صوت وطء ثقيل، كأنه مشى عبر ممرات طويلة. سمعت ماري وكولن زحفه وسيره حتى مر عبر الباب المزخرف إلى السجادة اللينة لممر كولن الخاص.

قالت ماري، وهي تفتح الباب: "من فضلك، سيدي". "من فضلك، سيدي، إليك ديكون ومخلوقاته".

جاء ديكون مبتسماً، ابتسامته اللطيفة الرحيبة، وكان الحمل بين ذراعيه، والثعلب الأحمر الصغير هرول بجانبه، والسنجاب نّت على كتفه الأيسر، والغراب سوت على كتفه الأيمن، وظهر رأس السنجاب شل وقدمه من جيب معطفه.

وقف كولن ببطء وحدق بشدة؛ مثلما حملق عندما رأى ماري لأول مرة؛ لكن هذه المرة كانت حملقة الاندهاش والبهجة. كانت الحقيقة أنه برغم كل ما قد سمعه؛ فعلى الأقل لم يستوعب كيف سيبدو هذا الصبي، وكيف كان ثعلبه وغرابه وسنجابه وحمله قرييين منه للغاية، ومن صداقته؛ حيث بدوا تقريباً كجزء منه.

لم يكلم كولن صبيًا مطلقًا في حياته، وقد غمرته سعادته وفضوله؛
لدرجة أنه لم يفكر حتى في الكلام .

على حين لم يشعر ليكون بأدنى خجل أو حرج. فلم يشعر بالارتباك لأن الغراب لم يعرف لغته، وكان يحدق فحسب، ولم يكلمه في أول لقاء بينهما. كانت المخلوقات دائمًا هكذا حتى تتكشفك. مشى نحو مقعد كولن ووضع الحمل الصغير بهدوء في حضنه، وعلى الفور انتقل المخلوق الصغير إلى العباءة المخملية الدافئة، وبدأ في حك أنفه ثم استكان بين طيات العباءة، وأدخل رأسه ذا الشعر المجعد بتلطف واهن بجانبه. بالطبع لا مفر من الكلام بعدئذٍ.

صاح كولن: "ماذا يفعل؟" "ماذا يريد؟".

قال ليكون مبتسمًا بشدة: "إنه يريد أمه"، "أحضرتك إليك جوعان نوعًا ما؛ لأنني علمت أنه لطيف أن تشاهده وهو يرضع".

جثا بجانب الأريكة وتناول زجاجة الرضاعة من جيبه.

وقال، وهو يدير الرأس البيضاء الصوفية الصغيرة بيد قمحية حنونة: "تعال، طفلي الصغير.. هذه هي الخطوة التالية، فستجد هنا ما هو أهم مما في العباءات الحريرية المخملية. إلي الآن"، وضغط الحلمة المطاطية للزجاجة في الفم المستكين، وبدأ الحمل الصغير يرضعها بنشوة نهمة.

بعد ذلك؛ لم تكن هناك غرابة مما سيقل. وبمرور الوقت نام الحمل، وانهاالت الاستفسارات متتالية، وأجابها ليكون جميعها. أخبرهم كيف وجد

الحمل لحظة شروق الشمس منذ ثلاثة أيام. كان يقف في البرارى منصتاً إلى طائر القبرة، ويراقبه وهو يتميل في عنان السماء، حتى بدا كبقعة صغيرة في المرتفعات الزرقاء.

"أفقدته بتبديد تغريده، وتساءلت كيف يستطيع شخص أن يسمعه، عندما بدا كأنه خرج من الكون في دقيقة، وبعد ذلك سمعت شيئاً آخر بعيداً بين شجيرات القندول. كان صوتاً خافتاً فأدركت أنه حمل حديث الولادة، ربما كان جائعاً، وأدركت أنه لا يمكن أن يكون جائعاً إذا لم يفتقد أمه بطريقة أو بأخرى؛ لذا سأبدأ في البحث، إيه! وجهت نظري لأجله. ذهبت هنا وهناك بين شجيرات القندول، وتجولت كثيراً ودائماً ما كنت آخذ الاتجاه الخاطئ. ولكن في النهاية شاهدت شيئاً أبيض بجانب صخرة أعلى أرض البرارى، وتسلمت فوجدت الحمل الصغير شبه نافق يعاني من البرد والجوع.

في أثناء كلامه حوّم الغراب سوت داخل النافذة المفتوحة وخارجها، ونعق مراقباً المشهد؛ على حين يتجول السنجا بان نث و شل بين الأشجار الكبيرة بالخارج، وقفزا أعلى الجذوع وأسفلها واستكشفا الأغصان. والتف الثعلب كابتن قرب ليكون؛ الذي جلس على طرف سجادة المدفأة.

شاهدوا الصور في كتب البستنة، وعرف سيكون الأزهار كلها، من خلال أسماء بلادها، وعرف بدقة أيهما كانت تنمو - سابقاً - في الحديقة السرية.

وقال: "لا يمكننى القول إن هذا اسمها"، مشيرًا إلى زهرة كتب أسفلها "زهرة النب"، "لكن نسمى ذلك الحمامى، وهناك واحدة تسمى أنف العجل وكلتاها تنموان برّياً فى سياج من الشجيرات. ولكن هذه من الحديقة وهى أكبر وأعظم. هناك بعض الكتل الكبيرة من زهرة الحمامى فى الحديقة. وهى ستشبه الفراش الأزرق والفراشات البيضاء حينما تكون مرفرفة".

صاح كولن: "سأذهب لرؤيتها". "سأذهب لرؤيتها!"

قالت مارى بجدية تامة: "هذا ما ينبغى، ولا يجب أن تضيع الوقت".

الفصل العشرون

"سأسعى للخلود .. للخلود"

على حين اضطر أصدقاء كولن للانتظار ما يزيد على أسبوع؛ لحلول بعض الأيام العاصفة للغاية، فضلاً عن إصابة كولن بنزلة برد، فحدث هذين الأمرين واحداً تلو الآخر، بلا أدنى شك كان ليغضبه. ورغم ذلك كان هناك تخطيط للعمل شديد الحذر والغموض، وتقريباً كان سيكون يأتي كل يوم، ولو لبضع دقائق فحسب، للحديث عما كان يحدث في البراري، وفي الممرات والحدود وعلى حدود جداول المياه. فالأشياء التي كان ينبغي أن يتحدث عنها؛ من ثعالب وحيوان الغرير وبيوت الفئران المائية، ناهيك عن أعشاش الطيور والفئران البرية وجحورها؛ كانت كافية لإصابتك برجفة وإثارة، عندما سمعت عن كل التفاصيل الجذابة من ساحر الحيوانات، أدركت أن العالم السفلي المزدحم كان يعمل بالإثارة والتشويق والفضول.

وقال ليكون: "إنهم مثلنا"، فقط عليهم بناء بيوتهم كل عام. وهو ما يشغلهم جداً فيتشاجرون بلطف لإنهائها".

ومع ذلك، كان الأمر الأكثر أولوية، أن تتم التجهيزات بسرية تامة، قبل أن ينقل كولن إلى الحديقة. فينبغى ألا يرى أحد المقعد المتحرك؛ ولا يكون ولا مارى، بعد أن عبروا ركنًا محددًا من الشجيرات، ووصلوا سيرًا خارج الأسوار الطبيعية. وبمرور الأيام، أصبح كولن أكثر تيقنًا من إحساسه بأن الغموض المحيط بالحديقة كان واحدًا من مفاتها العظيمة. ينبغى ألا يفسد ذلك شىء. ويجب ألا يشك أحد مطلقًا أن لديهم سرًا. فينبغى أن يعتقد الجميع أنه ببساطة خرج مع مارى ويكون؛ لأنه أحبهما، ولم يعترض على نظرتهما له. وكانت لديهم أحاديث طويلة ومبهجة جدًا عن طريقهم. فهنا يصعدون هذا الممر ويهبطون ذلك ويعبرون الآخر ويتجولون بين مشاتل الزهور؛ كما لو كانوا ينظرون إلى "شتلات الزهور" التى جهزها كبير البستانيين؛ السيد روتش. وليكن ذلك أمرًا منطقيًا، حتى لا يعتقد أحد غامضًا على الإطلاق. كان عليهم أن يدخلوا بين ممرات الشجيرات، ويخفوا أنفسهم، حتى وصلوا إلى الأسوار الممتدة. كانت تقريبًا خطة جادة ومتقنة؛ كخطط المشاة التى وضعها جنرالات عظام فى فترة حرب.

بالطبع كانت شائعات الأمور الجديدة والغريبة - التى كانت تحدث فى أماكن هذا الصبى المنعزل - تتسرب من قاعة الخدم إلى الإسطبل وخارجها بين البستانيين، ولكن مع هذا، دهش السيد روتش - يومًا ما - عندما تلقى أوامر من غرفة السيد كولن، تفيد بأنه يجب أن يحضر فى الغرفة التى لم يرها مطلقًا أحد من العاملين خارج المبنى؛ لأن الصبى نفسه يريد أن يتكلم معه.

قال لنفسه، حيث غير معطفه على عجل "حسنًا، حسنًا"، "ماذا تفعل الآن؟"، فسموه الملكى، الذى لم يكن يرى، يستدعى شخصًا لم يره مطلقًا.

كان السيد روتش فضوليًا، فرغم أنه لم يرَ الصبى قط، فقد استمع إلى عشرات القصص المبالغ فيها عن غرابة مظهره وأسلوب حياته ونوباته الهستيرية. وكان الأمر الشائع الذى سمعه أنه قد يموت فى أية لحظة، فضلاً عن العديد من التفاصيل الخيالية عن ظهر أحذب وأطراف عاجزة، رواها أناس لم يروه قط.

قالت السيدة ميدلوك: "الأمور تتغير فى هذا البيت، سيد روتش". حيث قادته عبر السلم الخلفى إلى الممر المؤدى إلى الغرفة التى لا تزال غامضة حتى الآن.

فأجاب: "نأمل أن تتغير للأفضل، سيدة ميدلوك".

فأضافت: "غير وارد أن يكون التغير إلى الأسوأ، وغريب - كما كل شىء - أن تجدهم يقومون بواجباتهم ببسر كبير دون معاناة. لا تندهش، سيد روتش، إذا وجدت نفسك وسط حديقة حيوان، ويكون أخو مارثا سوربى فى البيت أكثر مما كنا أنا وأنت".

فى الواقع، كانت هناك حالة من السحر ترتبط بديكون، كما كانت مارى تعتقد بداخلها. وعندما سمع السيد روتش اسمه ابتسم بارتياح تام.

وقال: "إنه يمكنك أن تجده قاطناً في قصر باكنجهام^(*) أو في أعماق منجم الفحم. وفي الحالتين لا يكون الأمر شائئاً. فذلك الصبي في أحسن حال".

ربما كان الموقف جيداً، أيّاً كان مستعداً له أو فوجئ به. فعندما فُتح باب غرفة النوم إذ بغراب كبير، بدا كأنه في بيته، جاثماً على الظهر المرتفع للكرسي المنقوش، معلناً حضور زائر بنعيب عال للغاية. بالرغم من تحذير السيدة ميدلوك، فإن السيد روتش فرّ في التو؛ فبدا مضحكاً تماماً بأن يقفز للوراء.

لم يكن الأمير الشاب في سريره ولا على أريكته. بل كان جالساً على كرسي وكان حمل يقف بجانبه يهز ذيله في وضع رضاعة، على حين كان سيكون جاثماً يرضعه من زجاجته. وكان السنجاب جالساً على ظهر ديكون المحنى بعناية بالغة يقرض البندق. وكانت فتاة الهند الصغيرة تجلس على مسند كبير للقدمين تنظر إليه.

قالت السيدة ميدلوك: "أقدم لك السيد روتش، سيد كولن".

استدار الأمير الشاب وتفحص خادمه، على الأقل كان هذا ما شعر بحدوثه كبير البستانيين.

(*) منزل العائلة الملكية البريطانية في لندن.

قال كولن "آه، أنت روتش، أليس كذلك؟". "أرسلت إليك لأمرك ببعض الأشياء المهمة للغاية".

أجاب روتش: "حسنًا سيدى" متسائلًا إن كان عليه تنفيذ تعليمات، بإزالة كل أشجار البلوط فى الحديقة أو تحويل البساتين إلى حدائق مائية.

قال كولن: "سأخرج على مقعدى فى الظهيرة ، وإذا استمتعت بالهواء الطلق، فسوف أخرج كل يوم. لذلك؛ عندما أخرج لا يجب على أى بستانى أن يوجد قريبًا من الممشى الممتد، المتاخم لأسوار الحديقة، غير مسموح لأحد أن يوجد هناك. سأخرج حوالى الساعة الثانية، ويجب أن يبتعد الجميع حتى أمر أن يعودوا إلى عملهم".

فأجاب السيد روتش "حسنًا سيدى"، وقد اطمأن مما سمعه؛ ببقاء أشجار البلوط، والبساتين آمنة.

• سأل كولن ، مستديرًا إلى مارى "مارى، ماذا تقولين فى الهند عندما تنهين كلامك، وتريدين أن ينصرف الناس؟".

أجابت مارى: "تقول أسمح لك بالانصراف".

فلوح الأمير بيده، قائلاً: "أسمح لك بالانصراف يا روتش، ولكن تذكر إنه أمر مهم".

نقق الغراب بصوت أجش، ولكن ليس فجًا.

قال روتش "حسنًا سيدى، أشكرك سيدى". ورافقته السيدة ميدلوك إلى خارج الغرفة.

خارجًا بالمر، وقد ارتفعت معنوياته، ابتسم حتى كاد أن يضحك. قال: "يا إلهى! إن لديه طريقة ملكية راقية؛ أليس كذلك؟، قد تعتقدين أنه أسرة ملكية بأكملها جسدت فى شخص؛ وكأنه زوج الملكة^(*)، وأمير البلاد".

عارضته السيدة ميدلوك قائلة: "إيه، كم تركناه يستعلى علينا جميعًا منذ نعومة أظافره، وهو يظن أن العامة خلقوا لذلك". فاقترح السيد روتش: "ربما يخرج من هذا الاعتقاد إذا قدرت له الحياة".

فقالَت السيدة ميدلوك: "حسنًا، ثمة شىء واحد مؤكد، فلو عاش وبقيت هذه الطفلة الهندية هنا، أضمن أنها ستعلمه أن البرتقالة ليست ملكًا له، كما تقول السيدة سوزان سوربى. وسيكون محظوظًا إذا أدرك مقدار نصيبه من البرتقالة".

داخل الغرفة، كان كولن متكئًا على وساداته.

(*) Prince Concert : زوج الملكة العاطلة، فى هذه الحالة، ألبرت ساكس كوبورج جوتة (١٨١٩م-١٦٨١م)، زوج الملكة فيكتوريا.

قال: "كل شيء آمن الآن، وسوف أرى ذلك فى المساء، على أن أكون بداخل الحديقة هذا المساء".

عاد ليكون مع مخلوقاته إلى الحديقة، ومكثت مارى مع كولن. لم تظن أنه كان متعباً؛ بل كان هادئاً للغاية، حتى أتى غداؤهما وظل هادئاً فى أثناء تناولهما له. تعجبت من ذلك، وسألته عن السبب.

قالت: "ما أوسع عينيك يا كولن، فعندما تفكر تبدو ان مثل الصبحون، فميم تفكر الآن؟".

أجاب: "لا أتوقف عن التفكير فى شكلها".

سألته مارى: "الحديقة؟".

فقال: "فصل الربيع، كنت أفكر أننى بالفعل لم أره من قبل، فنادراً ما كنت أخرج، وفى أثناء ذلك، لم أكن ألحظه. ولم أكن حتى أفكر فيه".

قالت مارى: "لم أره فى الهند قط، فليس هناك ربيع".

وبرغم أن حياة كولن كانت منغلقة وكثيرة؛ غير أنه كان أكثر خيالاً من مارى، يكفى أنه قضى فترة طويلة يتصفح كتباً وصوراً رائعة.

قال كولن: "ذلك الصباح عندما دخلت مهرولة، وقلت (لقد أتى.. لقد أتى)، جعلتنى أشعر بأننى مختلف تماماً. فوقع ذلك على سمعى وكأن أشياء كانت تأتى فى موكب عظيم، ورشقات نارية كبيرة، ونسائم من الموسيقى؛ لدى صورة تشبه ذلك فى أحد كتبى؛ حشود من أناس مرحين،

وأطفال حاملين أكاليل وأغصان مزهرة، الكل يضحك ويرقص... يتزاحمون ويعزفون المزامير. لذا قلت: "ربما سنسمع أبواقاً ذهبية، وطلبت منك أن تفتحى النافذة".

قالت ماري: "يا للبهجة! هكذا يكون الإحساس بالضبط. فلو رقصت الزهور وأوراق الشجر وكل ماهو أخضر والطيور والمخلوقات البرية فى آن؛ يا له من ازدحام! أجزم أنهم سيرقصون ويغنون ويزقزقون، وتلك هى نسائم الموسيقى".

ضحك الاثنان؛ ليس لأن الفكرة مضحكة، بل لأنهما أحبا ذلك جداً. بعد ذلك بقليل، أعدت الممرضة كولن. لاحظت أنه بدلاً من تمده كقطعة خشب حال ارتداء ملابسه، جلس وبذل بعض الجهد للاعتماد على نفسه، وكان يتحدث ويضحك مع ماري طوال الوقت.

قالت الممرضة لدكتور كرافن حين حضر فجأة لفحصه: "كان يوماً من أيامه الجميلة، سيدى. إنه فى حالة معنوية مرتفعة تجعله أقوى".

قال دكتور كرافن: "سأحضر مرة أخرى بعد الظهر، بعدما يعود، لأتابع إلى أى مدى يناسبه الخروج"، وبصوت خافت: "أتمنى أن يدعك تخرجين معه".

أجابت الممرضة بحزم مفاجئ "أفضل أن أترك الحالة جالياً، سيدى، عن البقاء هنا فى أثناء عرض هذه الفكرة".

قال الدكتور بعصبيته الطفيفة لم : "أقرر فعلياً اقتراح هذا. لنخض التجربة. فديكون صبى أثق فيه تماماً".

حمل أقوى خادم فى المنزل كولن إلى الطابق السفلى، ووضع فى مقعده ذى العجلات، قريباً من انتظار يكون بالخارج. بعد أن رتب الخادم بطاينه ووسائده، لوح الأمير له وللممرضة، قائلاً أسمح لكما بالانصراف، فاختمى كلاهما بسرعة، وبدا ذلك مضحكاً حينما شعرا بالأمان داخل المنزل.

بدأ يكون فى دفع المقعد ببطء وثبات. كانت الأنسة مارى تسير بجواره وكولن مسنداً ظهره ورفع وجهه للسماء. بدا قوس السماء شاهق الارتفاع، وبدت السحب الثلجية الصغيرة كطيور بيضاء محلقة على أجنحة ممتدة تحت زرقة السماء الشفافة.

اندفعت الرياح من البرارى، فى نسيمات قوية لطيفة، وكانت غريبة بعدوبتها فائقة العطر.

ظل كولن رافعاً رأسه النحيل ليطلع هذه الصورة بوجدانه، على حين كانت عيناه تنظران كأنهما أذنان تنصتان.

قال: "هناك العديد من أصوات الغناء والطنين والغناء، ما ذاك العطر الذى تجلبه نسيمات الرياح؟".

أجاب يكون: "إنه القنديل المفتوح فى البرارى، إيه، ما أجمل النحل الذى يحيط به اليوم".

لم يوجد هناك إنسان يرى فى الطرقات التى سلكوها. فى الواقع كل
بستانى أو مساعده، قد أزيح جانبًا. لكنهم تجولوا بالداخل والخارج بين
الشجيرات، وحول النافورة متابعين مسارهم المخطط بعناية؛ لمتعة غموضها
الخالص. لكن فى النهاية عندما انعطفوا إلى الطريق الطويل المتاخم لأسوار
اللبلاب، أصابتهم نشوة الاقتراب بإثارة جعلتهم يهمسون؛ لسبب غريب لم
يستطيعوا تفسيره.

همست مارى: "ها هو، هنا اعتدت أن أصعد وأهبط وأتعجب..
وأتعجب".

صاح كولن: "أهذا هو؟" .. وبدأت عيناه تتكشفان اللبلاب بفضول
نهم. وهمس قائلاً: "لكنى لا أرى شيئاً، ليس هناك باب".
قالت مارى: "هذا ما كنت أظن".

ثم ساد صمت جميل لا يقلقه نفس، واستمر المقعد فى السير.

قالت مارى: "هذه هى الحديقة التى يعمل بها بن وذر ستاف".

قال كولن: "حقاً؟".

وبعد بضع خطوات، همست مارى ثانية: "من هنا طار أبو الحناء فوق
السور".

قال كولن: "حقاً؟ أوه! أتمنى أن يأتى ثانية".

فقالَت ماري، بسعادة غامرة: "وهنا مكث فوق التل الصغير، وأراني المفتاح".

ثم اعتدل كولن في جلسته.

وصاح: "أين؟.. أين؟.. هناك؟"، و قد اتسعت عيناه كعيني ذئب، في قلنسوة الركوب الحمراء، عندما يستثار، كي يلفت انتباههم.

توقف ليكون فتوقف المقعد.

قالت ماري، وهي تخطو إلى المشتل القريب من اللبلاب: "وهنا ذهبت لأتحدث معه، عندما غرد لي من أعلى السور".

وهذا هو فرع اللبلاب الذي أزعته الريح، وأمسكت بستار اللبلاب الأخضر المعلق.

قال كولن متلهفاً: "أوه!، هل هو، هل هو؟".

"ها هو المقبض، وها هو الباب. ادفعه يا كولن، ادفعه بسرعة!".

فدفعه كولن دفعة قوية ثابتة رائعة.

حقيقة؛ اندفع كولن خلفاً إلى وسائده، ورغم ذلك لهث في بهجة، وجعل يديه أمام عينيه؛ ليزيح كل شيء جانباً، حتى دخلوا، وتوقف الكرسي المتحرك كأنه بفعل السحر، وأقفل الباب. حتى ذلك الوقت لم يزح يديه من أمام عينيه، ليدور بتأثيره مراراً، مثلما فعل ليكون وماري. وعلى الجدران والأرض والأشجار والباقات المتمايلة والنباتات المتسلقة تسلل ستار أخضر

لطيف من أوراق صغيرة ناعمة، وعلى العشب تحت الأشجار، وأواني الزرع
الرمادية فى صوباتها، وهنا وهناك فى كل مكان؛ كانت توجد لمسات أو
بقع ذهبية وبنفسجية وبيضاء، على حين يظهر اللون الوردى والثلجى على
الأشجار فوق رأسه، إلى جانب رفرفات أجنحة ، وتغريد خافت جميل،
وأزيز وعطور..وعطور. والشمس تحنو بأشعتها كيد ناعمة الملمس، وفى
تعجب وقفت مارى وديكون يحدقان فيه . حيث بدا غريبًا ومختلفًا؛ فقد غمره
لون وردى.. غمر وجهه العاجى ورقبته وعنقه ويديه وكل جسده.

صاح: "يجب أن أتحسن! يجب أن أتحسن! يجب أن أتحسن!، يا
مارى! يا دىكون! يجب أن أتحسن! ويجب أن أسعى للخلود.. للخلود.

الفصل الحادى والعشرون

"بن وذرستاف"

إن من بين عجائب الحياة فى هذه الدنيا أن ينتاب المرء بين الفينة والأخرى شعور أكيد أنه سيعيش للأبد. يستشعر المرء ذلك أحياناً عندما يستيقظ فى وقت الفجر الرقيق المهيّب، فيخرج ليقف منفرداً ثم يلقي برأسه إلى الوراء ويرفع بصره عالياً ويراقب بناظره السماء الشاحبة، التى تتغير ببطء وتتوهج، ثم يتخيل حدوث أشياء رائعة مجهولة، حتى ينتزع الشرق صرخة من القلب الذى يوشك أن يتوقف، عندما يرى الجلال الغريب والدائم لشروق الشمس، هذا الشروق الذى لا زال يتكرر كل صباح على مدى آلاف السنين. ينتاب المرء هذا الشعور لبرهة. وينتابه أحياناً أخرى حينما يقف وحيداً فى أحد الأدغال عند الغروب ليرى سكوناً غامضاً ذا لون ذهبى عميق يتسلل بين الأغصان وتحتها، وكأنه يتمم بشيء ما مرة بعد أخرى دون أن يسمع المرء ما يقول ولو أنصت بإمعان. وفى أحيان أخرى يتأكد هذا

الشعور لدى المرء عندما يعاين ملايين النجوم المنتظرة والشاخصة فى هدوء الليل البهيم وزرقتة المظلمة، وأحياناً يشعر وكأنه حقيقة عندما يستمع إلى أصوات الموسيقى الآتية من مكان بعيد، أو عندما ينظر فى عيني شخص ما.

وهذا ما أحس به "كولن" فى المرة الأولى التى رأى فيها الربيع وسمع أشجانه وأحس به داخل الحوائط الأربعة لحديقة مخبأة، وكأن العالم بأسره قد تطوع فى ذاك المساء ليبدو فى أحسن حلة وفى جمال باهر يعطف على هذا الصبى. لربما جاء الربيع وجمع كل ما يستطيع فى تلك البقعة بفضل الخير الإلهى.

توقف "ديكون" أكثر من مرة وهو منشغل، ثم وقف ساكناً ودهشة تتزايد فى عينيه، وكان يهز رأسه برفق.

"ها! هذا عظيم"، صاح ديكون: "لقد بلغت الثانية عشرة من عمري، وها أنذا أدخل السنة الثالثة عشرة، وكم من مساء مر فى ثلاث عشرة سنة، ولكن يبدو لى أنى لم أستمتع بمساء أجمل من هذا قبل اليوم".

"نعم، هذا مساء عظيم"، كذلك صاحت مارى التى تنهدت من الفرح وقالت: "إنه أعظم مساء فى هذا العالم".

تساءل كولن بيقظة حاملة وقال: "هل تعتقدون أن كل هذا كان يحدث بهذه الطريقة عن قصد من أجلى؟".

"يا إلهي! صاحت ماري بإعجاب وقالت: "هذه القطعة الجميلة من
يوركشاير. هذا الفن الراقى. هذا الفن..".

ثم عمت البهجة.

سحبوا المقعد تحت شجرة البرقوق، التى ابيض لونها بالأزهار
المتفتحة وغنى النحل أراجيزه عليها. كانت مثل مظلة الملوك فى الحكايات
الخيالية. كان هناك بالقرب أشجار من الكريز وأشجار التفاح التى تلونت
براعمها باللونين الأبيض والقرنفلى والتى قد تفتح بعضها هنا وهناك،
وبين هذه الأغصان المزهرة فى تلك الظلة، بدت بعض أجزاء من السماء
الزرقاء تنظر من عل وكأنها أعين رائعة الجمال.

عمل كل من ماري وديكون قليلاً هنا وهناك على حين كان كولین
يتابعهما. أحضرا له أشياء لينظر إليها مثل براعم متفتحة، براعم كانت مقفلة
وغير ناضجة، أجزاء من أغصان صغيرة أخذت أوراقها فى الاخضرار،
ريشة لطائر نقار الخشب كانت قد سقطت على الحشائش، وبيضة فارغة
لطائر صغير كان قد فقس..

كان ديكون يدفع الكرسي ببطء فى أنحاء الحديقة، وكان يتوقف
بين الحين والآخر ليدعه يتفقد العجائب المنبثقة من التربة أو المتدلية من
الأشجار. أحس كولین وكأنه ذهب فى رحلة تفقدية فى مملكة مسحورة ورأى
كل الثروات والكنوز الكامنة فيها.

تساءل كولن: "هل سنرى طائر أبى الحناء؟".

فأجاب ليكون: "ستراه بما فيه الكفاية بعد قليل. عندما يفقس البيض، لن يكون للطائر أية فرصة ليرتاح فيها، سنراه يطير ذهاباً وإياباً فى كل مكان، وهو يحمل دوداً فى نفس حجمه فى بعض الأوقات، وتلك الضوضاء الكبيرة من أفراخه عندما يرجع إلى عشه، ستتنباه الكثير من الحيرة لأنه لن يعلم فى أى المناقير الكبيرة يجب أن يلقى أول هذه الديدان، لأن العش سيمتلئ بالمناقير المفتوحة والصرخات فى كل ركن. قالت أمى إنها عندما ترى المجهود الكبير الذى يبذله طائر أبى الحناء ليملاً هذه المناقير المفتوحة والجائة، فإنها تشعر وكأنها سيدة لا تعمل شيئاً بيديها مقارنة به. إنها تقول إنها تشعر وكأن العرق يتصبب من هذا الطائر، ولكن الناس لا يرونه".

هذا الكلام جعلهم ينفجرون فى الضحك إلى حد أنهم اضطروا إلى تغطية أفواههم بأيديهم فقد تذكروا أن أحداً لا ينبغى أن يسمعهم. لقد سمع كولن بعض التوجيهات بخصوص قانون الهمسات والتكلم بصوت خفيض منذ عدة أيام، وقد أحب الغموض فى هذا الجانب وحاول الالتزام قدر استطاعته، ولكن من الصعب جداً ألا يتجاوز الضحك حد الهمس فى وسط استمتاع مثير.

امتلات كل لحظة من هذا المساء بأشياء جديدة، وازدادت ذهبية أشعة الشمس كل ساعة، وتوارى الكرسي المتحرك تحت المظلة وجلس ليكون على الحشائش، وما كاد يخرج غليونيه حتى رأى كولن شيئاً لم يلحظه من قبل لأنه لم يكن لديه الوقت.

فصاح: "هذه شجرة قديمة جداً، تلك التى هناك، أليست كذلك؟".

نظر ديكون فوق الحشائش إلى الشجرة وكذلك فعلت ماري، وسادت برهة من السكون.

"نعم" صاح ديكون بعد ذلك، وعلا صوته الخفيض نغمة لطيفة.

كانت ماري تحديق فى الشجرة وتفكر.

ابتدر كولن قائلاً: "أصبحت الأفرع رمادية وليس هناك أية ورقة على الشجرة، لقد ماتت تماماً، أليس كذلك؟".

"نعم" وافقه ديكون "ولكن الورود المتسلقة على كل أجزاء الشجرة ستخفى كل بقعة من الخشب الميت، عندما تملؤها الأوراق والأزهار. لن تبدو ميتة حينئذٍ، بل ستكون الأجمل على الإطلاق".

ما زالت ماري تحديق فى الشجرة وتفكر.

قال كولن: "يبدو وكأن غصناً كبيراً قد كُسر، ولكن كيف حدث هذا؟!".

أجاب ديكون: "حدث ذلك منذ سنين عديدة"، ثم تنهد فجأة تنهيدة تعبر عن الارتياح ووضع يده على كولن وقال: "انظر لأبى الحناء هناك ! هذا هو ! لقد كان يبحث عن رفيقته".

نظر كولن إلى أبى الحناء فى آخر لحظة ولم يرَ إلا اندفاع الطائر ذى الصدر الأحمر وكان يحمل شيئاً فى منقاره. اندفع الطائر إلى داخل النباتات الخضراء الكثيفة فى ذلك الركن واختفى عن الأنظار، واتكأ كولن على وسادته ثانية، بضحكة خفيفة.

"إنه يأخذ الشاي إليها. ربما الساعة الآن الخامسة. أعتقد أنني أشتهى بعض الشاي الآن".

وكذلك كانوا آمنين.

"إنه السحر الذى أرسل أبا الحناء"، هذا ما قالتها ماري في سرية لـديكون بعد ذلك، "أنا أعلم، كان ذلك سحراً".

كان كل من ماري وديكون قلقين من احتمال أن يسأل كولن عن الشجرة التى انكسر غصنها منذ عشر سنين، وكانا قد تناقشا في الأمر سوياً، وكان ديكون قد وقف قلقاً وحك رأسه بطريقة تعكس اضطرابه.

وكان ديكون قد قال: "لا بد أن ننظر إليها وكأنها ليست مختلفة على الإطلاق عن الأشجار الأخرى. لا يمكن أن نخبره كيف انكسر غصنها. مسكين هذا الصبي! إذا قال أى شيء عنها فلا بد أن... لا بد أن نحاول التظاهر بالسعادة".

أجابت ماري: "نعم، هذا ما يجب أن نفعله".

ولكنها لم تشعر أنها تظاهرت بالسعادة عندما حملقت في الشجرة. تساءلت وتساءلت في هذه اللحظات القليلة إذا كان ما قاله يكون تلك المرة حقيقياً. وقد استمر في حك شعره الأحمر الأذكن في حيرة، وإن ظهرت بوانر ارتياح بهيجة على عينيه الزرقاوين.

استطرد ديكون متردداً: "كانت مدام كرافن شابة جميلة جداً. وتعتقد أُمى أن روحها كانت تحوم حول ميسلثويت لتعتنى بالسيد كولن، كما تفعل

جميع الأمهات عندما يموت أطفالهن. إنهن يعتقدن أنهم سيرجعون إلى الحياة مرة أخرى، وقد صادف مرة أن كانت فى الحديقة وكانت هى التى توزع الأعمال علينا وأمرتنا أن نحضره إلى هنا.

كانت مارى تعتقد أنه يتكلم عن السحر، حيث إنها تؤمن فى السحر كثيراً. كانت تعتقد فى قرارة نفسها أن سيكون ساحر، ولكنه يستخدم السحر فى الخير فى كل ما حوله، وأن هذا سبب الحب الكبير الذى يكنه الناس له، بل ولأن الحيوانات البرية كانت تعتبره صديقاً لها. فى الواقع تساءلت لو أن موهبته هى التى أحضرت أبا الحناء فى الوقت المناسب تماماً عندما سأل كولن السؤال الخطير. شعرت أن سحره كان يعمل طوال فترة ما بعد الظهيرة وكان قادراً على تحويل كولن إلى صبي مختلف تماماً، حيث لم يعد يبدو أنه هو ذلك المخلوق المجنون الذى صرخ وضرب وسأته ثم أخذ يعضاها. حتى بياضه العاجى المشوب بصفرة بدا أنه يتغير، فبريق لونه الباهت الذى علا وجهه ورقبته ويديه عندما دخل الحديقة أول مرة لم يختف قط. حتى إنه بدا وكأنه مخلوق من اللحم، وليس من العاج أو الشمع.

رأوا أبا الحناء يحمل الغذاء لرفيقتيه مرتين أو ثلاث، وكان من الشهى احتساء الشاى فى ذلك المساء، فشعر كولن أنه لابد أن يحتسوا بعض الشاى.

"أذهبى وقولى لبعض الخدم من الرجال أن يحضر بعض الشاى فى سلة إلى ممشى الورود"، واستطرد قائلاً: "ثم تستطيعين أن تحضره أنتِ ويكون إلى هنا".

كانت فكرة جيدة، وسهلة ، وعندما فرشوا القماش الأبيض على الحشائش، ووضعوا فوقها الشاي الساخن، والخبز المحمص المدهون بالزبد، والكعك الجاف، أكل الجميع وجبة شهية فقد كانوا جوعى، وتوقفت العديد من الطيور التى كانت فى رحلات قصيرة لتتسائل عما كان يجرى فى الحديقة، وأخذت فى استكشاف فتات الطعام المتبقى بنشاط كبير. فأخذ "نات" و "شِل" قطع الكيك لتنقرها فوق الأشجار، وأخذ "سوت" نصف كسرة كاملة من الخبز المدهون بالزبد إلى ركن وصاح بصوته الأجهش عليها حتى قرر أن يبتلعها كاملة فى جرعة واحدة بكل سرور.

كان الأصيل يقترب من ساعته اللطيفة حيث كانت الشمس تكثف من ذهبية أشعتها، وكان النحل يعود إلى بيوته وقلّت أعداد الطيور السابحة فى السماء. كان كل من ديكون ومارى جالسين على الحشائش، وتم حزم صينية الشاي لتؤخذ إلى المنزل. اتكأ كولن على وسادته وقد رفعت خصلات شعره الكثيفة من على جبهته إلى الوراء، واكتسب وجهه لوناً طبيعياً.

قال: "لا أريد أن يذهب هذا الأصيل"، ثم استطرد: "لكنى سأأتى إلى هنا غداً، وبعد غدٍ، وبعد غدٍ، وبعد غدٍ، وبعد غدٍ، وبعد غدٍ".

قالت مارى: "لسوف تتنفس هواء منعشاً بكثرة، أليس كذلك؟".

"لا أنتوى على شىء آخر، هذا يكفي" ثم قال: "لقد رأيت الربيع الآن، وسوف أرى الصيف. سأرى كل شىء ينمو هنا، بل سأنمو أنا هنا كذلك".

"سيحدث هذا" قال ليكون: "سوف تأتي بك لتمشى هنا بل لتحفر أيضاً مثل الآخرين، وما هذا ببعيد".

احمر وجه كولن بشدة، وقال مستغرباً: "أمشي! أحفر! هل سأقدر؟!".

تميزت نظرات ليكون إليه بالحرص الشديد. ولم يكن هو ولا ماري قد سألاه إن كان شيئاً ما يعرقل رجله.

صاح ليكون بقوة: "هذا سيحدث بالتأكيد، فلك أقدام كالآخرين تماماً!".

كان يملك ماري الهلع حتى سمعت إجابة كولن: "إنهما لا يؤلماننى فى الواقع، ولكنهما نحيفتان وضعيفتان جداً، إنهما ترتعشان حتى إننى أخاف أن أحاول أن أقف عليهما".

عندئذٍ التقط كل من ماري و ليكون أنفاسهما بارتياح.

قال ليكون بعد أن جدد ابتهاجه: "ستقف عليهما عندما تتوقف عن الخوف. وسوف تتوقف عن الخوف قريباً".

"هل سأفعل؟" تساءل كولن، ثم سكن فى وجوم كأنما يتساءل عن أشياء.

وساد الهدوء الشديد برهة قصيرة. كانت الشمس تذوب فى الأفق، وكانت هذه هى الساعة التى يُهدئ كل شىء فيها نفسه، وقد كانوا فعلاً

منغمسين فى قضاء مساء ممتع ومثير. وبدا كولن وكأنه يرتاح بكل رفاهية. حتى المخلوقات الأخرى توقفت عن التحرك هنا وهناك، وتجمعت لترتاح قريباً منهم. وآوى "سوت" إلى غصن منخفض وسحب إحدى رجليه ثم غطى عينيه بذلك الغشاء الرمادى الرقيق وسلمهما للنعاس حتى ظنت مارى أن شخيريه سيعلو بعد دقائق.

وسط هذا السكون، كان من المرعب أن يرفع كولن رأسه قليلاً ويتساءل فى انزعاج فى همسة مفاجئة:
"من ذاك الرجل هناك؟".

هب كل من سيكون ومارى واقفين.

"رجل! تساءل بأصوات خفيضة سريعة.

أشار كولن للجدار المرتفع.

"انظرا! همس باهتياج "هيا انظرا! "

تحركت مارى وديكون ونظراً، فإذا هو وجه "بن وذرستاف" الساخط يحملق فيهم من فوق الجدار حيث كان واقفاً على سلم خشبى. كان يهز يده مهدداً مارى.

"لو لم أكن هرمًا وكنت أنتِ تعملين عندي... لأخفيتك! "

صعد درجة أخرى على السلم يتهددها وكأن انفعاله يدفعه لأن يقفز للأسفل ليتعامل معها. ولكن عندما سارت مارى فى اتجاهه، أصبح من

الواضح أنه أعاد التفكير وظل واقفاً على أعلى درجة في السلم وظل يهز يده مهدداً إياها.

"لم أر لك قدراً على الإطلاق!"، صاح بقوة: "لم أتحملك منذ اللحظة الأولى التي وقعت عيناي عليك فيها. ما أنت إلا مقشّة هزيلة(*) شاحبة صغيرة، لا تكفين عن إلقاء الأسئلة المتطفلة وتضعين أنفك هذا في شؤون الآخرين الذين لا يريدونك. أنا لا أعرف كيف صرنا أصدقاء! لو لم يكن أبو الحناء هذا - هذا اللعين!".

"بن وذرستاف!" صرخت ماري بعد أن أخذت نفسها. وقفت تحته وصرخت فيه وهي تلهث: "بن وذرستاف، كان أبو الحناء هو من أرانى الطريق".

كان يبدو أن بن سيسقط من على الجدار إليها فقد تملكه غضب شديد. "أنت أيتها الشيطانة الصغيرة!" صاح فيها من أعلى "تلقين شرك على أبي الحناء ولكنه لا يتصرف بوقاحة تجاه أحد! أهو الذي أراك الطريق! هو! ها! أيتها الحقيرة الصغيرة.."، رأت كلماته التالية وهي تنفجر بشدة لأن الدهشة والفضول تملكاه "كيف يحدث ذلك في هذا العالم؟!".

"كان أبو الحناء هو من أرانى الطريق" احتجت بعناد. "لم يكن يعلم أنه يفعل ذلك ولكنه فعل، ولا أستطيع أن أقنعك بذلك من مكانى هذا فى حين أنك تتهددنى بالتلويخ بيديك".

(*) Young besom : مقشّة مصنوعة من أغصان الشجر .

توقف فجأة عن التلويح بيده فى تلك اللحظة، وانفتح فكه باستغراب عندما حملق فوق رأسها فى شىء رآه قادمًا نحوه فوق الحشائش.

فى بداية هذا السيل من الكلمات كان كولن فى غاية الدهشة من أنه توقف واستمع فقط وكأنه كان مسحورًا، ولكنه استفاق فى أثناء هذا الشجار، وأوماً إلى ليكون ووجه له هذا الأمر الملكى:

"أدفعنى إلى هناك!" ثم أمره قائلاً: "أدفعنى قريبًا منه، لأقف أمامه وجهاً لوجه!"

وهذا هو ما كان "بن وذرستاف" ينظر إليه، وهو ما جعل الاستغراب يفغر فاه: كرسى متحرك ذو وسائل وملابس مترفة تتجه نحوه وهو يشبه عربة ملكية لأن أميرًا كان يتكئ إليه بسمته الملكى وعينييه السوداوين الكبيرتين، ويده البياض النحيفة تمتد ناحيته فى استعلاء وكبرياء. توقف الكرسى تجت أنف "بن وذرستاف" مباشرة وهذا يفسر استغرابه ودهشته.

"هل تعلم من أنا؟"، تساءل الأمير.

كان "بن وذرستاف" يحملق فيه فى دهشة بالغة، ركزت عيناه الحمران الكبيرتان فيما كان أمامه كأنما ينظر إلى شبح. استمر يحدق فيه وبلع ريقه بصعوبة كبيرة، ولم ينبس ببنت شفة.

"هل تعلم من أنا؟"، تساءل كولن بغطرسة ظاهرة". أجب على سؤالى!"

رفع "بن وذرستاف" يده ومررها على عينيه وجبهته ثم أجاب بصوت غريب مهتز:

"من تكون؟"، ثم قال: "نعم أعرف، أنت الذى كانت عين أمك تحملق فى وجهى. الله يعلم كيف أتيت إلى هنا، ولكنك هذا المعوق المسكين".

نسى كولن أن له ظهرًا فى تلك اللحظة، واحمر وجهه خجلًا وانتصب فى جلسته. "لست معوقًا!" صاح فى غضب: "أنا لست معوقًا!"

"إنه ليس معوقًا!" صاحت مارى بصوت عالٍ وكأنها تصرخ فى الجدار فى استياء حاد. "ليس به ورم واحد فى حجم دبوس! لقد نظرت إليه ولم أجد حتى واحدًا - ليس هناك أى ورم فيه!".

مرر بن وذرستاف يده فوق جبينه مرة أخرى وحدق بشدة، كانت يده ترتعش كما كان فمه وصوته يرتعشان أيضًا. كان رجلًا جاهلاً وكبيرًا فى السن، وكان ينقصه الذوق واللياقة ولم يتذكر إلا الأشياء التى سمعها فقط. "أنت... أنت ليس لك ظهر أحذب؟" تساءل بصوت أجش.

"كلا!" صرخ كولن.

"أنت... أليست رجلاك منحنيين؟!" ازداد صوت بن الأجش رعشة واهتزازًا.

كان ذلك كثيرًا جدًا، فاندفعت القوة التى كان يزكى بها كولن نوبات غضبه فى داخله بشكل جديد. لم يقل له أحد قبل ذلك أن رجله كانتا

منحنين، حتى فى الهمسات الجانبية، بل إن مجرد هذا الاعتقاد البسيط الذى أفصح عنه صوت بن وذرستاف كان أكثر مما كان يحتمله لحم الراجا (الأمير) ودمه. دفعه غضبه وكبرياؤه المجروح إلى تناسى كل شىء إلا هذه اللحظة، وملأه بقوة لم يعرفها من قبل، كانت قوة غير طبيعية.

"تعالى هنا ! صرخ فى ديكون، وقد بدأ بالفعل تمزيق القماش عن أطرافه السفلى، وتعرية نفسه". تعالى هنا ! "تعالى هنا ! حالا".

جاء ديكون إلى جانبه فى نفس اللحظة، تحشرج نفس مارى فى جلقها وشعرت أن لونها يشحب.

"يستطيع أن يفعلها ! يستطيع أن يفعلها ! يستطيع أن يفعلها ! نعم يستطيع ! "كانت تهذر هكذا فى سرها بأسرع ما تستطيع.

كان هناك تدافع حاد وسريع، فقد ألقى السجاد على الأرض، أمسك ديكون بذراع كولن، وخرجت الرجلان النحيقتان، ووقفت القدمان النحيقتان على الحشائش. ووقف كولن منتصباً - نعم منتصباً - كالسهم وكان الغريب أنه بدا طويلاً أيضاً، وقد رمى رأسه إلى الخلف على حين كانت عيناه الغريبتان تصدر شرراً مثل البرق.

"انظر إلي ! إندفع إلى بن وذرستاف". فقط انظر إلى - أنت هناك ! فقط انظر إلى !".

"إنه منتصب مثلى تماماً" صرخ ديكون "يستطيع أن يقف كأى صنبى فى يوركشاير !"

لم تصدق ماري ما فعله بن وذرستاف فقد كان لا يصدق. فقد تملكته كحة وشرقة وسالت الدموع فجأة على خديه اللذين امتلأا بالتجاعيد التي سببها الطقس السيئ، وأخذ يضرب كفًا بكف.

"ها ! انفجر فيه قائلاً: "إنن فالناس تكذب؟! إنك نحيف وشاحب كالشبح، وليس فيك أي بثور. سوف تكون رجلاً أخيراً. فليباركك الله!"

قبض ليكون على نراع كولن بقوة مع أن الصبي لم يكن يتداعى، بل وقف قائماً ومنتصباً وكان يحملق في وجه بن وذرستاف.

قال له: "أنا سيدك عندما يكون أبى غائباً. ويجب أن تطيعني. هذه حديقتي. لا تجرؤ أن تقول شيئاً عنها! انزل من على هذا السلم، واهب إلى الممشى الطويل، وسوف تقابلك الآنسة ماري وتحضرك إلى هنا. أريد أن أحدث معك. لم تكن نراك، ولكن سنأتمنك على السر الآن. أسرع!"

كان وجه بن وذرستاف النكد مازال رطباً من أثر ذلك الاندفاع الغريب للدموع في وجهه. بدا وكأنه لا يستطيع أن يرفع عينيه أمام كولن النحيف الذي كان يقف قائماً على قدميه وكانت رأسه إلى الخلف.

"نعم يا غلام"، ثم همس: "نعم يا غلامي!"، وبعد أن تذكر ورجع إلى نفسه، لس فجأة قبعته كما يفعل البستاني وقال: "نعم سيدي! نعم سيدي!"، ثم أطاق الأوامر واختفى عن الأنظار عندما نزل من على السلم.

الفصل الثانى والعشرون

عندما غابت الشمس

عندما غابت رأس بن وذرستاف عن الأنظار، التفت إلى ماري.
قال: "أذهبى للقاءه"؛ وانطلقت ماري عبر الحشائش نحو الباب
المختبئ تحت شجرة اللبلاب.
كان سيكون يراقبه بنظرة حادة. كانت تعتلى وجنتيه بقع قرمزية وبدا
رائعاً، ولكن لم تظهر عليه أى أمارات للسقوط.
قال كولن ورأسه لا يزال مرفوعاً بنبرة يملؤها الفخر: "أنا أستطيع
الوقوف".
أجابه ليكون: "قلت لك أنك ستستطيع متى توقفت عن الشعور
بالخوف، وها أنت ذا قد وقفت".
قال كولن: "بالفعل، لقد وقفت".

وفجأة تذكر أمراً كانت ماري قد نكرته.

سأل بحدة: "هل تصنع السحر؟".

انبسط قم ليكون المستدير ليرسم ابتسامة عريضة مرحة.

قال: "يعنى ذلك أنك أنت نفسك تصنع السحر أيضاً، إنه السحر ذاته الذى جعل هذه تبرز من الأرض"، ولس بحذائه الطويل السميكة أجمة زعفران وسط العشب.

أطرق كولن ناظراً إليها.

قال بترى "نعم، لا سحر أعظم من ذلك الموجود هناك، لا أعظم من ذلك".

قال مشيراً إلى شجرة تبتعد عنه بضعة أقدام: "سأسير إلى هذه الشجرة، سأكون واقفاً عندما يأتى وذرستاف هنا. أستطيع أن أتكى إلى هذه الشجرة إذا أردت. سأجلس فقط إذا شعرت بالحاجة للجلوس ولكن ليس قبل ذلك. أحضر بساطاً من فوق المقعد".

سار كولن إلى الشجرة ورغم أن يكون كان ممسكاً بذراعه، فإنه كان رائع الثبات. عندما اتكأ إلى جذع الشجرة، لم يكن واضحاً أنه مستنداً إليها، وكان يحافظ على استقامة جسده حتى إنه بدا طويلاً.

عندما دخل بن وذرستاف من الباب ، رآه واقفاً هناك وسمع ماري تتمتم بشيء فى صوت خفيض.

سألها على عجل: "ماذا تقولين؟"؛ فهو لم يكن يريد أن يصرف انتباهه عن ذلك الولد صاحب الجسم النحيل المستقيم والوجه الفخور.

ولكنها لم تخبره. وكان الكلام الذى رددته:

"تستطيع فعل هذا! تستطيع فعل هذا! أخبرتك أنك تستطيع! تستطيع فعل هذا! تستطيع فعل هذا! إنك قادر على هذا!"

كان حديثها موجهاً إلى كولن لأنه أراد أن يصنع سحراً يبقيه واقفاً على قدميه كما بدا وقتها. لم تطق أن يستسلم أمام بن وذرستاف. ولكنه لم يستسلم. فقد تملكها شعور مفاجئ بأنه كان يبدو جميلاً رغم نحافته. ركز كولن نظره على بن وذرستاف بطريقته المتعجرفة المضحكة.

وأمره: "انظر إلى!" "انظر إلى جسدى كله! هل ترانى أحذب؟ هل قدماى معقوفتان؟"

لم يكن بن وذرستاف قد تخطى الشعور الذى انتابه، ولكنه أفاق قليلاً وأجاب بطريقته المعتادة.

قال: "لست كذلك، لا تبدو هكذا. ماذا كنت تفعل بنفسك باختباك عن الأنظار وترك الناس يظنونك قعيذاً وأحمق؟"

قال كولن حائقاً: "أحمق!" "من الذى كان يظن هذا؟"

رد بن: "الكثير من الحمقى. هذا العالم يعج بالحمير الناهقة، التى لا تنهق سوى بالأكاذيب. ولكن لماذا عزلت نفسك؟"

قال كولن بإيجاز: "ظن الجميع أنني على مشارف الموت، ولكنني لست كذلك!".

وقد قال ذلك بإصرار جعل بن وذرستاف يتفحصه بنظراته ذهاباً وإياباً من رأسه لأخمص قدميه.

قال بغبطة جافة: "تموت!" "لا شيء من هذا القبيل! إنك تمتلك شجاعة كبيرة. عندما رأيته تطفأ الأرض بقدميك في هذه العجلة، علمت أنك بخير. اجلس على البساط سيدي الصغير وأمل على أوامرك".

كان أسلوبه يتسم بمزيج غريب من العطف المبهم والاستيعاب الفطن. اندفعت ماري في الحديث بأقصى سرعة في أثناء نزولهم من الممر الطويل. وأخبرته أن أهم شيء يجب تذكره هو أن كولن كان يتماثل للشفاء؛ لقد كان يتماثل للشفاء. لقد كانت الحديقة السبب في هذا. لا يجب أن يذكره أحد بالحدبة وبالموت.

تنازل الأمير الهندي (الراجا) ليجلس على بساط تحت الشجرة.

وسأل: "ما العمل الذي تقوم به في الحديقة يا وذرستاف؟".

أجاب بن العجوز: "أى شيء أؤمر بفعله". "لقد أبقوا على بفضل رضاها عني؛ لأنني أعجبتها".

قال كولن: "ومن تكون هي؟".

أجاب بن وذرستاف "أمك".

نظر كولن حوله بهدوء متعجباً: "أمي! كانت هذه حديقته، أليس كذلك؟".

"نعم هذا صحيح!" ونظر وذرستاف حوله أيضاً. لقد كانت شديدة الوله بها".

أعلن كولن: "إنها حديقتي الآن. وأنا مولع بها. سأتي هنا كل يوم". ولكن على أن يبقى هذا سرّاً. أوامرى هي ألا يعلم أى شخص بمجيئنا هنا. لقد عمل ديكون وابنة خالي على إحيائها من جديد. وسأرسل إليك أحياناً للمساعدة؛ ولكن يجب أن تأتي في وقت لا يراك فيه أحد".

تجددت ملامح وجه بن وذرستاف في ابتسامة عجوز يابسة.

قال: "لقد جئت هنا من قبل ولم يرني أحد".

تعجب كولن: "ماذا؟"، "متى؟".

قال وهو يحك ذقنه وينظر حوله: "آخر مرة جئت إلى هنا كانت منذ قرابة العامين".

صاح كولن: "ولكن لم يدخلها أحد منذ عشرة أعوام!". لم يكن هناك باباً".

أجاب بن العجوز في عبوس "لست أحداً يذكر". كما أنني لم آت عبر الباب ولكني أتيت من فوق الجدار. لكن الروماتيزم حرمنى ذلك خلال العامين الماضيين".

صاح كولن: "كنت تأتى وتقليم بعض الأشجار!" "لم أكن أفهم كيف يحدث ذلك".

قال بن وذرستاف على مهل: "لقد كانت شديدة الوله بها؛ لقد كانت كذلك بالفعل! كانت مخلوقاً نضراً جميلاً. أنكر قولها لى ذات مرة وهى تضحك: "بن، إذا حدث ومرضت أو رحلت، عليك أن تعتنى بأزهارى". وعندما رحلت بالفعل، كانت الأوامر ألا يقترب أحد من الحقائق. ولكننى أجيء إليها"، هكذا قالها بعناد حائق". ظللت أجيء من فوق الجدار؛ إلى أن منعنى الروماتيزم، وكنت أقوم ببعض الأعمال مرة واحدة فى العام. لقد كانت من أعطانى الأوامر أولاً".

قال بيكون: "لولاك، لذبلت كما هو حالها الآن. لقد تعجبت كثيراً".
قال كولن: "أنا سعيد بما فعلته يا وذرستاف". "ستكون قادراً على حفظ السر".

أجاب بن: "بالطبع سأفعل يا سيدى، وسيكون من الأسهل لرجل مصاب بالروماتيزم أن يدخل من الباب".

على العشب المجاور للشجرة، أسقطت مارى مقلعها. مد كولن يده والنقطة. اعتلى وجهه تعبير غريب وبدأ ينبش فى الأرض. كانت يده النحيطة واهنة جداً ولكن فى الوقت الحاضر وهم ينظرون إليه - ومارى يملكها فضول صامت - أدرج طرف المقلع فى التراب، وقلب بعضاً منه.

قالت مارى لنفسها: "تستطيع فعل هذا! تستطيع فعل هذا!" ثق بكلامى، أنت تستطيع!".

كانت عينا دىكون يملؤهما الفضول ولكنه لم ينبث ببنت شفة. أما بن وذرستاف، فكان ينظر باهتمام باد على وجهه. استمر كولن. وبعد أن قلب ملء المقلع من التربة عدة مرات، تحدث بابتهاج إلى دىكون بأفصح لهجات يوركشاير.

"لقد قلت إنك تريد أن ترانى أجول فى المكان كغبرى من الناس، وقلت إنك تريد أن ترانى أحفر. ظننت أنك كنت تمنينى فقط لتسعدنى. ولكن هذا لا يزال اليوم الأول وها أنذا أسير وأحفر".

فتح وذرستاف فمه ثانية عندما سمعه، ولكنه انتهى إلى ضحكة خافتة.

قال: "عجباً! يبدو وكأنك صرت نكياً الآن. ابن يوركشاير بحق. وتستطيع أن تحفر أيضاً. ما رأيك لو زرعت نبتة ما؟ أستطيع أن أحضر لك وردة فى أصيص".

قال كولن وهو يحفر بحماس: "أذهب وأت بها! أسرع! أسرع!".

تم الأمر بسرعة. انطلق بن وذرستاف وقد نسى الروماتيزم المتمكن منه. أخذ دىكون مجرافه وجعل الحفرة أعمق وأوسع مما كانت بين أيدي شاحبة نحيفة لحفار جديد. تسللت مارى لتركض وتحضر زجاجة للرى. عندما أضاف دىكون إلى عمق الحفرة، واصل كولن تقليب الطمى اللين

مرارًا وتكرارًا. رفع ناظريه إلى السماء، وكان وجهه متوردًا مشعًا من أثر التمرين الجديد، رغم بساطته.

قال: "أريد أن أفعل هذا قبل أن تغيب الشمس؛ تغيب ولو بعض الشيء".

ظنت ماري أن الشمس ربما تعمدت أن تتوقف لبضع دقائق تمامًا كما أرادوا. أحضر وذرستاف الزهرة في أصيصها من الصوبة. كان يعرج فوق العشب بأقصى سرعته. لقد بدأت الإثارة تتملكه هو الآخر. ركع بن إلى جانب الحفرة وكسر الأصيص من القالب.

قال وهو يمرر النبتة إلى كولن: "تفضل أيها الصبي". أغرسها في الأرض بنفسك، كما يفعل الملك عندما يذهب إلى مكان جديد".

ارتجفت اليدان النحيفتان الشاحبتان قليلاً وزاد كولن توهجًا على حين كان يضع الزهرة في القالب، وكان يمسك الزهرة حتى ينتهي العجوز بن من تثبيت التربة. لقد امتلأت الحفرة وأصبحت التربة بداخلها مضغوطة وجاهزة. كانت ماري منحنية إلى الأمام لرؤية ما يتم عمله. هبط سوت بجناحيه وتقدم ليرى ما يفعلون. وتحدثت وشل عن الأمر من فوق شجرة كرز.

قال كولن أخيرًا: "لقد انتهت زراعتها والشمس لا تزال تنزلق فوق الحافة. ساعدني على النهوض يا ديكون. أريد أن أكون واقفًا عندما تغيب. هذا جزء من السحر".

وبالفعل ساعده ليكون. والسحر -أو أيًا كانت ماهيته- منحه القوة؛
حتى إنه عندما انزلقت الشمس فوق الحافة لتنتهي ذلك النهار السعيد
والغريب بالنسبة لهم، كان واقفًا هناك على قدميه؛ وهو يضحك.

الفصل الثالث والعشرون

السحر

كان دكتور كرافن ينتظر فى المنزل منذ فترة عندما عادوا إليه. وكان قد بدأ يتساءل ما إذا كان من الحكمة أن يرسل أحدهم ليستكشف مسارات الحديقة. عندما أعيد كولن إلى غرفته، نظر الرجل المسكين إليه بجدية.

قال: "ما كان يجب عليك المكوث طوال هذا الوقت، يجب ألا تجهد نفسك".

قال كولن: "لست متعبًا على الإطلاق. لقد تحسنت بفعل هذا. وغداً سأخرج فى الصباح وفى الظهيرة أيضًا".

أجاب دكتور كرافن: "أخشى أننى لا أستطيع السماح لك بهذا، إنه قرار غير حكيم".

قال كولن وهو يعنى ما يقول: "القرار غير الحكيم هو أن تحاول منعى من الخروج، سأخرج".

حتى مارى اكتشفت أن إحدى السمات التى تميز كولن كانت عدم وعيه على الإطلاق بمدى الوقاحة والفظاظة التى كان يتبعها فى إعطاء الأوامر للآخرين. فقد عاش على ما يشبه الجزيرة المهجورة طوال حياته وكان ملكاً عليها، شكّل أخلاقه بنفسه، ولم يكن هناك من يقارن نفسه به. فى الواقع كانت مارى نفسها تشبّهه ومنذ حضرت إلى ميسلثويت اكتشفت تدريجياً أن أخلاقها لم تكن من النوع المعتاد أو المحبوب. وبعد هذا الاكتشاف، شعرت بطبيعة الحال بأهمية إخبار كولن به. لذا، جلست ونظرت إليه لبضع دقائق بعد رحيل دكتور كرافن. لقد أرادت أن يسألها عن سر هذه النظرة. وقد فعل.

قال: "لمَ تنظرين إليّ هكذا؟".

"أشعر بالأسف حيال دكتور كرافن".

قال كولن بهدوء: "وأنا كذلك"، ولكن لم تبد عليه أى علامات للرضا. لن يصل إلى ميسلثويت أبداً، فأنا لن أموت".

قالت مارى: "أأسف لهذا السبب بالطبع، ولكننى كنت أفكر فى ذلك الشعور البغيض حينما يضطر شخص ما أن يتعامل بأدب مع صبي طالما كان وقحاً. لو كنت مكانه، ما فعلت ذلك".

سأل كولن بغير انزعاج: "وهل أنا وقح؟".

قالت مارى: "لو كنت ابناً له، وكان هو من النوع الذى يصفع، لصفعك على وجهك".

قال كولن: "ولكنه لا يجرؤ على فعل هذا".

أجابت الأنسة مارى وهى توضح الأمر دون أى تعصب: "لا، إنه لا يجرؤ. لم يجرؤ أحد قط على فعل ما لا يرضيك؛ لأنك كنت على وشك الموت وأمور من هذا القبيل. لقد كنت مسكيناً حقاً".

أعلن كولن فى عناد: "ولكننى، لن أكون مسكيناً بعد اليوم. لن أسمح للآخرين بأن يرونى هكذا. لقد وقفت على قدمى هذه الظهيرة".

أردفت مارى تفكر بصوت مرتفع: "إن اتباع طريقتك الخاصة فى كل شىء هى التى جعلتك غريب الأطوار".

أشاح كولن برأسه فى عبوس قائلاً: "هل أنا غريب الأطوار؟".

أجابت مارى: "نعم، للغاية"، وأضافت دون تحيز: "ولكن لا داعى لأن تتضايق، لأننى غريبة الأطوار أيضاً وكذلك وذرستاف. ولكننى لست بالقدر الذى كنت عليه من قبل، قبل أن أبدأ أحب الآخرين وقبل أن أعثر على هذه الحديقة".

قال كولن: "لا أريد أن أكون غريب الأطوار، لن أكون كذلك"، ثم عبس ثانية ووجهه ينم عن الإصرار.

لقد كان شديد الكبرياء. ظل راقداً يفكر لبرهة، ثم تابعت مارى ابتسامته الجميلة وبدأت تدريجياً تغير ملامح وجهه.

قال: "سأتوقف عن التصرف بغرابة، إذا قصدت الحديقة كل يوم. فثمة سحر هناك، سحر نافع، أنت تعرفين ذلك يا ماري. أثق بأن السحر هناك".

قالت ماري: "وأنا أيضًا".

قال كولن: "حتى وإن لم يكن سحرًا حقيقيًا، فيمكننا التظاهر بأنه كذلك. ثمة شيء في ذلك المكان؛ ثمة شيء!".

قالت ماري: "إنه السحر، ولكنه ليس أسود. إنه أبيض كالثلج".

لطالما أسموه سحرًا، وقد بدا كذلك بالفعل في الشهور التالية؛ تلك الشهور الرائعة، المشعة، المذهلة. يا لها من أمور تلك التي حدثت في هذه الحديقة! إذا لم تمتلك حديقة قط، فلن تستوعب هذا، وإذا كانت لديك حديقة، فستعلم أنك تحتاج كتابًا كاملاً لتسرد كل ما مر بها. في البداية، بدت النباتات الخضراء وكأنها لن تتوقف أبدًا عن الاستشراء عبر الأرض، وبين العشب، وعلى الفرش، وحتى في شقوق الجدران. ثم بدأت هذه النباتات الخضراء تثمر عن براعم، وأخذت هذه البراعم تتفتح وتظهر ألوانها، كل درجات اللون الأزرق، وكل درجات اللون الأرجواني، وكل ظلال ودرجات اللون القرمزي. في أيامها السعيدة، كانت الزهور تشق طريقها في كل شبر وكل حفرة وزاوية. شهد بن وذرستاف ذلك بعينه وكان يكشف بنفسه الملائم من بين لبنات الجدران ويصنع جيوبًا ترابية لتنمو عليها النباتات المتسلقة الرائعة. كانت حزم من زهور السوسن والزنبق الأبيض تنبت

وسط العشب، وكانت التعريشات فى الحديقة قد امتلأت بحشود من سيقان الزهور الزرقاء والبيضاء لنباتات العايق أو الحوض أو الجريس.

قال بن وذرستاف: "لقد كانت شديدة الولى بهذه الزهور، كانت كذلك حقاً. لأن كلاً منها كان ينظر إلى السماء الزرقاء، كما كانت تخبرنى. لا لأنها كانت تبدو كإحدى الزهرات إذا نظرت إلى الأرض؛ لم تكن كذلك. كانت تحبها كثيراً وقالت إن السماء الزرقاء كانت تملؤها بالبهجة".

نمت البذور التى زرعها كل من بيكون ومارى وكأن جنيات كانت ترعاها. كانت أزهار الخشخاش الساتانية الملمس بكل ألوانها تتراقص مع النسومات فى جماعات، كانت تلك الزهور الأبية المبهجة التى عاشت فى الحديقة لسنوات والتى يجب الاعتراف بأنها بدت وكأنها تتسائل عن كيفية وصول هؤلاء الأشخاص إلى ذلك المكان. وكانت الورود؛ وما أجمل تلك الورود! تعلق هاماتها فوق العشب، تتشابك حول الساعة الشمسية، تتوج جذوع الأشجار وتتدلى من فروعها، وتتسلق الجدران وتنتشر عليها وتتساقط أكاليل الزهور متراحة؛ لقد كانت تعود إلى الحياة يوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة. كانت الأوراق الغضة والكثير والكثير من البراعم التى تبدأ صغيرة ثم تنتفخ وتطلق سحرها حتى تنفتح وتنسدل فى أكواب من الشذا لتنتشر عطرها برقة على حوافها وتملأ هواء الحديقة.

شاهد كولن كل هذا، رأى كل تغيير وهو يحدث. كل صباح، كانوا يحضرونه للخارج وكان يقضى كل ساعة من كل يوم فى الحديقة إذا لم تكن هناك أمطار. حتى الأيام الغائمة كانت تسعده. كان يتمدد على العشب، "يشاهد الأشياء وهى تنمو" على حد تعبيره. وكان يعتقد أنك إذا أطلت النظر

إليها، فسترى البراعم تخرج أغلفتها. ويمكنك أيضًا أن تتعرف إلى حشرة غريبة منشغلة تركض في الجوار لتلحق بمواعيدها المختلفة المجهولة ولكن المهمة أيضًا، ستجدها أحيانًا تحمل بقايا صغيرة من القش أو الريش أو الطعام، أو تتسلق أنصال العشب وكأنها أشجار يستطيع الفرد من فوق قمتها أن يستكشف الريف من حوله. وكان قد شغل تفكيره طيلة صباح كامل حيوان خلد كان يلقي كومة التراب التي صنعها عند نهاية جحره ليشق لنفسه طريقًا أخيرًا بمخالبه الطويلة التي تشبه يد العفريت كثيرًا. منحته أساليب النمل والخنافس والنحل والضفادع والطيور والنباتات عالمًا جديدًا كان عليه استكشافه، وعندما اكتشف كولن أسرار كل هذه العوالم، أضاف إليها أساليب الثعالب وحيوانات مثل القندس وابن مقرض والسنجاب وسمك السلمون المرقط وفأر الماء والغرير، أشياء لا تحصى كان يمكن الحديث عنها والتفكير فيها.

ولم يكن هذا نصف السحر. احتلت حقيقة وقوفه على قدميه ذات مرة بالفعل مساحة كبيرة من تفكيره، وعندما أخبرته ماري بالتعويذة التي أعدتها، كان متحمسًا، وأيدها بقوة. لم يكن ينفك يتحدث عن هذا.

قال بصوت حكيم ذات يوم: "بالطبع يعج عالمنا هذا بالسحر، ولكن الناس لا يدرون كيف يبدو أو كيف يصنعونه. لعل البداية هي أن تقول إن أمورًا جيدة سوف تحدث إلى أن تجعلها واقعًا. سأحاول وأجرب هذه الطريقة".

وفي الصباح التالي، عندما اتجهوا إلى الحديقة السرية، أرسل على الفور في طلب بن ودرستاف. وجاء بن على وجه السرعة ليجد (الراجا)

واقفاً على قدميه تحت شجرة وهو يبدو عظيمًا وتعلو وجهه ابتسامة جميلة.

قال: "صباح الخير يا بن وذرستاف، أريدك أنت وبيكون والأنسة مارى أن تصطفوا هنا وتستمعوا إليّ لأننى سأخبركم بأمر بالغ الأهمية".

أجاب بن وذرستاف واضعاً يده على جبينه: "أوامرك يا سيدي!".
(إحدى السمات الساحرة التى أخفاها بن وذرستاف طويلاً كانت أنه هرب فى صباه ذات مرة إلى البحر وخرج فى رحلات بحرية. لذا كانت ربوده كالبحار).

أوضح الراجا: "سأجرى تجربة علمية، عندما أكبر، سأتوصل إلى اكتشافات علمية عظيمة وسأبأشر الآن هذه التجربة".

قال بن وذرستاف على الفور: "أوامرك يا سيدي!", رغم أن تلك كانت المرة الأولى التى يسمع فيها عن الاكتشافات العلمية العظيمة.

كانت تلك أول مرة تسمع مارى عنها هى الأخرى، ولكن حتى فى هذه المرحلة، بدأت تدرك أن كولن على غرابته قد(يمكنه أن يستلقى على الحشائش ويشاهد نمو الأشياء) قرأ كثيراً عن أشياء فريدة وكان بشكل ما يتمتع بشخصية مقنعة جداً. عندما يرفع رأسه ويوجه نظره إليك، تبدو وكأنك تصدقه رغم أن عمره لم يتجاوز العاشرة؛ أو كان يقارب الحادية عشرة. فى تلك اللحظة، كان مقنعاً جداً لأنه شعر فجأة بروعة إلقاء خطبة كتلك التى يقولها الكبار.



أردف كولن: "ستدور الاكتشافات العلمية العظيمة التي سأتوصد
ليها عن السحر. للسحر شأن عظيم ونادرًا ما تجد من يعرف عنه أ؛
ثنىء باستثناء قلة من الأشخاص فى الكتب القديمة؛ ومارى التى تعرف

القليل عنه بحكم أنها ولدت فى الهند، موطن النساك الهنديين^(*). أعتقد أن سيكون يعرف القليل من السحر، ولكنه قد لا يعى ذلك. إنه يسحر الحيوانات والأشخاص. لو لم يكن ساحرًا للحيوانات - وللأولاد أيضًا حيث إنهم حيوانات - لما سمحت له بزيارتي. أؤمن بوجود السحر فى كل شىء، غير أننا لم نشعر بوجود القدر الكافى منه الذى يجعلنا نتمكن منه ونطوعه ليفعل الأشياء لنا؛ شأنه شأن الكهرباء والخيول والبخار".

كان هذا الحديث مهيبًا جدًا حتى إن بن وذرستاف شعر بالإثارة ولم يتمالك أن يجلس ساكنًا.

قال وقد بدأ يقف باستقامة: "نعم، صحيح يا سيدي".

وتابع الخطيب: "عندما وجدت مارى هذه الحديقة، كانت فى عداد الموتى، ثم بدأ شىء ما ينبش عن الأشياء ليخرجها من تحت الثرى ويصنع شيئًا من لا شىء. بين عشية وضحاها ظهرت أشياء لم تكن موجودة. لم أكن قد رأيت مثل هذه الأشياء من قبل، وقد أثار الأمر فضولى. الأشخاص العلميون دائمًا ما يكونون فضوليين، وأنا سأصبح أحدهم. لا أنفك أقول لنفسى (ما هذا؟ ما هذا؟) إنه شىء ما. فغير معقول أن يكون لا شىء! وحيث إنى لا أعرف له اسمًا فقد سميت (السحر). لم يسبق لى أن رأيت الشمس تشرق ولكن مارى وديكون قد رأياها، ومما سمعته منهما، أنا واثق بأن

(*) Fakirs : النساك الدينيون الهنود: الذين يعيشون على التسول، وغالبًا ما يتبعون القوى السحرية . .

هذا سحر أيضًا. شيء ما يدفعها لأعلى ويجذبها. كنت أنظر أحيانًا منذ أن صرت أجيء إلى الحديقة إلى السماء من خلال الأشجار وينتابني شعور غريب بالسعادة وكأن شيئًا ما يشق طريقه ويتسلل داخل صدري ليسرع من أنفاسي. السحر دائمًا يدفع الأشياء ويجذبها ويخلق أشياء من لا شيء. الجميع مصنعون من (السحر)، الأوراق والأشجار والأزهار والطيور وحيوان الغرير والثعلب والسنجاب وكذلك البشر. لذا، فإنه حتمًا يحيطنا من كل جانب. في هذه الحديقة؛ وفي كل مكان. لقد جعلني (السحر) الموجود في هذه الحديقة أقف على قدمي وأعرف أنني سأحيا حتى أصير رجلاً. سأجرى تجربة علمية بأن أحاول الحصول على بعض من هذا السحر وأضعه بداخلي وأجعله يدفعني ويجذبني ويجعلني أقوى. لا أدرى كيف أفعل هذا، ولكن إذا واصلت التفكير في الأمر واستدعائه، فربما يأتيك. لعل هذه هي أول طريقة طفولية للحصول عليه. عندما كنت أهم بمحاولة الوقوف تلك المرة الأولى، ظلت ماري تقول لنفسها بأسرع ما تستطيع (تستطيع فعل هذا! تستطيع فعل هذا!) وقد استطعت فعلًا. بالطبع كان عليّ أن أجرب بنفسى في الوقت نفسه، ولكن (سحرها) ساعدني؛ وكذلك سحر ديكون. سأردد كل صباح ومساء وطوال اليوم ما استطعت: (السحر بداخلي! السحر يجعلني أتعافى! سأكون قويًا مثل ديكون، سأكون قويًا مثل ديكون!) ويجب أن تفعلوا هذا أيضًا. هذه هي تجربتي. هل ستساعدني يا بن وذرستاف؟

قال بن وذرستاف: "نعم سأفعل! بالطبع يا سيدي".

"إذا واطبتم على فعل هذا أكثر بانتظام كالجنود فى تدريباتهم العسكرية، فسننظر ما يحدث ونكتشف ما إذا كانت التجربة ناجحة. يتعلم المرء الأمور إذا ظل يرددها مراراً وتكراراً ويفكر فيها حتى تترسخ فى ذهنه إلى الأبد وأظن أنى سأتبع الطريقة ذاتها مع السحر. إذا واصلت استدعاءه ليساعدك، فسيصبح جزءاً منك وسيبقى بداخلك ويفعل الكثير".

قالت مارى: "لقد سمعت مرة ضابطاً فى الهند يقول لأمى إن هناك نساكاً هنوداً يرددون أشياء لآلاف المرات".

قال بن وذرستاف بنبرة جافة: "لقد سمعت زوجة جيم فيتلورث تردد الشئ ذاته آلاف المرات؛ كانت تقول عن جيم إنه سافل ثمل، وقد أثمر هذا عن شئ، بالطبع حدث هذا. فقد ضربها، وذهب إلى بلو لايون ليثمل كما يريد".

عبس كولن وفكر لدقائق. ثم عاد وانفجرت أساريره.

قال: "حسنًا، لقد أثمر هذا عن شئ. لقد استخدمت (سحرًا) خاطئًا حتى جعلته يضربها. ولو استخدمت (السحر) الصحيح، وقالت أمورًا مستحبة، ربما لم يكن ليثمل إلى هذا الحد، أو ربما كان سيحضر لها قبعة جديدة".

أصدر بن وذرستاف ضحكة خافتة وبدأت فى عينيهِ العجوزتين الصغيرتين نظرة إعجاب ثابتة.

قال: "إنك صبي بارع كما أنك مستقيم السيقان يا سيد كولن، عندما أرى ببس فيتلورث فى المرة المقبلة، سألح لها بمدى قدرة السحر على مساعدتها. أظنها ستسعد إذا نجحت هذه التجربة العلمية، وكذلك جيم".

كان ديكون واقفاً يستمع إلى المحاضرة وعيناه المستديرتان تلمعان بنشوة الفضول. كان نَتَ وشِل يقفان على كتفيه، وكان يمسك بيديه أرنباً طويل الأذنين وكان يلاطفه برفق على حين كان الأرنب يمد أذنيه على طول ظهره ويستمتع بهذا.

سأله كولن ليعرف رأيه: "هل تعتقد أن التجربة ستنجح؟". فكثيراً ما كان يتساءل عما يجول بذهن ديكون عندما كان ينظر إليه أو إلى أحد "مخلوقاته" بابتسامته العريضة المرحّة.

كان مبتسماً حينها، وكانت ابتسامته أعرّض من المعتاد.

أجاب: "نعم، أعتقد هذا. ستنجح تماماً كما تنبت البذور إذا ما ألقت الشمس بنورها عليها. ستنجح بالتأكيد. هلاً بدأنا الآن؟".

كان كولن وكذلك مارى مسرورين. اقترح أن يجتمعا ويجلسوا تحت ظلة الشجرة وقد ألهمته ذكرى النساك والزهاد الذين أوردتهم فى حديثه.

قال كولن: "سيكون الأمر أشبه بالجلوس فى معبد. أنا متعب أيضاً وأريد الجلوس".

قال ديكون: "ماذا بك؟ يجب ألا تبدأ هذا بقول إنك متعب. فقد يفسد هذا السحر".

التفت كولن ناظرًا إليه بعينيه البريئتين المستديرتين.

قال بتمهل: "هذا صحيح، على أن أكرس تفكيري للسحر فقط".

بدا الأمر سحريًا وغامضًا وهم يجلسون في دائرة. شعر بن ودرستاف أن شيئًا ما جعله يحضر اجتماعًا للصلاة. كان عادةً لا يهتم بما أسماه نوعًا آخر من اجتماعات الصلاة، ولكن لأن هذه الصلاة كانت تخص (الراجا)، فإنه لم يرفضها وكان يسره أن يطلبوه للمساعدة. كانت الآنسة ماري مبتهجة بهذه الشعائر. وكان ديكون قد أمسك بأرنبه تحت ذراعه، ولعله ألقي تعويذة سحرية لم يسمعها أحد، فعندما جلس القرفصاء كالبقية، اقترب منه الغراب والثعلب والسناجب والحمل ببطء ليكملوا الدائرة، جلسوا بجانب الآخرين وكأنهم ينضمون إليهم برغبتهم.

قال كولن برزانة: "لقد أتت المخلوقات، إنها تريد مساعدتنا".

رأت ماري أن كولن كان يبدو رائع الجمال. كان يرفع هامته وكأنه راهب وبعينيه الغريبتين نظرة مذهلة. وكان الضوء ساطعًا فوقه متسللاً عبر ظلة الشجرة.

قال: "لنبدأ الآن، هلاً تمايلنا للأمام والخلف يا مارى مثل الدراويش(*)؟".

قال بن وذرستاف لا أستطيع التمايل للخلف والأمام، فأنا مصاب بداء الروماتيزم".

قال كولن بنبرة راهب راقية: "سيشفيك السحر، ولكننا لن نتمايل قبل أن يفعل ذلك، سننشد فقط".

قال بن وذرستاف: "لا أستطيع الإنشاد. لقد أخرجونى من الكنيسة فى المرة الوحيدة التى حاولت أن أفعل ذلك".

لم يبتسم أحدهم. فقد كانوا جميعاً فى غاية الجدية. حتى وجه كولن، لم تتخلله أى ظلال. فقد كان يفكر فقط فى السحر.

قال: "سأنشد أنا". وأخذ ينشد كروح صبى غريبة. شمس تسطع، شمس تسطع، ذلك سحر. نمو الزهر، ذلك سحر. جذور تنبت، ذلك سحر. حياة الناس هى السحر، قوة بدن هى السحر. السحر يعيش بداخلى، السحر يعيش بداخلى. إنه بداخلى. وبداخل كل منا. السحر فى ظهر بن وذرستاف. أيها السحرا أيها السحر! هلم إلى مساعدتنا!".

لقد ردد ذلك كثيراً؛ لأكثر من آلاف المرات. كانت مارى تستمع مسلوكة اللب. شعرت بغرابة هذا وجماله وإرادته أن يواصل طويلاً. بدأ بن

(*) dervishes : الزهاد المسلمون الذين يؤدون رقصات زهد بالتفاف، وينشدون بغياً للخلاص .

وذرستاف يشعر بالسكينة وكأنه فى حلم يعجبه. اختلط طنين النحل فى الأزهار مع صوت الإنشاد وكأنما أخذ سنة من النوم. كان ليكون يجلس القرفصاء وأرتبه نائم على ذراعه وقد ألقى يده على ظهر الحمل. أما سوت فقد دفع السنجاب بعيداً وجثم قريباً منه على كتفه، وقد غلب النعاس عينيه. وأخيراً توقف كولن.

أعلن قائلاً: "الآن سأتجول فى أنحاء الحديقة". كانت رأس بن وذرستاف قد سقطت للأمام لتوه وقد رفعها بحركة سريعة مفاجئة.

قال كولن: "لقد كنت نائماً".

تمتم بن: "لا شئ من هذا القبيل، لقد كانت الخطبة جيدة بما يكفي؛ ولكن على أن أخرج قبل المجموعة".

لم يكن قد أفاق تماماً وقتها.

قال كولن: "لست فى كنيسة".

قال بن محاولاً رفع ظهره: "لا لست كذلك، ومن الذى قال هذا؟ لقد سمعت كل كلمة قيلت. لقد قلت إن ظهرى فيه سحر. ولكن الأطباء يطلقون عليه الروماتيزم".

لوح (الراجا) بيده.

قال: "كان ذلك سحراً خاطئاً، سوف تتحسن حالتك. أذنت لك بالذهاب إلى عملك. ولكن عليك العودة غداً".

قال بن بصوت نخير: "أود أن أراك تسير فى أرجاء الحديقة". لم يكن صوت النخير ذلك عدائياً، ولكنه كان نخيراً. فى الواقع، نظراً لأنه كان رقيقاً عجوزاً وعنيداً لا يؤمن إيماناً كاملاً بالسحر، فقد قرر أنه فى حال أرسلوه بعيداً، سيتسلق السلم الخشبى وينظر من فوق الجدار ليكون مستعداً يعود أدراجه وهو يعرج فى حالة حدوث أى عثرات.

لم يعترض (الراجا) على بقاءه وتشكلت المسيرة. لقد كانت فعلاً أشبه بمسيرة، يتقدمها كولن وعلى جانبيه ديكون ومارى. وكان بن وذرستاف يسير فى المؤخرة، وتسير فى أعقابهم (المخلوقات)؛ كان الحمل وجرو الثعلب يسيران بالقرب من ديكون، والأرنب الأبيض ما بين تقافز ليواكب المسيرة أو توقف ليقضم بعض الطعام، أما سوت فكان يتبعهم وعليه وقار من يظن نفسه قائداً.

كانت المسيرة تتقدم ببطء ولكن بكبرياء. وكل بضعة ياردات، كانت تتوقف للحصول على بعض الراحة. أمال كولن على ذراع ديكون وكان بن وذرستاف يراقب المشهد بحذر دون أن يلاحظه أحد، ولكن بين حين وآخر، كان كولن يحرر يده من مساعدتها ويسير خطوات قليلة بمفرده. كانت رأسه مرفوعة طوال الوقت، وكان يكسوه ثوب العظمة.

ظل يردد: "السحر بداخلى. السحر يجعلنى قوياً! أستطيع أن أشعر بهذا! أستطيع أن أشعر بهذا!"

بدا جلياً أن شيئاً ما كان يثبتته ويرفعه. جلس على المقاعد الموجودة فى التعريشة، كما جلس مرة أو مرتين على العشب، وكان يتوقف مراراً فى الطريق ويميل على ديكون، ولكنه لم يكن ليستسلم حتى يجول جميع أرجاء الحديقة. عندما عاد إلى ظلة الشجرة، كان خداه متوردين وبدت عليه علامات النصر.

صاح: "لقد فعلتها! لقد نجح السحر!" "هذا هو اكتشافى العلمى الأول".

انطلقت مارى تقول: "ماذا سيقول دكتور كرافن؟".

أجاب كولن: "لن يقول شيئاً، لأننا لن نخبره. سيكون هذا الأمر أهم الأسرار. لن يعرف به أحد حتى أقوى بحيث أستطيع السير والركض كغيرى من الأولاد. سأتى إلى هنا كل يوم على مقعدى وأعود عليه. لن أثير أسئلة الناس وهمسهم ولن أزعج أبى يسمع بهذا حتى يثبت نجاح التجربة. وفى وقت ما، لدى عودته من ميسلثويت، سأسير مباشرة إلى مكتبه وأقول له: "ها أنذا؛ أسير كأى ولد طبيعى. أنا فى تمام الصحة وسأعيش حتى أصير رجلاً. لقد حدث هذا بفضل تجربة علمية".

هللت مارى: "سيظن أنه يحلم، لن يصدق عينيه".

تورد وجه كولن بنشوة الانتصار. لقد أقنع نفسه بأنه سيتحسن، وكانت تلك نصف المعركة، إذا كان على وعى بها. وكانت الفكرة التى تحفزته أكثر من أى شىء آخر هى تلك الصورة التى رسمها فى ذهنه لوالده وكيفية استقباله للأمر عندما يرى أن لديه ابناً مستقيماً القامة صحيح البدن كأبناء

الآخرين. فأكثر ما كان يشقيه خلال الأيام البشعة الماضية التي كان فيها مريضاً هو بغضه لكونه ولدًا مريضاً أحذب يخشى والده أن ينظر إليه.

قال: "لن يملك إلا أن يصدق، إحدى الأمور التي أعتزم فعلها بعد أن ينجح السحر وقبل أن أبدأ بعمل اكتشافاتى العلمية، هى أن أصبح لاعباً قوياً".

قال بن وذرستاف: "سنصطحبك إلى تدريب للملاكمة فى غضون أسبوع، وسينتهى بك الأمر إلى الفوز بالحزام وستصبح بطل إنجلترا المقاتل الحائز على الجوائز".
حرق كولن فيه بعبوس.

وقال: "وذرستاف، تصرفك هذا ينم عن عدم الاحترام. يجب ألا تنجح بخيالك بعيداً لأن الأمر لازال سراً. وبالرغم من هذا، ما إن ينجح السحر، لن أصير مقاتلاً لأحصد الجوائز، ولكنى سأصبح مكتشفاً علمياً".

أجاب بن وهو يلامس جبينه للتحية: "معذرة يا سيدي؛ معذرة. كان على استيعاب أن الأمر لم يكن مزحة". ولكن عينيه كانتا تلمعان وكان فى أعماقه يشعر بسعادة غامرة. لم يكن فى الحقيقة يمانع أن ينهره كولن، لأن هذا النهر كان يعنى أن صحة الصبى تتحسن ومعنوياته ترتفع.

الفصل الرابع والعشرون

دعبيهما يضحكا

لم تكن الحديقة السرية هى الوحيدة التى عمل بها ليكون. كان هناك قطعة من الأرض حول الكوخ فى البرارى محوطة بسور قصير من حجارة متباينة. لم يكن كل من كولن ولا مارى يرونه فى الصباح الباكر ولا عند الشفق فى جميع الأيام، فقد كان يعمل بها بالزراعة والعناية بنباتات البطاطس والكرنب واللفت والجزر وبعض الأعشاب من أجل أمه. كان يفعل العجائب هناك بصحبة "مخلوقاته" ولم يكن يكل أو يتعب كما كان يبدو. فى أثناء حفره أو تنظيفه للنباتات كان يصفر أو يغنى بعض أغانى يوركشاير أو كان يتحدث إلى سوت أو كابتن أو إخوته وأخواته الذين علمهم كيف يساعدونه.

كانت السيدة سوربى تقول: "لم نكن أبداً أكثر راحة من الآن بفضل حديقة ليكون، فكل شىء ينمو لأجله. فالكرنب والخضروات التى يزرعها ضعف حجم مثيلاتها كما أن لها نكهة خاصة".

كانت تختلس اللحظات لتخرج وتتحدث معه. بعد العشاء كان هناك فترة طويلة من الشفق لتعمل بها وكانت تلك لحظة هدوئها. كانت تجلس على الحائط الخشن الصغير وتنظر بعيداً وتستمتع لحكايات ذلك اليوم. كانت تحب ذلك الوقت. ولم تكن الحديقة للخضروات فقط، ولكن سيكون كان قد اشترى بعض الحزم الصغيرة لبذور الزهور من وقت لآخر وبذر أشياء جميلة وزكية الرائحة بين شجيرات العنب وحتى الكرنب، كما زرع خطوطاً من النباتات الفواحة وأزهار القرنفل وأزهار الثالوث ونباتات يستطيع أن يحتفظ ببذورها عامًا بعد عام أو نباتات يمكن أن تلقح نفسها في الربيع وتنتشر عبر الوقت في مجموعات مبهرة. كان الحائط المنخفض أحد أجمل الأشياء في يوركشاير لأنه غطاه نبات قفاز الثعلب وغرسه في كل صدع حتى لم يكن هناك ما يرى من الحائط سوى بقع بسيطة هنا وهناك.

كان يقول: "أفضل ما يمكنني فعله لهذه النباتات كي تزدهر، يا أمي، هو أن أكون صديقاً لها بالفعل. إن ظمأت أسقيها، وإن جاعت أطعمها. إنها تريد أن تعيش مثلنا إذا ماتت هذه النباتات فسأشعر أنني كنت فتي سيئاً وعاملتها بلا قلب".

في هذه اللحظات من الشفق كانت السيدة سوربي تسمع كل ما كان يحدث في ضيعة ميسلثويت. في البداية سمعت أن السيد كولن كان يعجبه الخروج مع الأنسة ماري وأنه كان يتحسن بذلك. ولكن لم يمر وقت طويل حتى اتفق الطفلان على أن أم سيكون يجب أن "تدخل في السر". ولم يشكوا بشكل أو بآخر في أنها "أمينة بالتأكيد".

حكى ليكون القصة بأكملها فى أحد المساءات الجميلة، بكل التفاصيل المثيرة من المفتاح المدفون وأبى الحناء والسديم الرمادى الذى كان يشبه الموت والسر الذى خططت الآنسة مارى لعدم إفشائه. حضوره يكون وكيف قيل له السر، والشكوك حول السيد كولن وقصة تقديمه للملكيته الخفية، مصاحباً ذلك حادثة ظهور وجه بن وذرستاف الغاضب المحدث من فوق الحائط مع قوة السيد كولن الساخطة المفاجئة، كل ذلك جعل وجه السيدة سوربى اللطيف تتقلب ألوانه لمرات متعددة.

قالت: "يا إلهي! كان من الجميل حضور هذه الفتاة الصغيرة إلى الضيعة. كان ذلك بمثابة صنع لها وإنقاذ له. فوقوفه على قدميه، وكلنا كنا نظن أنه فتى مسكين أبله بلا عظمة مستقيمة واحدة فى جسده".

سألت أسئلة كثيرة جداً وبدأ على عينيها الزرقاوين تفتير عميق.

تساءلت: "كيف سيتعاملون مع ذلك فى الضيعة- تحسن حالة الصبى وسعادته وعدم شكواه؟".

فأجاب ليكون: "لا يعرفون ماذا يفعلون، كل يوم يمر يستدير وجهه ويبدو مختلفاً. بدأ وجهه يمتلئ وتتبدد حدته ويتلاشى اللون الشاحب. ولكن عليه أن يحافظ على شكواه". بابتسامة عالية الزهو.

سألت السيدة سوربى: "لماذا، باسم الرحمة؟".

فضحك ليكون.

"لقد نجح فى منعهم من تخمين ما يحدث، إذا علم الطبيب أنه يمكن أن يكتشف إمكانية سيره على قدميه وقدرته على الكتابة فيمكن أن يخبر السيد

كرافن. إن السيد كولن يحتفظ بالسر حتى عن نفسه. سوف يمارس السحر على قدميه كل يوم حتى يعود والده ثم بعد ذلك يسير فى حجرته ويريه أنه معتدل كباقي الصبيان. لكنه والآنسة مارى يعتقدان أن أفضل خطة أن يظل يتأوه ويئن من وقت لآخر لكي يبعد العامة عن الحديث".

كانت السيدة سوربى تضحك ضحكة خافتة مريحة قبل أن ينهى جملته الأخيرة.

قالت: "إيه! أجزم أن هذين الطفلين يستمتعان. فهما بذلك يجريان لعبة تمثيلية، وليس لدى الأطفال أفضل من الألعاب التمثيلية. لنرى ماذا سيفعلون، أيها الفتى سيكون".

توقف ليكون. عن التنظيف ووقف على كعبيه ليخبرها. كانت عيناه تتلألآن مرحًا.

قال مفسرًا: "يحمل السيد كولن إلى مقعده فى كل يوم يخرج. ويصرخ فى جون الخادم لعدم العناية بحمله. يراعى قدر الإمكان أن يبدو عديم النفع ولا يرفع رأسه حتى نكون بعيدين عن أنظار المنزل كله. يقبع ويئن كثيرًا عندما يكون فى مقعده. كان هو والآنسة مارى يستمتعان بذلك، وعندما كان يتأوه أو يشكو كانت تقول: "مسكين يا كولن! هل تؤلك كثيرًا؟ هل أنت بهذا الضعف يا كولن المسكين؟" ولكن المشكلة هى أنهما أحيانًا كانا لا يتمالكان نفسيهما من الانفجار فى الضحك. عندما نكون فى مأمن فى الحديقة، يظلان يضحكان حتى لا يسعفهما التنفس لضحك أكثر. وكان عليهما أن

يلصقا وجهيهما فى وسائد السيد كولن حتى لا يسمعهما البستانيون إن كان أحدهم بالقرب".

قالت السيدة سوربى وهى لا تزال على ضحكتها: "كلما ضحكا أكثر، كان ذلك أفضل لهما. فضحك الطفل الصحيح أفضل بكثير من حبة دواء واحدة فى العام. سوف يسمن هذان الطفلان بالتأكيد".

قال ديكون: "إنهما يسمنان، إنهما يظلان جائعين ولا يكفان عن الطعام حتى يبدأ فى الحديث. يقول السيد كولن إن ظل يطلب طعامًا أكثر فلن يصدق أحد أنه مريض بالمرّة. تقول الآنسة مارى إنها سوف تدعه يأكل نصيبها، لكنه يقول إنها إن ظلت جائعة فستصير نحيفة وبالتأكيد سيسمنان فى الحال".

ضحكت السيدة سوربى من كل قلبها لإفشاء هذه الصعوبة حتى إنها حركت مقدمة ومؤخرة عباؤها، وضحك ليكون معها.

قالت السيدة سوربى عندما استطاعت الكلام: "سأقول لك شيئاً يا ولدى، لقد فكرت فى طريقة تساعدك. عندما تذهب إليهما فى الصباح خذ معك دلوًا من اللبن الجيد الطازج وسوف أخبز لهما رغيفًا كوخياً قشرياً أو بعض الكعك بالعنب، الأطفال يحبون ذلك مثلك. ما من شيء أفضل من اللبن والخبز. وبعد ذلك سوف يضعان حدًا لجوعهما فى أثناء وجودهما فى الحديقة أما الطعام الفاخر فى المنزل فسوف يكون للرفاهية".

قال ليكون يا عجاب: "إيه يا أمي! يالروعتك! دائماً عندك حل لكل شىء. لقد كادا يهلكان بالأمس. ولم يعرفا كيف يمكنهما طلب المزيد من الطعام- لقد شعرا بأن معدتيهما خاويتان".

قالت السيدة سورجى: "إنهما صغيران ينموان بسرعة، والصحة تعود لكليهما. يحب الأطفال ما تشعر أن الذئاب يحبون والطعام بالنسبة إليهم هو لحمهم ودمهم". ثم ابتسمت بنفس ابتسامة يكون المحدية. وقالت: "إيه! ولكنهما يستمتعان بلا شك".

كانت محقة تماماً هذه الأم المريحة الرائعة. ولم تبالغ حينما قالت إن سعادتهم فى لعبهم التمثيلى. فقد وجد كل من كولن ومارى هذه التمثيلية أحد أهم مصادر الإثارة والترفيه. بدأت فكرة إبعاد أنفسهم عن الشكوك بشكل لا إرادى عن طريق تحير الممرضة ثم دكتور كرافن نفسه.

قالت الممرضة ذات يوم: "تتحسن شهيتك كثيراً، سيد كولن، كنت معتاداً ألا تأكل شيئاً، ولم يكن يناسبك أطعمة كثيرة".

أجاب كولن: "كل شىء يناسبنى الآن"، فرأى الممرضة تحقق فيه بشكل فضولى فتذكر أن ليس عليه إبداء لياقته وتحسنه بعد". على الأقل ليس كل الأوقات، ذلك بفضل الهواء النقى".

قالت الممرضة ولا تزال تنظر إليه بتعبير متحير: "ربما هو كذلك، لكن على أن أتحدث مع د. كرافن بخصوص ذلك".

قالت ماري عندما ذهبت المريضة: "كيف كانت تحديق فيك! وكأنها تعتقد أن هناك شيئاً لا يد من معرفته".

قال كولن: "لن أدعها تكتشف شيئاً، لا أحد يجب أن يعرف بعد".

عندما حضر د. كرافن ذلك الصباح بدا متحيراً أيضاً. وجه بعض الأسئلة حتى بدا الغضب الشديد لكولن.

قال: "إنك تظل بالخارج في الحديقة وقتاً طويلاً، أين تذهب؟".

فارتدى كولن قناع الموافقة المجللة على الرأس.

أجاب: "لن أدع أحداً يعرف أين أذهب، فأنا أذهب إلى مكان أحبه. والجميع لديهم الأوامر أن يتنحوا بعيداً عن طريقي. لا أريد أن يراني أحد أو يحديق بي أحد. وأنت تعرف ذلك".

"يبدو أنك تخرج طوال اليوم ولا أظن أن هذا أضرك بشيء. فالمريضة تقول إنك تأكل أفضل من أي وقت مضى".

فقال كولن، وقد تنبه إلى إلهام مفاجئ: "ربما، ربما هي شهية غير معتادة".

قال د. كرافن: "لا أعتقد ذلك، فيبدو أنك تشتهي طعامك، وجسمك بدأ يكسوه اللحم بسرعة ولونك للأفضل".

قال ليكون، متظاهراً بمسحة من الكآبة: "ربما- ربما أكون متورماً ومحموماً، والذين يدنون من الموت يبدون دائماً مختلفين".

هز د. كرافن رأسه. كان ممسكاً بمعصم كولن، رفع كفه وتحسس ذراعه. قال وهو يفكر: "لست محمومًا، ولحمك الذي اكتسبته شيءٌ صحتي. لو داومنا على ذلك يا ولدي، فلن نحتاج للكلام عن الموت. سيكون أبوك سعيدًا جدًا لو سمع بهذا التحسن الملحوظ".

فانتفض كولن مقاطعًا بعنف: "لا أريد أن يخبره أحد. فسيخيب ذلك أمله لو صحتي تدهورت مرة ثانية— وربما تسوء حالتي هذه الليلة. ربما ينتابني حمى عنيفة. أشعر بها تتخللني الآن. لا أريد أن تكتب خطابات لأبي— لا أريد — لا أريد! تغضبونني وأنتم تعرفون أن ذلك يزيد حالتي سوءًا. أشعر بحرارة بالفعل. أكره أن يكتب عني وأن يتحدث عني كما أكره أن يُحرق في".

فهدأه د. كرافن وقال: "حسنًا حسنًا يا ولدي، لن يكتب شيءٌ دون الرجوع إليك. أنت حساس فوق العادة. ولا يجب عليك أن تتشاءم مما هو جيد".

لم يتحدث أكثر عن الكتابة للسيد كرافن، وعندما رأى الممرضة حذرًا بشكل منفرد أن مثل هذا التطور لا يجب أن يذكر للمريض.

قال: "إن الولد أفضل على غير العادة. يبدو تحسنه غير طبيعي تقريبًا. لكنه يفعل الآن بإرادته الحرة ما لم نستطع أن نجعله يفعله في الماضي. ولكنه لا زال يفعل بسهولة ولا يجب أن يقال شيءٌ يغضبه".

انزعج كل من كولن ومارى وتحادثا معاً بقلق. ومنذ ذلك الوقت أسميا خطتها بـ "التمثيلية".

قال كولن بشيء من الندم: "ربما أضطر للدخول فى نوبة غضب، لا أريد نوبة غضب ولست بائساً بشكل كاف الآن لأدخل نفسى فى نوبة كبيرة. وربما لا أستطيع أن أفعلها مطلقاً. فهذا الاحتقان لا يأتى لحلقى الآن ولا أتوقف عن التفكير فى أشياء جميلة بدلاً من الأخرى المرعبة. ولكن إذا تحدثوا عن الكتابة لأبى فسأضطر لفعل شيء".

قرر أن يقلل من أكله، لكن لسوء الحظ لم يعد يستطيع التحكم فى شهيته عند استيقاظه من النوم وهو يجد الإفطار على المائدة قريباً من أريكته وعليه الخبز المنزلى والزبد الطازج والبيض ومربى التوت والقشدة المخثرة. كانت مارى دائماً تقطر معه وعندما كانا يجلسان على المائدة - بالتحديد لو كان هناك شرائح لذيدة من فخذ الخنزير الحار جداً والذى يبعث برائحة مغرية من تحت الغطاء الفضى، فكانا ينظران فى عيون بعضهما فى يأس.

كان كولن دائماً ما ينتهى إلى قوله: "أظن أن علينا أن نأكله كله هذا الصباح يا مارى، يمكن أن نعيد بعضاً من الغداء وقدراً كبيراً من العشاء".

لكن وجداً أنهما لم يستطيعا إبعاد أى شيء من الطعام، وكانت الأوانى المسوحة بعناية دائماً ما تعود إلى المطبخ لتأتى تعليقات كثيرة.

كان كولن يقول أيضاً: "أتمنى من كل قلبى لو كانت الشرائح أكثر سماكة وفطيرة واحدة ليست كافية لكل واحد".

أجابت ماري عندما سمعت ذلك لأول مرة: "إنها كافية لشخص مقبل على الموت، لكنها ليست كافية لشخص مقبل على الحياة. أظن أنني يمكنني أن أكل ثلاثة عندما تأتي الروائح الذكية لنباتات الخلج والجولق من البراري وتتدفق عبر النافذة".

في الصباح التالي، وبعد أن استمتعوا في الحديقة لساعتين، ذهب ليكون خلف شجيرة زهور وأحضر معه دلوين مغلقين وقال إن أحدهما مليء باللبن الطازج الدسم المغطى بالقشدة، والآخر يحوى كعكًا بالعنب مصنوعًا بالكوخ وملفوفًا في منديل نظيف ملون بالأبيض والأزرق، وكان الكعك مرصوفًا بعناية حتى إنه كان لا يزال ساخنًا، فصاحا صيحة فرح من المفاجأة. يالها من فكرة رائعة من السيدة سوربي! لا بد أنها امرأة ذكية وماهرة! ما كان أجمل هذا الكعك! وما كان ألد اللبن الطازج!.

قال كولن: "يكن بها سحر كما يكن بديكون، يجعلها تفكر في وسائل عديدة لصنع أشياء—أشياء جميلة. إنها شخص ساحر. قل لها إننا ممتنون لها يا ديكون—ممتنون للغاية".

كان قد اعتاد على استخدام تعبيرات البالغين في بعض الأحيان. كان مستمتعًا بالطعام. أحب الطعام كثيرًا حتى إنه أكد على ذلك كثيرًا. قل لها إنها دائمًا ما كانت كريمة، ونحن عرفانًا لها كبير.

ثم نسي فخامته وانكب على الكعك يأكل منه وشرب اللبن من الدلو بظماً شديد بطريقة أئى صبي جائع مارس مجهودًا غير عادى وتنفس من هواء البراري وكان طعامه منذ أكثر من ساعتين.

كان هذا واحدًا من مواقف القبول العديدة من ذلك النوع. وقد تنبها حقيقة إلى أن السيدة سوربي المسؤولة عن إطعام أربعة عشر فردًا ربما لا تجد ما يكفي لشهيتين إضافيتين كل يوم. لذلك طلبا منها أن تسمح لهما بإرسال بعض من مصروفهما لشراء بعض الأشياء.

أحرز ليكون اكتشافًا مثيرًا، ففي الغابة خارج الحديقة حيث وجدته مارى أول مرة وهو يعزف لمخلوقاته، يوجد تجويف عميق بعض الشيء يمكن أن يبنوا به فرنًا صغيرًا بالطوب ويشوون البطاطس والبيض فيه. لم يكن البيض المشوى متعة معروفة من قبل والبطاطس الساخنة مع الملح وبعض من الزبد الطازج، وهذه مناسبة الملك على أرض براري- بجانب كونها لذيذة جدًا. يمكنك أن تشتري البيض والبطاطس، وتأكل كما يحلو لك دون الشعور بأنك تأخذ الطعام من أفواه أربعة عشر فردًا.

كل صباح جميل كانوا يعقدون جلسة السحر فى الدائرة السرية تحت شجرة البرقوق والتي صنعت ظلة من ورق الأشجار الكثيف بعد أن انتهى وقت إزهارها القصير. بعد الجلسة، كان كولن دائمًا يمارس تمرين المشى وخلال اليوم كان يمرن قواه الجديدة فى أوقات الراحة. كان يزداد قوة كل يوم وكان يستطيع المشى بثبات أكثر ولمسافة أكبر. وكل يوم كان يزداد إيمانه بالسحر- كما كان يجب أن يكون. كان يجرب التجربة بعد الأخرى وشعر بأنه يكتسب القوة وكان سيكون هو من يريه أفضل الطرق.

قال ذات صباح بعد غياب: "بالأمس، ذهبت إلى ثوبت لأمى، وقريباً من كوخ البقرة الأزرق رأيت بوب هاورث^(*). إنه أقوى فتى فى البرارى. فهو بطل المصارعة ويستطيع أن يقفز أعلى من أى فتى آخر، كما يستطيع أن يقذف المطرقة لأبعد مسافة. فى بعض السنوات كان يمشى طوال الطريق إلى اسكتلندا من أجل الرياضة. يعرفنى منذ أن كنت طفلاً وهو من النوع الودود، وقد سألته بعض الأسئلة. يسمونه رياضياً، وقد فكرت فيك يا سنيد كولن وقلت له: "كيف تجعل عضلاتك تبرز بهذا الشكل يا بوب؟ هل كنت تفعل أشياء إضافية لتقوى جسمك؟ فقال لى: "هل أنت الولد الضعيف؟" فقلت: "لا، ولكننى أعرف شاباً يخرج الآن من فترة مرض طويلة وأرغب فى معرفة بعض الألعاب لأنقلها له. لم أذكر أية أسماء له ولم يسألنى. إنه ودود كما قلت، وقف وأرانى بعض الحركات وقلدتها حتى حفظتها عن ظهر قلب".

كان كولن يستمع بإثارة.

صاح: "هل تستطيع أن ترينى؟ هل تستطيع؟".

فأجاب ليكون وهو ينهض: "نعم، كن متأكداً، ولكنه يقول يجب أن تؤديها بلطف فى البداية وكن حريصاً ألا ترهق نفسك. استرخ من وقت لآخر وخذ نفساً عميقاً ولا تبالغ فى التمرين".

(*) Bob Haworth : ربما تصور لقرية هورث اليوركشايرية، بيت أسرة الكتاب الإنجليز تشارلوت وآن وإيميلى بروننتى من عام ١٨٢٠ إلى ١٨٥٤ م .

قال كولن: "سأكون حريصًا، أرني! أرني! يا سيكون، إنك أكثر الفتيان سحرًا فى العالم".

وقف ليكون على الحشائش وتحول ببطء إلى ممارس بعناية ولكن أشكال بسيطة من التمارين. كان كولن يشاهدهما وعيناه مشدوهتان. استطاع أن يمارس قليلاً منها وهو جالس. ثم أدى بعضاً من التمارين بلطف على قدميه اللتين كان قد وقف عليهما بالفعل. بدأت مارى تؤديها أيضاً. عندما رأى سوت هذا العرض صار منزعجاً جداً وترك غصنه وحوم دون توقف لأنه لم يستطع أن يؤديها بالمثل.

منذ ذلك الوقت، أصبحت هذه التمارين جزءاً من الأعمال اليومية مثل جلسة السحر. أصبحت التمارين ممكنة على كل من كولن ومارى كلما قاما بها وتلك شهيتهما فقداهما سوى من السلة التى اعتاد ليكون أن يضعها خلف الشجيرة كل صباح. ولكن الفرن الصغير ومنح السيدة سوربى كانوا مرضين لهما، حتى إن السيدة ميدلوك والمرضة ود. كرافن صاروا متحيرين مرة أخرى. يمكنك أن تقلل من شأن إفطارك وتبدو كأنك تزدري عشاءك إن كنت ممتلئ البطن بالبيض والبطاطس المشويين واللبن الغنى بالزبد والكعك والفطائر وعسل النحل والقشدة المخثرة.

قالت الممرضة: "لم يأكلا شيئاً، سيموتون من الجوع إن لم يقتنعا بتناول بعض الطعام. ولكن انظرى كيف يبدوان".

قالت السيدة ميدلوك متعجبة: "انظري! أكاد أموت بسببهما، إنهما شيطانان صغيران. معطفاهما سينفجران يوماً ما، ولم يلتفت أنفاهما إلى أفضل الوجبات لأفضل الطهارة. ما من لقمة من هذا الديك الجميل ولا شربة الخبز ولم يضعها فيها شوكة بالأمس- والمرأة المسكينة تدعوها إلى حلوى البودنج- ثم يرداها ثانية. لقد كانت تبكي. تخشى أن يلوماها إن تضورا جوعاً في قبrierهما".

حضر د. كرافن وتفحص كولن طويلاً وبغناية. بدا عليه تعبير غاية في القلق عندما تحدثت معه الممرضة وعرضت عليه الإفطار الذي لم يلمس وقد احتفظت به لكى يراه- ولكن زاد القلق عندما جلس بجوار كولن على أريكته وفحصه. كان قد تم استدعاؤه إلى عمل فى لندن وغاب حوالى أسبوعين. والصغار دائماً ما يظهر عليهم التحسن بسرعة. كان اللون الشاحب قد ترك وجه كولن وتبدل بلون وردى دافئ. كانت عيناه الجميلتان صافيتين وقد امتلأت الثغور تحت عينيه وعلى خديه. بدت خصلات شعره الدكناء الثقيلة وكأنها تفجرت بالصحة من جبهته وكانت ناعمة ودافئة بالحياة. شفتاه كانتا أكثر امتلاءً ولونهما طبيعى. فى الحقيقة، كان كولن ذا منظر بائس حتى يؤكد على كونه الطفل المريض. أمسك د. كرافن بذقنه ويده وفكر فيه ملياً.

قال: "أأسف لسماع أنك لم تأكل شيئاً، لن يفيدك ذلك وستفقد ما اكتسبته من الوزن- وقد زاد وزنك بشكل مدهش. منذ مدة قصيرة كنت تأكل بشكل جيد جداً".

أجاب كولن: "قلت لك إنها كانت شهية غير طبيعية".

كانت ماري جالسة على مقعدها بمقربة منهما، وفجأة صدر منها صوت غريب جداً حاولت بشدة من خلاله أن تعبر أنها صدمت.

قال د. كرافن وهو يحول نظره إليها: "ما الخطب؟".

أصبحت ماري قاسية تماماً في تصرفاتها .

أجابت بوقار واضح: "كانت شيئاً بين السعال والعطش، ودخلت في حلقى".

وقالت بعد ذلك لكولن: "ولكن، لم أستطع أن أتحكم في نفسي. فقد انطلقت فقط عندما لم أمتنع نفسي من تذكر آخر قطعة بطاطس أكلتها وكيف انبسط فمك عندما كنت تقضم كسرة من الخبز بالمربى وعليها القشدة المخثرة".

فسأل د. كرافن السيدة ميدلوك متعجباً: "هل هناك أية طريقة يستطيع هذان الطفلان من خلالها أن يحصلوا على طعام سرّاً؟".

فأجابت السيدة ميدلوك: "ما من طريقة إلا إذا حفرا له في الأرض أو التقطاه من على الأشجار، إنهما يظلان في الأرض الزراعية طوال اليوم ولا يريان أحداً إلا كليهما. ولو كانا يريدان طعاماً مختلفاً عن الذي يرسل إليهما لكانا طلباه".

قال د. كرافن: "حسنًا، بما أن عدم الطعام لا يقلقهما، فلا داعي أن نزعج أنفسنا. فالولد مخلوق جديد".

قالت السيدة ميدلوك: "وكذلك البنت، لقد بدا عليها الجمال منذ أن امتلأ جسمها وفقدت شكلها القبيح البائس. أصبح شعرها سميكًا وصحيًا كما ازدهر لونها. كانت معتادة أن تكون أكثر شيء كئيبي ومريض الطباع وهي الآن تضحك مع السيد كولن وكأنهما طفلان مجنونان. ربما يسمنان بذلك.

قال د. كرافن: "ربما، دعيهما يضحكان".

الفصل الخامس والعشرون

الستار

وازدهرت الحديقة السرية مرات ومرات، وفي كل صباح كانت تأتي بمعجزات جديدة. فى عش أبى الحناء كان هناك البيض، ورقدت وليفة أبى الحناء على البيض حتى يظل دافئاً، بصدرها الريشى الضئيل وأجنحتها الراحية. فى البداية تملكته العصبية وكان أبو الحناء نفسه يترقب بشيء من السخط. وحتى يكون لم يذهب إلى الركن المتنامى القريب فى هذه الأيام، وإنما انتظر هادئاً لك بعض الأعمال الغامضة، التى كان يبدو أنه نقلها إلى روح الزوجين الصغيرين؛ بأنه لم يكن هناك فى الحديقة أى نظير لهما - لا شيء لم يعرف روعة ما كان يحدث لهما - جمال ووقار البيض الهائل الرقيق المخيف الفاجع. وإذا كان هناك شخص واحد، فى تلك الحديقة، لم يعرف فى قرارة نفسه أنه إذا لم تؤخذ البيضة بعيداً أو تصيب العالم بأكمله، فإنها يمكن أن تدور وتصطدم عبر الفضاء وتنتهي - إذا كان هناك شخص واحد لم يشعر بها، وتصرف وفقاً لذلك، فربما قد لا يكون هناك سعادة حتى فى

هذا الجو الربيعي الذهبي. ولكنهم جميعًا عرفوا ذلك وشعروا به وعلمت وليفته أنهم عرفوه.

فى البداية شاهد أبو الحناء كل من مارى وكولن بقلق شديد. ولسبب غامض فقد علم أنه لا يحتاج إلى رؤية ليكون. وفى اللحظة الأولى، وجه عينه السوداء البراقة بالندى إلى ليكون، وعلم أنه لم يكن غريبًا، وإنما كان نوعًا من طائر أبى الحناء بدون منقار أو ريش (وهى لغة متميزة تمامًا لا يخطئها أى شخص). والتحدث بلغة أبى الحناء إلى أبى الحناء، يكون مثل تحدث اللغة الفرنسية إلى رجل فرنسى. ودائمًا ما تحدث ليكون بهذه اللغة إلى أبى الحناء نفسه؛ لذلك فإن الكلام الغامض الذى استخدمه، عندما تحدث إلى البشر، لم يكن له أهمية فى النهاية. واعتقد أبو الحناء أنه تحدث هذا الكلام الغامض إليهم؛ لأنهم لم يكونوا أذكاء بما يكفي؛ كى يفهموا كلام الطيور. ودائمًا ما كانت حركاته هى حركات أبى الحناء. ولم يندهشوا لأى حركات؛ بأن يكونوا مفاجئين بالقدر الكافى، لكى يبدوا خطرين أو مهددين. ويمكن لأى من طيور أبى الحناء أن يفهم ليكون؛ لذا فإن وجوده لم يكن مصدرًا للإزعاج.

ولكنه كان يبدو - فى البداية - بحاجة إلى حراسة ضد الاثنين الآخرين. وفى البداية فإن مخلوق الصبى لم يأت إلى الحديقة على قدميه. فقد دفع على شىء ذى عجالات وألقيت عليه جلود الحيوانات البرية. وكان هذا بذاته مثيرًا للشك. وبعد ذلك؛ عندما بدأ فى الوقوف، والتجول، فعل هذا بطريقة غريبة وغير معتادة وكان يبدو هناك ضرورة لمساعدته من الآخرين. وقد

اعتاد أبو الحناء أن يتخلص من فضلاته فى شجيرة، وينظر إلى الشجيرة قلقاً وقد مالت رأسه فى البداية على جانب واحد، وبعد ذلك على الجانب الآخر. وقد اعتقد أن الحركات البطيئة ربما كانت تعنى أنه كان يعد للقفز كما تفعل القطط. وعندما تستعد القطط للقفز فإنها تزحف على الأرض فى ببطء شديد. وقد تحدث أبو الحناء بهذا، إلى وليفته، بقدر كبير لأيام قليلة ولكنه قرر بعد ذلك عدم التحدث عن الموضوع لأن أبا الحناء كان خائفاً من أن تتلف وليفته البيض.

وعندما بدا الصبى يسير بنفسه ويتحرك سريعاً فقد كان هذا للتخفيف عنه. ولكن لفترة طويلة- أو كانت تبدو فترة طويلة لأبى الحناء - كان الصبى مصدرًا لبعض القلق، فهو لم يتصرف مثل باقى البشر. وكان يبدو مغرمًا بالمشى ولكن كان له طريقة للجلوس أو الرقود لفترة والاستيقاظ بعد ذلك بارتباك؛ ليبدأ من جديد.

وفى يوم من الأيام؛ تذكر أبو الحناء أنه عندما تعلم هو نفسه الطيران، على يد والديه؛ فقد فعل هو ذلك أيضاً. وقد قام برحلات قصيرة ليارات قليلة وبعد ذلك ألزم على الراحة. لذلك فقد حدث له أن هذا الصبى كان يتعلم الطيران - أو بالأحرى المشى. وقد ذكر هذا لوليفته، وعندما أخبرها أن الصغار ربما يوجهون أنفسهم فى الطريق نفسه بعد أن ينبت ريشهم، كانت مستريحة تماماً وأصبحت مستمتعة وانتابتها سعادة غامرة من مشاهدة الصبى على حافة العش- رغم أنها دائماً ما اعتقدت أن الصغار قد يكونون أكثر مهارة وأكثر سرعة فى التعلم. ولكنها قالت بعد ذلك بتسامح إن البشر

دائمًا ما كانوا أكثر سماجة وبطئًا من صغار الطيور ومعظمهم لم يبد مطلقًا أنه يتعلم الطيران على الإطلاق. أنت لم تقابلهم أبدًا فى الهواء أو على أعلى الأشجار.

وبعد فترة بدأ الصبى يتجول مثلما فعل الآخرون ولكن كل من الأطفال الثلاثة فعلوا ما هو غير عادى. كان يمكنهم أن يقفوا تحت الأشجار ويحركوا أذرعهم وأرجلهم ورؤوسهم بطريقة لم تكن مشيًا أو جريًا أو جلوسًا. وقد جربوا هذه الحركات فى فترات كل يوم ولم يكن أبى الحناء قادرًا مطلقًا على أن يشرح لوليفته ما كانوا يفعلونه أو يحاولون فعله. أمكنه فقط أن يقول إنه كان متأكدًا من أن الصغار لا يمكن مطلقًا أن يخفقوا بهذه الطريقة ولكن حيث يمكن للصبى أن يتحدث لغة أبى الحناء بهذه الطلاقة كان يفعل هذا معهم فإن الطيور يمكن أن تكون متأكدة تمامًا من أن التصرفات لم تكن خطيرة بطبيعتها. وبالطبع فإن أبى الحناء ووليفته لم يسمعا مطلقًا عن مصارع الأبطال، بوب هاورث، كما أن تمارينه لتقوية العضلات تظهر مثل الأورام. وطيور أبى الحناء ليست مثل البشر فعضلاتها دائمًا ما تمارس من البداية ولذلك فإنها تطور نفسها بطريقة طبيعية. وإذا كنت بحاجة إلى الطيران والعتور على كل وجبة تأكلها؛ فإن العضلات لا تضمّر (الضامرة تعنى المستهلكة من خلال الحاجة إلى الاستخدام).

وعندما كان الصبى يمشى ويجرى ويحفر ويزيل الأعشاب مثل الآخرين فإن العش - فى الركن- كان يحتضنهم بسلامة وارتياح بالغ.

وقد أصبحت المخاوف من البيض أشياء من الماضي. وبمعرفة أن البيض كان آمناً كما لو أنه وضع في قَبْوٍ وحقيقة أنك يمكن أن تشاهد الكثير من الأشياء المثيرة للفضول تحدث جعلت المكان هو العمل الأكثر ترفيهاً. وفي أيام المطر شعرت أم البيض في بعض الأحيان بقليل من التبلد لأن الأطفال لم يصلوا إلى الحديقة.

ولكن حتى في أيام المطر لم يمكن القول بأن كلاً من ماري وكولن كانا متبلدين. وذات صباح عندما كانت الأمطار تتدفق دون توقف وكان كولن ينتابه شعور بقليل من الضجر؛ حيث كان مجبراً على البقاء على أريكته، لأنه لم يكن في مأمن للاستيقاظ والمشى، توصلت ماري إلى الإلهام.

وقال كولن: "الآن أصبحت صبيّاً حقيقياً وأرجلى وأذرعى وكل جسمى مليء بالسحر حتى إننى لا يمكن أن أتحمل ثباتهما. إنهم يريدون عمل كل الأشياء فى وقت واحد. هل تعلمين ماري أنه عندما استيقظت فى الصباح، عندما كان الوقت مبكراً والطيور تصيح بالخارج، وكل شيء يبدو مجرد صياح من أجل السعادة - حتى الأشجار والأشياء التى لا يمكننا أن نسمعها حقاً - أشعر كما لو أننى يجب أن أقفز من السرير وأصرخ بنفسى، وإذا فعلت، فتخيلى ما يمكن أن يحدث!"

قهقهت ماري بشكل مغال فيه.

"يمكن أن تأتى الممرضة بسرعة ويمكن أن تأتى ميدلوك بسرعة ويمكن أن يكونوا متأكدين من أنك أصبحت مجنوناً ويمكن أن يطلبوا الطبيب" قالت ذلك:

ابتسم كولن نفسه، وأمكنه أن يرى كيف يمكن أن يظهروا جميعاً- كيف كانوا مرعوبين من هذا الضحك، وكيف كانوا مذهولين من رؤيته يقف مستقيماً.

قال أتمنى أن يأتى والدى إلى المنزل، وأريد أن أقول له بنفسى ذلك، وسوف أفكر فى هذا دائماً ولكن لا يمكننا أن نسير، فى هذا الاتجاه طويلاً فلا يمكننى أن أتحمل الاستمرار فى الكذب، والإدعاء، وبجانب ذلك فأنا أبدو مختلفاً إلى حد ما وأتمنى لو أنها لم تكن تمطر اليوم.

وبعد ذلك جاء الإلهام إلى السيدة ماري

كولن: بدأت بشكل غامض تسأل: "هل تعرف عدد الغرف الموجودة فى هذا المنزل؟".

أجاب: "أتصور أنه يتكون من ألف غرفة".

قالت ماري: "هناك حوالى مئة غرفة لا يذهب إليها أى شخص".

وذات يوم مطير ذهبت ونظرت إلى الكثير منها ولم يعرف أحد رغم أن السيدة ميدلوك وجدتنى تقريباً فقد ضللت طريقى فى أثناء عودتى وتوقفت فى نهاية غرفتكم. وقد كانت هذه هى المرة الثانية التى أسمعك فيها تصرخ.

بدأ كولن ينهض من على الأريكة،

قال: "مئة غرفة لا يذهب إليها أحد إن هذا يبدو تقريباً كحديقة سرية. نفترض أننا ذهبنا ونظرنا إليها يمكنك أن تنقلينى على كرسى ولا يعرف أحد أين ذهبنا".

قالت مارى: "هذا ما كنت أتصوره فلا أحد يمكن أن يجرؤ على تتبعنا وهناك معارض يمكنك أن تديرها ويمكننا أن نقوم بممارسة التمارين، وهناك غرفة هندية صغيرة بها كابينة مليئة بأفئال العاج وهناك جميع أنواع الغرف".

قال كولن: "دقنى الجرس".

عندما دخلت الممرضة أعطاها أوامره.

قال: "أريد كرسيًا فسوف أذهب أنا والسيدة مارى لننظر إلى الجزء غير المستخدم من المنزل. يمكن أن يدفعنى جون بعيدًا عند معرض الصور لأن هناك بعض السلالم وبعد ذلك يجب عليه أن يذهب بعيدًا ويتركنا وحدنا حتى أطلبه مرة أخرى".

أدت الأيام المطيرة إلى فقدانهم المخاوف هذا الصباح. وعندما قام الخادم بدفع الكرسي إلى معرض الصور وترك الاثنين معًا طاعة للأوامر، نظر كل من كولن ومارى إلى بعضهما مبتسمين وبمجرد أن تأكدت مارى من أن جون كان بالفعل قد عاد إلى ركنه الخاص تحت السلالم خرج كولن من كرسيه.

قال: "سوف أجرى من أحد أطراف المعرض إلى الطرف الآخر وبعد ذلك سوف أقفز وبعد ذلك سوف نقوم بممارسة تمارين هاورث لقفز الحبل".

فعلوا ذلك كله والكثير من الأشياء الأخرى ونظروا إلى الصور ووجدوا الفتاة الصغيرة الجميلة ترتدى زيًا مطرًا وتمسك ببيغاء بإصبع يدها.

قال كولن: "لابد أن كل هؤلاء أقاربى وقد عاشوا منذ فترة طويلة، وأعتقد أن هذا البيغاء كما أتصور كان ملكاً لإحدى عماتى من جيل قديم جداً . تبدو مثلك إلى حد ما يا ماري- ليس كما تظهرين الآن وإنما كما ظهرت عندما جئت إلى هنا. والآن فقد أصبحت أكثر بدانة وأفضل شكلاً".

قالت ماري: "وأنت كذلك" وضحكا معاً.

ذهبا إلى الغرفة الهندية واستمتعا بأفياال العاج ووجداً قماشاً مطرزاً باللون الوردى وفتحة فى الوسادة تركها الفأر ولكن الفئران نمت وتركت الفتحة فارغة. شاهدا الكثير من الغرف وحققا اكتشافات أكثر مما حققته ماري فى طوافها الأول وقد وجداً طرقات وأركان جديدة وأماكن خطوات وصور قديمة جديدة أحباها وأشياء قديمة غريبة لم يعرفا استخدامها. وقد كان صباحاً ممتعاً بشكل فضولى كما أن شعور التجول فى المنزل ومعهم الآخرين ولكن فى الوقت نفسه شعور بأنه كما لو كانا على بعد أميال منهم وكان هذا الشعور شيئاً مبهراً.

قال كولن: "سعيد بأن جئنا فأنا لم أعرف مطلقاً أننى عشت فى هذا المكان القديم الكبير العجيب وقد أحببته وسوف نتجول فيه كل يوم مطير وسوف نجد الأركان والأشياء المريبة والعجيبة".

فى هذا الصباح وجداً من بين الأشياء الأخرى أذواقاً جيدة كتلك التى وجدأها عندما عادا إلى غرفة كولن فلم يكن من الممكن إرسال الغذاء بعيداً دون اللمس.

وعندما نقلت الممرضة الصينية لأسفل قامت برميها على دولا ب أطباق المطبخ بحيث يمكن للسيدة لوميس الطاهية أن ترى الأطباق والأواني وقد أكلا كل ما بها فظهرت عالية النظافة.

قالت: "أنظري إلى هذا إن هذا منزل الغموض، وهذان الطفلان هما أعظم نواحي الغموض فيه".

قال الخادم الصغير القوى جون: "إذا استمرا في هذا كل يوم فلا عجب من أنه يزن اليوم ضعف وزنه منذ شهر مضى، وعلى أن أتنازل عن مكاني يوماً ما خشية من أن يسبب إصابة لعضلاتي".

في هذه الظهيرة لاحظت ماري أن شيئاً جديداً قد حدث في غرفة كولن ولاحظته في اليوم السابق ولكن لم تقل شيئاً لأنها اعتقدت أن التغير ربما حدث مصادفة ولم تقل شيئاً اليوم ولكنها جلست ونظرت نظرة ثابتة إلى الصورة على الرف، كما أنه أمكنها أن تنظر إليها لأن الستارة سحبت جانباً وكان هذا هو التغير الذي لاحظته.

قال كولن بعد أن ظلت محدقة لدقائق قليلة: "أعلم ما تريد أن أقوله لك، فأنا دائماً ما أعرف متى تريد مني أن أقول لك شيئاً ما. تتساءلين لماذا تسحب الستارة للخلف، سوف أجعلها تبقى هكذا".

سألت ماري: "لماذا؟".

"لأنه لم يعد بعد يجعلني غاضباً أنا أراها تضحك، فقد استيقظت عندما كان ضوء القمر ساطعاً منذ ليلتين، وشعرت بأنه كما لو أن السحر كان يملأ الغرفة ويجعل الجميع مبهوراً بأنني لا يمكن أن أبقى ثابتاً، وقد استيقظت

ونظرت من خارج النافذة، وكانت النافذة مضيئة تمامًا، وكان هناك رقعة من ضوء القمر على الستارة وبطريقة ما فقد جعلنى هذا أذهب وأسحب الحبل. وقد نظرت لأسفل إلى كما لو أنها كانت تضحك لأنها كانت سعيدة لوقوفى هناك وهذا جعلنى أود النظر إليها، وقد أردت أن أراها تضحك هكذا طوال الوقت، وأعتقد أنها ربما كانت نوعًا من الشخص الثأري".

قالت مارى: "أنت الآن مثلها الآن. أعتقد أنك ربما شبحتها الذى صار صبيًا".

كانت تبدو هذه الفكرة مبهرة لكولن فقد فكر فيها. وبعد ذلك أجاب عليها ببطء.

"إذا كنت شبحتها - فسوف يكون أبى معجبًا بى".

تساءلت مارى: "هل تريد أن يكون والدك معجبًا بك؟".

"تعودت أن أكره هذا لأنه لم يكن معجبًا بى، وإذا أصبح معجبًا بى فأتصور أننى يجب أن أكلمه عن السحر، وهذا يمكن أن يجعله أكثر ابتهاجًا".

الفصل السادس والعشرون

"إنها الأم"

كان إيمانهم بالسحر شيئاً واضحاً فبعد تعويذات^(*) الصباح قدم لهم كولين محاضرات فى السحر.

شرح قائلاً: "أحب أن أفعل هذا لأنه عندما أكبر وأحقق اكتشافات علمية عظيمة سأكون ملزماً بتقديم محاضرات عنها ولذلك فإن هذا تدريب. يمكننى فقط أن أقدم محاضرات قصيرة الآن لأننى صغير جداً وبجانب ذلك يمكن أن يشعر بن ودرستاف كما لو أنه فى كنيسة ويمكن أن ينام".

قال بن: "أفضل شئ عن تقديم المحاضرات هو أنه يمكن أن يأتى فتى ويسأل إن كان أسعدنا ولا يجيب عليه أحد. ولن أقدم بنفسى ولو محاضرة ضئيلة فى وقت ما".

(*) Incantations : كلمات ومقطوعات منطوقة أو منشودة فى طقوس السحر.

ولكن عندما جلس كولن تحت شجرته ظل بن العجوز يلقي بنظراته الثاقبة إليه بتأثر متفحص. ولم تكن المحاضرة هي ما شغله بقدر ما شغلته الأرجل التي كانت تبدو أكثر استقامة وأقوى كل يوم والرأس الصبى الذى استوى بشكل جيد، والذقن والخدين اللذين كانا حادين ونحيفين فى يوم من الأيام وقد أصبحا مكورين وممتلئين، والعينان اللتان بدأتا تحويان الضوء ، فتذكر عينين أخريين. فى بعض الأحيان عندما كان يشعر كولن بنظرة بن الفاحصة والتي كانت تعنى أن بن أكثر انبهاراً، كان يتساءل عما كان ينظر إليه، ذات مرة عندما كان يبدو مبهوراً سأله:

"فيم تفكر يا بن وذرستاف؟".

أجاب بن: "كنت أفكر لو أنى اكتسبت ثلاثة أو أربعة جنيهاً هذا الأسبوع، وكنت أنظر إلى السيقان وإلى الأكتاف ووددت أن أضعك على ميزان".

. قال كولن: "إنه السحر وفتائر السيدة سوربى وألبانها وأشياؤها التى تجعلك ترى أن التجربة العلمية قد نجحت".

فى هذا الصباح تأخر ليكون فلم يحضر المحاضرة. عندما جاء كان متورداً من الجرى ووجهه الضحوك كان يبدو أكثر تألقاً من المعتاد. حيث كان لديهم قدر كبير من أعمال إزالة الأعشاب بعد سقوط الأمطار. ودائماً ما كان لديهم قدر من العمل الذى يقومون به بعد الأمطار الغزيرة الدافئة. والرطوبة التى كانت جيدة للأزهار كانت جيدة أيضاً للأعشاب التى تدافعت على أوراق العشب الصغيرة ونقاط الأوراق التى كان يجب أن تنزع قبل أن

تنشر جذورها. وكان كولن يجيد إزالة الأعشاب مثل أى شخص فى هذه الأيام وأمكنه أن يعطى محاضرة فى أثناء عمله.

قال هذا الصباح: "يعمل السحر بشكل أفضل عندما تعمل بنفسك، ويمكنك أن تشعر بهذا فى عظامك وعضلاتك. سوف أقرأ كتباً عن العظام والعضلات وسوف أكتب كتاباً عن السحر فقد عقدت العزم على ذلك الآن. إننى دائم اكتشاف الأشياء".

لم تمض فترة طويلة بعد قوله هذا عندما وضع رافعة النبات على الأرض ووقف على قدميه وكان صامتا لعدة دقائق، ورأوا أنه كان يفكر فى المحاضرات كما فعل غالباً، وعندما ألقى برافعة النبات ووقف مستقيماً كان يبدو لمارى ويكون كما لو أن هناك فكرة قوية مفاجئة جعلته يفعل ذلك وقد شد نفسه من أطول ارتفاع وألقى بذراعيه مبتهجاً ومهلاً وتوهج اللون فى وجهه واتسعت عيناه الغريبتان بالسعادة، وفى مرة واحدة أدرك شيئاً ما بأكمله.

صرخ قائلاً: "ماري! سيكون! انظرا إلى!"

توقفا عن إزالة الأعشاب ونظرا إليه،

سأل: "هل تتذكران أول صباح جئتما بى فيه إلى هنا؟".

كان ليكون ينظر إليه نظرة متصلبة وحيث كان مغرماً بالحيوانات فإنه أمكنه أن يرى أشياء أكثر مما يمكن لمعظم الأشخاص أن يروها، وكان الكثير منها أشياء لم يتحدث عنها مطلقاً فقد رأى بعضها الآن فى هذا الصبى.

أجاب: "هذا ما نفعله".

نظرت ماري متصلبة ولكنها لم تقل شيئاً،

قال كولن: "هذه اللحظة فقط كل ما تذكرته هذه اللحظة بنفسى- عندما

نظرت إلى يدي تحفر برافة العشب وكان على أن أقف على أحد قدمي لأرى ما إذا كان هذا حقيقياً أم لا. وإنه حقيقي! أنا بخير- أنا بخير!".

قال ليكون: "حسنًا هذا فن".

قال كولن مرة أخرى: "أنا بخير! أنا بخير! وأحمر وجهه تمامًا مرة

أخرى".

عرف هذا من قبل بطريقة ما وفتحته وشعر به وفكر فيه ولكن فى هذه

اللحظة جاء شيء بخاطره- نوع من الاعتقاد الراسخ والإدراك وكان قوياً حتى إنه لم يمكنه الخروج منها.

صرخ صرخة عالية: "سأعيش للأبد ولأبد الأبد! سأكتشف آلاف

وآلاف الأشياء سأكتشف الأشخاص والمخلوقات وكل شيء ينمو مثل يكون

ولن أتوقف مطلقاً عن عمل السحر. أنا بخير! أنا بخير! أشعر- أشعر كما

لو أننى أذهب لأصرخ بشيء ما- شيء من الشكر ومن السعادة!".

نظر حوله بن وذرستاف والذى كان يعمل بالقرب من براعم القروء.

اقترح بصوت مرتفع وجاف: "هذا يمكن أن يرتل تسابيح الشكر"^(*) ولم يكن له رأى فى تسابيح الشكر، ولم يقدم اقتراحًا بأى توقير أو تقدير خاص. ولكن كولن كان يتمتع بعقل مستكشف، ولم يعرف شيئًا عن تسابيح الشكر.

تساءل: "ما هذا؟".

رد بن وذرستاف: "يمكن أن يرتلها ليكون لك وسوف أضمن ذلك".
أجاب ليكون بابتسامته التى تمثل ابتسامة ساحر الحيوانات.
قال: "إنهم يرتلون فى الكنيسة، الأم تقول إنها تؤمن بأن الكروان يغنيها عندما يستيقظ فى الصباح".
أجاب كولن: "إذا كانت تقول هذا فإنها لابد أن تكون أغنية لطيفة".
"لم أذهب مطلقًا إلى الكنيسة بنفسى، فدائمًا ما كنت مريضًا إلى حد ما. رتلها يا ليكون أريد أن أسمعها".
كان ليكون بسيطًا تمامًا وغير متأثر بها، وقد فهم ما شعر به كولن أفضل من كولن نفسه، وفهم بنوع من الغريزة الطبيعية حتى إنه كان يفهم وسحب غطاء الرأس ونظر حوله مبتسمًا.

(*) Doxology : ترتيل مسيحي قصير لشكر الرب: كآب وابن وروح قدس .

قال لكولن: "هذا يجب أن يخلع غطاء الرأس، وهكذا يتذكر يا بن ويجب أن يقف وهو يعرف".

قام كولن بخلع غطاء الرأس، وسطعت الشمس عليه، ودفأت شعره السميك عندما كان يراقب ليكون عن قصد. وتدافع بن وذرستاف من ركبتيه وقام بتعرية شعره أيضاً بنوع من النظرة المحيرة شبه الاستنكارية على وجهه القديم كما لو أنه لم يعرف بالتحديد لماذا كان يقوم بهذا الشيء الملحوظ.

وقف ليكون بين الأشجار وبراعم الورود، وبدأ يرتل بطريقة واقعية بسيطة تماماً وبصوت صبي لطيف ونقي:

"حمداً للرب الذي به تتم الصالحات".

"حمداً له على جميع مخلوقاته".

"حمداً له فوق العاقل السماوي".

"حمداً للأب والابن والروح القدس".

آمين.

وعندما انتهى كان بن وذرستاف يقف ساكناً وفكاه ثابتان ولكن بنظرة منزعجة في عينيه تنصب على كولن وكان وجه كولن مفكراً ومقدراً.

"إنها أغنية لطيفة للغاية، وأنا أحبها، فهي ربما تعني ما أقصده بالتحديد عندما أريد أن أصرخ وأقول إنني شاكر للسحر"، توقف وفكر

بطريقة محيرة: "ربما يكون كلّ منها نفس الشيء"، فكيف يمكننا أن نعرف الأسماء المحددة لكل شيء؟ رتلها مرة أخرى يا ديكون هيا نحاول يا مارى أريد أن أرتلها أيضًا إنها أغنيتي. كيف تبدأ؟ حمداً للرب الذى به تتم الصالحات؟".

ورتلوها مرة أخرى، ورفع كل من مارى وكولن صوتهما بشكل موسيقى بقدر ما استطاعا وارتفع صوت ديكون عاليًا وجميلًا وفى السطر الثانى بين بن ودرستاف حنجرتهم مرتفعة وفى السطر الثالث انضم بهذا التضخم الذى كان يبدو همجيًا تقريبًا، وعندما جاءت "أمين" إلى النهاية لاحظت مارى أن نفس الشيء قد حدث له وهو ما حدث عندما اكتشف أن كلاً لم تكن عائقًا فذقنه كان ينتزع، وعندما كان يحملق ويومض بعينيه كانت خدوده العجوزة رطبة. قالت بصوت أجش: "أنا لم أشهد مطلقاً أى إحساس بتساييح الشكر هذه من قبل ولكن يمكننى أن أغير رأيتى فى وقت ما، يجب أن أقول إن هذا ارتفع خمسة أرتال هذا الأسبوع، سيد كولن - خمسة هذا الأسبوع!".

كان كولن ينظر عبر الحديقة إلى شيء يجذب انتباهه كما أن تعبيره أصبح متوقفاً مرة أخرى.

قال سريعاً: "من القادم هنا؟" من هو؟.

دفع الباب فى حائط اللبلاّب وكان مفتوحاً بلطف ودخلت سيده وجاءت بالسطر الأخير من أغنيته التى كانوا يستمعون إليها وينظرون

إليها. وكان خلفها اللبلاب وضوء الشمس يطل عبر الأشجار ويسقط على عباءتها الزرقاء الطويلة ووجها اللطيف الناضج يبتسم فى وسط الخضرة فقد كانت تصويرًا ملونًا ناعمًا إلى حد ما فى أحد كتب كولن، وقد كان لها عيناان حائرتان كان يبدو أنهما يأخذان كل شىء هما جميعًا، وبين ودرستاف نفسه "مخلوقات" وكل وردة كانت تزهر. وكما كانت تبدو بشكل غير متوقع فلم يشعر أىّ منهم بأنها كانت متطفلة على الإطلاق فقد أضاءت أعين ديكون مثل المصابيح.

صرخ وذهب عبر العشب جريًا "إنها الأم- إنها.هي!".
بدأ كولن يتحرك نحوها أيضًا وذهبت معه مارى وشعر كلّ منهما بأن النبضات تدق بسرعة أكبر.

قال ديكون مرة أخرى عندما التقوا فى منتصف الطريق: "إنها الأم! أعرف أنها أرادت أن تراها وقلت لها أين كان يختفى الباب".
أمسك كولن بيده بنوع من الخجل الملكى ولكن عينيه التهمت وجهها تمامًا.

قال: "حتى عندما كنت مريضًا أردت أن أراك أنت وديكون والحديقة السرية ولم أرغب مطلقًا فى رؤية أى شخص وأى شىء قبل ذلك".
أحدثت رؤية الوجه المرفوع تغيرًا مفاجئًا فيها، فقد ابتهجت كما أن أركان قمها ارتعدت وكان يبدو أن الضباب ينتشر حول عينيه.

اندفعت قائلة: "أيها الغلام العزيز! أيها الغلام العزيز".

كما لو أنها لم تعرف أنها كانت ستقولها. لم تقل "سيد كولن" وإنما فقط "أيها الغلام العزيز" فجأة وربما قالتها لذيكون بنفس الطريقة لو أنها رأت شيئاً في وجهه يلمسها. وقد أحبها كولن..

تساءل: "هل أنت مندهشة لأننى بخير!"

وضعت يدها على كتفه وابتسمت والضباب يخرج من عينيها .

قالت: "نعم أنا ولكن هذا هو الأمر لأن أمك هي من جعلت قلبي يقفز".

قال كولن بقليل من الجبن: "هل تعتقدين أن هذا سيجعل والدي يحبني؟".

أجابت وربت على كتفه قائلة: "بالطبع أيها الغلام العزيز فإنه سيعود— إنه سيعود".

قال بن وذرستاف وهو يقترب من سوزان سوربي: "سوزان سوربي انظري إلى أرجل الغلام أليس هذا؟ كانت مثل نقارة الطهور التي تدق منذ شهرين وسمعت الناس تقول إنها كانت تمس كلاهما في وقت واحد انظر إليهما الآن!".

ضحكت سوزان سوربي ضحكة مريحة.

"سوف تكون رجلا الغلام القوى الناعمة قليلة ولنتركه يذهب ويستمر فى اللعب والعمل فى الحديقة ويأكل ويشرب الكثير من اللبن الحلو الطيب ولن يكون هناك إصبعان فى يروكشاير، نشكر الرب على هذا".

دفعت كلتا اليدين على أكتاف السيدة مارى ونظرت إلى وجهها الصغير بطريقة الأمومة.

قالت: "وأنت أيضاً يظهر نموك بشكل ملحوظ مثل ليزبيس ألين وسوف أضمن أن هذه ستكون مثل أمك أيضاً فقد قالت لنا مارثا عندما سمعت السيدة ميدلوك إنها كانت امرأة جميلة وسوف تكونين مثل الوردة المتفتحة عندما تنمو أنت يا معشوقتى الصغيرة أباركك".

لم تذكر أنه عندما جاءت مارثا إلى المنزل فى هذا اليوم ووصفت الطفل الشاحب أنها قالت إنه لم يكن لديها أية ثقة من أى نوع فيما سمعته السيدة ميدلوك وأضافت بعناد: "لا يمكن أن أتصور أن سيدة جميلة يمكن أن تكون أمًا لهذه الصغيرة الغبية".

لم يكن لدى مارى وقت لتوجه الكثير من الاهتمام إلى وجهها المتغير فقد عرفت فقط أنها كانت تبدو "مختلفة" وكان يبدو أن لديها الكثير من الشعر، وأنها كانت تنمو سريعًا ولكن بتذكر سعادتها فى النظر إلى مدام سهيب فى الماضى فقد كانت سعيدة بأن تسمع أنها يمكن أن تبدو فى يوم من الأيام مثلها.

تجولت سوزان سوربى حول الحديقة معهم وحكوا لها قصة الحديقة الكاملة وأروها كل برعم وكل شجرة دبت فيها الحياة. ساركولن إلى جانبها ومارى على الجانب الآخر وظل كلُّ منهما ينظر إلى وجهها الوردى المريح محتفظين سرًّا بالمشاعر المبهجة التى منحتهما لهما- نوع من الشعور الدافئ المعزز. وكان يبدو كما لو. أنها فهمتهم حيث إن سيكون فهم "مخلوقاته". وقد انحنت على الورود وتحدثت عنه كما لو أن الورود أطفال. كان صوت يتبعها مرة أو مرتين نعب إليها ثم حط على كتفها كما لو أنه كان كتف سيكون. وعندما حكوا لها عن أبى الحناء والرحلة الأولى لطيوحه الصغيرة ضحككت ضحكة بها نوع من الأمومة.

قالت: "أظن أن تعليمهم الطيران مثل تعليم الأطفال المشى ولكننى أخشى ولا أدارى قلقى لو أن أولادى كان لديهم أجنحة بدلاً من الأرجل".

كان هذا لأنها كانت تبدو امرأة رائعة بطريقتها الخاصة حتى إنه فى النهاية حكى لها عن السحر.

سألها كولن بعد أن شرح فكرة الناسك الهندى: "هل تؤمنين بالسحر؟ أمل أن تكونى مؤمنة به".

أجابت: "أؤمن به أيها الغلام ، لم أكن أعرفه مطلقاً بهذا الاسم، ولكن ما الذى يعنيه الاسم؟".

أثق أنهم يعطونه اسماً مختلفاً فى الفرنسية واسماً مختلفاً فى الألمانية. نفس الشيء فى مثل إنبات البذور وسطوع الشمس وقد جعلك

غلامًا جيدًا، وهذا هو الشيء الطيب. إن هذا ليس كما نعتقد نحن الفقراء الحمقى إن دعينا بأسماء غير أسمائنا. فالشيء الطيب الكبير لا يتوقف عن أن يوجد ويباركك. إنه يستمر في صنع عوالم بالملايين - عوالم مثلنا. لا تتوقف عن الإيمان بالشيء الجيد الكبير ومعرفة العالم المليء به، وسمه كما تحب. كنت تغنى له عندما جئت إلى الحديقة.

قال كولن وقد فتح عينيه الغريبتين الجميلتين : "أشعر أننى فى غاية السعادة، وفجأة أشعر كيف كنت مختلفاً، وكيف كانت ذراعى ورجلاى قوية كما تعلمين، وكيف يمكننى أن أحفر وأقفز وقد قفزت وأردت أن أصرخ لأى شيء يمكن أن يستمع".

"كان السحر يستمع عندما قمت بترتيل تسابيح الشكر. وكان من الممكن له أن يستمع إلى أى شيء تغنيه. وقد كانت السعادة هى ما يهم. حسناً أيها الغلام - أياً كانت المسميات التى تعطىها لصانع السعادة".

وَرَبَّتْ عَلَى كَتْفِهِ مَرَّةً أُخْرَى.

كانت قد قامت بتعبئة سلة وكأنها خرجت فى عيد اعتيادى هذا الصباح. وعندما دقت ساعة الجوع، وجاء ليكون بالسلة من مكان اختبائها جلست معهم تحت شجرتهم وراقبتهم وهم يلتهمون طعامهم ويضحكون ويستمتعون بمذاق الطعام. كما كانت مفعمة بالمرح وجعلتهم يضحكون على كل أنواع الأشياء الغريبة. حكّت لهم قصصاً من تراث يوركشاير وعلمتهم كلمات جديدة. وضحكت وكأنها لم تتمالك نفسها عندما حكوا لها عن تزايد الصعوبة فى التظاهر بأن كولن كان لا يزال مريضاً.

شرح كولن: "ترين أننا لا نتمالك أنفسنا من الضحك طوال الوقت عندما نكون معًا ولا يبدو هناك شيء من المرض على الإطلاق. فنحن نحاول أن نصنع صدمة بهذا الخبر، ولكن الأمر سوف ينفجر، وهذا يبدو أسوأ مما كان من قبل".

قالت ماري: "هناك شيء واحد يراودنى مرارًا، ونادرًا ما يُمكننى أن أستمع عندما تواتينى هذه الفكرة فجأة. فأنا لا أزال أفكر لو أصبح وجه كولن مثل البدر، لم يصل شكله إلى ذلك بعد، ولكنه يصبح أفضل كل يوم - وأفترض أنه إذا أصبح ذات صباح بهذا الشكل - ما الذى يجب أن نفعله؟".

قالت سوزان سوربى: "يباركنا الرب جميعًا، أرى أن هذا جزءًا من مسرحية تمثلونها، ولكن هذا لا يجب أن يستمر لفترة أطول من ذلك فسوف يأتى السيد كرافن إلى المنزل".

سأل كولن: "هل تعتقدين أنه سيأتى؟ ولماذا".

ابتسمت سوزان سوربى بصوت خافت.

"أفترض أنه سيتأثر قلبه لو أنه اكتشف قبل أن تعرفه بطريقتك الخاصة فقد سهرت الليالى تخطط له".

قال كولن: "لا أتحمل أن يحكى له شخص آخر، وأفكر فى طرق مختلفة كل يوم وأريد الآن فقط أن أجرى إلى غرفته".

قالت سوزان سوربى: "هذه قد تكون بداية جيدة له وأود أن أرى وجهه أيها الغلام أحب هذا! وسوف يعود فأنا أريده".

أحد الأشياء التى تحدثوا عنها كانت الزيارة التى سيقومون بها إلى كوخها وقد رتبوا للزيارة كلها. وكانوا سينتقلون إلى هناك ويتناولون الغذاء فى الخارج بين الخضرة. وكانوا ليروا كل الأطفال الاثنى عشر وحديقة ليكون وما كانوا ليعودوا إلا بعد أن يشعروا بالتعب.

نهضت سوزان سوربى فى النهاية لتعود إلى المنزل وإلى السيدة ميدلوك، وقد حان الوقت لكى يعود كولن أيضًا على كرسيه المتحرك. ولكن قبل أن يذهب إلى كرسيه وقف بالقرب من سوزان وثبت عينيه عليها بنوع من الافتتان المحير. وفجأة أمسك بطية من عباءتها الزرقاء وتشبث بها بسرعة.

قال: "أنت بالتحديد ما أريد فأنا أتمنى أن تكونين أمي - كما أنت أم ليكون!".

فانحنى سوزان سوربى وجذبه بذراعيها الدافئتين إلى صدرها تحت العباءة الزرقاء - كما لو أنه كان أخًا لليون. وانهمرت الدموع سريعًا من عينيها.

قالت: "عزيزى الغلام، روح أمك تحوم فى هذه الحديقة. لا تستطيع أن تغادرها وأبوك سوف يعود إليك - وإلى أمك!".

الفصل السابع والعشرون

فى الحديقة

فى كل قرن منذ بدء الخليفة كانت تُكتشف أشياء جديدة. ولكن القرن العشرين شهد اكتشافات مذهلة أكثر من أى قرن مضى. بل إن هذا القرن الجديد سيُظهر للنور مئات العجائب. فى البداية يذهب الناس إلى تكذيب فكرة حدوث شىء جديد غريب، ثم يتمنون إمكانية حدوثه، ثم يرون بأنفسهم إمكانية حدوثه، ثم يحدث هذا الشىء، ويتساءل الناس لماذا لم يحدث قبل ذلك بقرون! ومن الأشياء الجديدة التى بدأ الناس فى اكتشافها فى القرن العشرين هو أن الأفكار— مجرد الأفكار— يمكن أن تكون قوية كالبطاريات الكهربائية، أو مفيدة كضوء الشمس، أو ضارة كالسم. وإن السماح لفكرة حزينة أو سيئة بدخول عقلك لهو بنفس خطورة السماح لجرثومة الحصبة أن تسكن جسدك، فإنك إن تركتها تسكن داخلك فلربما لا تستطيع أن تشفى منها نهائياً.

وعندما كان عقل السيدة مارى ممتلئاً بالأفكار البغيضة عن الأشياء التى تكرهها والآراء السلبية عن الناس بجانب إصرارها على عدم السماح لأى شىء بإسعادها أو إثارة اهتمامها، فقد أصبحت طفلة بائسة، ضيقة الخلق، ذات وجه أصفر شاحب. وكانت الظروف فى صالحها كثيراً، وكانت تدفعها لتسلك طريق الخير لنفسها، غير أنها لم تعى ذلك. ولكن عندما امتلأ عقلها تدريجياً بالتفكير فى طيور أبى الحناء وأكواخ المستنقعات التى قد امتلأت بالأطفال، وعمال البساتين كبار السن معكروى المزاج، والخادومات الصغيرات فى منازل يوركشاير، بالإضافة إلى وقت الربيع الذى تزدهر فيه حدائق سرية يوماً بعد يوم، وولد ممن يعيشون فى هذه المستنقعات و"المخلوقات" التى معه، زال أى فراغ كان متاحاً للأفكار السلبية التى أثرت فى كبدها وهضمها للطعام، وغيّرت من كونها شاحبة اللون متعبة البدن.

على حين حبس كولن نفسه فى غرفته ولم يفكر إلا فى مخاوفه وضعفه وبغضه للناس الذين كانوا ينظرون إليه، وامتلاً خاطره كل ساعة بالأشخاص ذوى الظهر الأحدب وشبح الموت المبكر، مما جعله يتحول إلى شخص هستيرى موسوس بالمرض إلى حد الجنون؛ إنه لم يكن يعرف شيئاً عن ضوء الشمس والربيع، ولم يدر بخلده أيضاً أنه بإمكانه أن يتعافى وأن يقف على قدميه إذا حاول ذلك. ولكن عندما بدأت الأفكار الجديدة الجميلة فى إزاحة الأفكار القديمة المقيّنة، بدأت الحياة تدب فيه من جديد، وعاد الدم يجرى فى عروقه، وجرت الصحة والقوة فيه كالسيل. كانت تجربته العلمية عملية فى الحقيقة، وكانت أيضاً بسيطة ولم يكن ثمة شىء غريب أو من قبيل الصدفة فيها على الإطلاق. فمن الممكن أن تحدث أشياء أكثر غرابة

من هذا بكثير لأى شخص تداهمه فكرة سيئة أو مثبطة ثم لا يلبث أن يتذكر فى الوقت المناسب فيستبدل بها أخرى جميلة لترفع من حماسه وشجاعته وإصراره، إذ لا يمكن الجمع بين الشيء ونقيضه فى مكان واحد. كما يقول الشاعر:

لا ينبت الشوك فى مكان، صاحبي تزرع فيه الورد فى كل جانب

على حين كانت الحديقة السرية وطفلان معها يعودون للحياة من جديد، كان هناك رجل يهيم على وجهه فى بعض الأماكن الخلابة البعيدة فى المضائق النرويجية^(*) وأودية سويسرا وجبالها؛ إلا أن هذا الرجل قد ملأ عقله بالأفكار المظلمة والحزينة طوال عشر سنوات كاملة. لم يكن شجاعاً، ولم يحاول أن يستبدل بهذه الأفكار السوداء أفكاراً أخرى. لقد مشى بجانب بحيرات زرقاء وتفكر فيها، لقد تمدد على سفوح الجبال وقد تدثرت بزهور الجنطيانا الزرقاء^(**) والتي كانت تتفتح فى كل مكان حوله، وقد امتلأ الجو بأريج الورد ونسماتها، وتفكر فيها. ومع ذلك فقد وقع إحساس رهيب بالحزن على هذا الرجل عندما كان سعيداً، بل وترك نفسه تمتلئ بالتشاؤم المظلم، ولم يسمح أبداً لأى بصيص من النور أن ينفذ إليها. لقد نسى بيته وواجباته وهجرهما، وعندما كان يتجول هنا وهناك كانت تعلوه ظلمة التشاؤم إلى حد أن كانت مجرد رؤيته وبالأعلى الآخرين؛ لأنه كان يسمم الجو جوله بالكآبة. كان لدى معظم الغرباء شك قوى أنه ربما

(*) منافذ ضيقة للبحر محوطة بمنحدرات عالية.

(**) نباتات معمرة ذات أزهار زرقاء مشرقة، تزدهر فى المناطق الشمالية المعتدلة وجبال الألب.

كان على حافة الجنون أو أنه كان يخفى جريمة نكراء كانت تلقى بظلالها على روحه. كان رجلاً طويلاً مسحوب الوجه منحنى الكتفين. وكان معروفاً فى سجلات الفنايق باسم: "أرتشييالد كرافن، من ضيعة ميسلثويت، يوركشاير- إنجلترا".

كان قد سافر كثيراً منذ أن رأى السيدة مارى فى حجرة مكتبه وقال لها إنه بإمكانه أن تحصل على "قطعتها من الأرض". كان قد رأى أجمل الأماكن فى أوروبا ولكنه لم يمكث فى أى مكان أكثر من بضعة أيام. كان يختار أبعد الأماكن و أكثرها هدوءاً فلقد تسلق الجبال الشاهقات التى تناطح قممها السحاب، وكان ينظر تحته إلى الجبال الأخرى والتى عندما كانت الشمس تشرق عليها وتمسها بضوئها كان يخيّل إليه أن العالم كان يولد من جديد فى هذه اللحظة.

ولكن كان يبدو أن النور لم يمس روحه بتاتاً حتى كان ذات يوم أدرك فيه أنه ولأول مرة فى عشر سنوات حدث شىء غريب. كان فى وادٍ رائع فى منطقة تايرول السويسرية^(*) حيث كان يتجول وحيداً خلال هذا الجمال الفائق الذى كان كفيلاً أن ينتشل روح أى إنسان من الاكتئاب. إلا أن روحه كانت تأبى بالرغم من أنه كان قد قطع مسافة كبيرة وسط جمال الطبيعة الفتان. ولكن عندما أحس بالتعب أخيراً ألقي بنفسه ليرتاح على قطعة من الطحالب الكثيفة التى بدت وكأنها سجادة بالقرب من جدول ماء صغير صافى الماء بدا وكأنه سعيد بجريانه وسط الحشائش الخضراء الرطبة الغنية. كان ينبعث من هذا النهر الصغير أحياناً صوت يشبه الضحك الخفيض عندما

(*) المقاطعة الألبية غرب النمسا.

تخر مياهه فوق الصخور وحولها. رأى الطيور تأتي وتغمس رؤوسها فيه لتشرب منه، ثم تنفض أجنحتها وتطير بعيداً. كان هذا الجدول يبدو وكأنه كائن حي إلا أن صوته الخفيض زاد من إحساسك بهدوء الوادى الذى كان غارقاً فى غياهب السكون.

على حين كان يحدق أرتشيبالد كرافن فى صفاء المياه الجارية أحس أن عقله وجسده كانا يهدآن تدريجياً كهدوء الوادى نفسه. تساءل إن كان ذلك يعنى أنه سيخلد للنوم ولكن لا. جلس وحملق فى المياه التى لمعت تحت بريق الشمس وبدأت عيناه تريان أشياء تنمو على حافتها، كانت هناك كتلة جميلة من أزهار "لاتنسني" الزرقاء التى نمت قريباً جداً من غدير الماء حتى ابتلت أوراقها، وجد نفسه ينظر إلى تلك الأزهار وتذكر أنه نظر إلى مثل هذه الأشياء منذ سنين عديدة. كان فى الواقع يتأمل جمالها اللطيف وروعة اللون الأزرق الذى جمل مئات من هذه البراعم الصغيرة المتفتحة. لم يدر أن مجرد هذه الفكرة البسيطة كانت تملأ عقله ببطء، ولكن ملأته عن آخره حتى أزاحت كل الأشياء الأخرى بلطف كأن غديرًا عذبًا صافيًا قد نبع فى بركة راكدة، ثم أخذ ينبع وينبع حتى أزاح المياه السوداء بعيداً. ولكن لم يكن يفكر فى هذا بالطبع، إنما أدرك أن الوادى بدا وكأنه يهدأ شيئاً فشيئاً عندما جلس وحملق فى الأزهار ذات اللون الأزرق البهيج الرقيق. لم يكن يعلم كم مكث هناك وما الذى كان يحدث له، ولكن تحرك أخيراً كأنه يستيقظ ونهض ببطء ووقف فوق "سجادة الطحالب" وأخذ نفساً طويلاً وعميقاً لكن رقيقاً وتعجب من نفسه. بدا وكأن شيئاً قد أطلق وتحرر من القيود ببطء شديد داخله.

"ما هو؟" تساءل فى همس ومرر يده على جبهته، "أشعر تقريباً كأننى... على قيد الحياة!".

لا أعرف بما فيه الكفاية عن روعة الأشياء التى لم تكتشف بعد لى أستطيع شرح كيف حدث ذلك له، ولا يستطيع أى أحد ذلك. لم يفهم نفسه على الإطلاق، ولكنه ظل يتذكر هذه الساعة العجيبة لشهور بعد ذلك عندما رجع إلى "ميسلثويت" واكتشف بمحض الصدفة أن فى نفس ذلك اليوم دخل كولن الحديقة الخفية وصاح: "سأعيش للأبد، دائماً أبداً!".

ظل هذا الهدوء الرائع معه حتى بقية المساء، وخذل للنوم لينال قسطاً من الراحة، لكنه لم يشعر بطوله، ولم يكن يدرى بإمكانية الحفاظ عليه. فى الليلة التالية فتح الباب على مصراعيه لأفكاره الحزينة التى ما لبثت أن تدافعت بشدة ورجعت إلى عقله كالسيل. فغادر الوادى وهام فى طريقه مجدداً. ولكن كان من الغريب - كما كان يبدو له - أن تأتى عليه دقائق كانت ربما تصل إلى نصف الساعة يرتفع هذا الحمل الثقيل الأسود عن كاهله ولا يعلم لذلك سبباً وكان يدرك خلالها أنه رجل حى وليس رجلاً ميتاً. لم يكن يدرى لماذا يرجع ببطء إلى الحياة مع الحديقة.

عندما ولى الصيف بلونه الذهبى وحل محله الخريف بلونه الذهبى الفاقع، ذهب إلى بحيرة كومو(*) حيث وجد جمال حلم. قضى أيامه فى تأمل زرقة البحيرة الصافية، أو فى التجول بين الحشائش الخضراء

(*) بحيرة جميلة فى منطقة الألب شمال إيطاليا.

والنباتات الكثيفة الرقيقة التى ملأت التلال واستمر فى السير حتى أرققه التعب واضطره للنوم. وقد عرف حينئذ أن نومه بدأ يتحسن ولم يعد يتخوف من الأحلام المرعبة.

قال فى نفسه: "ربما كان جسدى يقوى أكثر". كان جسده فعلاً يقوى ولكن كانت روحه أيضاً تقوى أكثر بفضل السويغات الهادئة النادرة التى تغيرت فيها أفكاره. بدأ يفكر فى ميسلثويت وعودته إلى بيته. راوحت ذهنه تساؤلات غامضة بين الحين والحين عن ابنه وسأل نفسه كيف سيشعر عندما يرجع ويقف من جديد بجانب السرير المنحوت ذى القوائم الأربع، وينظر إلى ذلك الوجه الشاحب ذى الملامح الحادة أثناء نومه، وإلى هذه الأهداب السوداء التى تحف عينيه المغلقتين والتى كانت تفرعه، وكان ينكمش منها.

وقد مشى كثيراً فى أحد هذه الأيام البهيجة، وعندما عاد وجد القمر عاليًا مكتملاً وقد حول العالم كله إلى ظلال فضية وأرجوانية، ولم يستطع مقاومة روعة هدوء البحيرة والشاطئ والغابة فلم يدخل الفيلا التى كان يعيش فيها، بل تمشى قليلاً إلى مصطبة معروشة صغيرة على حافة البحيرة وجلس على مقعد هناك وأخذ يتنفس هذه الروائح السماوية فى تلك الليلة. وشعر بهذا السكون العجيب يتسلل إليه ويسيطر عليه تدريجياً حتى غلبه النوم.

لم يعلم متى راح فى نومه ومتى بدأ الحلم الذى بدا واقعياً جداً لدرجة أنه ظن أنه كان حقيقة، بل إنه تذكر بعد ذلك كم كان يتخيل أنه كان متيقظاً واعياً فى أثناء هذا الحلم. اعتقد أنه على حين كان جالساً يستنشق عبير

الأزهار فى آخر الليل و يستمع لاصطدام المياه بقدميه، كان هناك صوت ينادى. كان صوتاً جميلاً، واضحاً، سعيداً ولكنه كان بعيداً. بدأ الصوت بعيداً جداً ولكنه سمعه واضحاً جداً كأن الذى يتكلم جالس بجانبه.

"آرتشي! آرتشي! آرتشي!" كان هذا نداء الصوت الذى ازداد جمالاً ووضوحاً وكرر: "آرتشي! آرتشي!"

ظن أنه هب واقفاً على قدميه دون فزع، كان صوتاً حقيقياً وبدأ كأنه طبيعى لا بد له أن يسمعه. "ليلياس! ليلياس! ليلياس!" أجاب بدوره: "ليلياس! أين أنت؟"

"فى الحديقة" أجاب الصوت وكأنه يصدر من عود نهبى: "فى الحديقة!"

ثم انتهى الحلم بعد ذلك، ولكنه لم يستيقظ فقد راح فى نوم عميق جميل طوال تلك الليلة الجميلة. وكان صباحاً رائعاً عندما استيقظ أخيراً ليجد خادماً واقفاً عنده يحدق فيه. كان خادماً إيطالياً وكان معتاداً مثل بقية الخدم فى الفيلا أن يتقبل مناقشة أى تصرف غريب يصدر عن سيده الأجنبى. لم يكن أحد يعرف متى سيخرج ومتى سيعود وأين سينام، وما إذا كان سيتجول فى الحديقة، أم سيرقد فى القارب فى البحيرة طوال الليل. كان الرجل يحمل طبقاً به بعض الرسائل وانتظر بهدوء حتى أخذها السيد كرافن الذى وضعها فى يده وجلس ليضعه دقائق ينظر إلى البحيرة عندما غامر الرجل. كان ما زال يغشاه سكونه الغريب وشيء آخر- أحس بخفة

وكان الشيء الوحشى الذى حدث لم يحدث فى أثناء تفكيره - وكان شيئاً ما
تغير. كان يتذكر الحلم، الحلم الحقيقى... الحلم الحقيقى.

"فى الحديقة !" قال مستغرباً من نفسه: "فى الحديقة ! ولكن الباب
مغلق والمفتاح مدفون فى مكان سحيق".

عندما لمحت عيناه الخطابات بعد عدة دقائق وجد أن الخطاب الذى فوق
الآخرين كان مكتوباً بالإنجليزية وأنه مرسل من يوركشاير. كان مكتوباً
بوضوح بخط يد امرأة لم يعرفها، وعندما فتحه لم يكن ليفكر من الكاتب
ولكن الكلمات الأولى لفتت انتباهه فى الحال:

"سيدى العزيز:

أنا سوزان سوربى التى جمعت شجاعته مرة لتتحدث إليك فى
السبخة عن الأنسة ماري، وسأستجمع جرأتى لأتحدث مجدداً. لو سمحت
لى يا سيدى، سأعود للبيت لو كنت فى مكانك، وأعتقد أنك ستكون سعيداً لو
عدت، ولو سمحت لى يا سيدى، أعتقد أن زوجتك كانت ستطلب منك العودة
لو كانت هنا.

خادمتك المطيعة:

سوزان سوربى".

قرأ السيد كرافن الخطاب مرتين قبل أن يرده إلى ظرفه، وظل يفكر
فى الحلم الذى رآه.

"سوف أعود إلى ميسلثويت"، ثم قال: "سأذهب فوراً".

ثم أخذ طريقه خلال الحديقة إلى الفيلا وأمر "بتشر" أن يجهز لعودته إلى إنجلترا.

عاد ليوركشاير فى بضعة أيام، ووجد نفسه خلال رحلته الطويلة بالقطارات يفكر فى ابنه أكثر من أى مرة خلال السنوات العشر المنصرمة التى تمنى أن ينسأه فيها، أما الآن فقد كانت ذكريات ابنه تتدفق باضطراب إلى عقله رغم أنه لم يكن ينتوى التفكير فيه. فقد تذكر الأيام الحزينة التى كان يهذى فيها كالمجنون لأن الطفل قد بقى حياً فى حين ماتت أمه. لقد رفض حتى أن يرى الطفل الصغير، وعندما ذهب أخيراً ليلقى نظرة عليه كان فى قمة البؤس والضعف إلى حد أن كل من رآه كان متأكداً أنه سيموت بعد أيام معدودات، ولكن الأيام مرت لتخيب ظن الذين كانوا يعتنون به فقد عاش الولد وتيقن الجميع أنه سيكون كائنًا مشوهاً ومعوفاً.

لم يكن يقصد أن يكون أباً سيئاً ولكنه لم يحس بمشاعر الأبوة تجاه ذلك الطفل على الإطلاق. لقد أحضر الأطباء والمربيين والمرضات وكل وسائل الترف لابنه، ولكنه كان ينكمش من مجرد رؤيته ثم دفن نفسه فى بؤسه. فى أول مرة يعود فيها إلى ميسلثويت بعد غياب دام عام، رفع إليه ذلك الكائن الصغير البائس عينيه الرماديتين الكبيرتين فى وهن وقتور بجفنيه الأسودين، كانا يشبهان ولا يشبهان إطلاقاً فى نفس الوقت العينين السعيدتين اللتين كان يعشقهما، لم يتحمل النظر إليهما، وأشاح بوجهه بعيداً كأنما يغشى عليه من الموت. ولم يكد يراه بعد ذلك إلا فى نومه، ولم يعرف عنه شيئاً إلا أنه بات من المؤكد أنه سيصبح معوفاً ذا مزاج نكد وهستيرى إلى حد الجنون، ولا سبيل إلى تجنب نوبات غضبه الضارة به

هو إلا تلبية طلباته فى كل التفاصيل التى يريدها.

لم يكن تذكر كل هذا بالشئ الذى يثير الحماس، ولكن على حين كان القطار يأخذه خلال الممرات الجبلية، والسهول الذهبية بدأ الرجل "العائد للحياة" يفكر بطريقة جديدة وكان يستغرق باستمرار فى تفكير طويل وعميق.

"ربما كنت مخطئاً طوال هذه السنوات العشر"، قال لنفسه: "عشر سنوات مدة طويلة. ربما فات أوان إصلاح أى شئ. لقد فات الأوان بالتأكد. ما هذا الذى كنت أفكر فيه؟!"

كان هذا بالطبع السحر الضار... أن تستهل بقولك: "فات الأوان". حتى هذه الكلمة ربما كان يمكن أن يسمعها من كولين نفسه، لكنه لم يكن يعلم شيئاً عن السحر، أسود كان أو أبيض. كان ينقصه تعلم ذلك. تساءل إن كانت سوزان سوربى قد تشجعت وكتبت إليه ليس لشئ إلا أن عاطفة الأمومة لديها جعلته تدرك سوء حالة الولد الصغير كأن يكون قد أصيب بمرض مميت مثلاً. لو لم يكن تحت تأثير سحر الهدوء الأخاذ لاستبد به البؤس والشقاء عن ذى قبل، ولكن السكون قد صاحبه نوع من الشجاعة والأمل، فبدل أن يرضخ لأسوأ الأفكار وجد نفسه يحاول التفكير فى أشياء أحسن.

قال فى نفسه متسائلاً: "هل من الممكن أن تكون قد رأته بأنه بإمكانى أن أنفعه وأن أتحكم فيه؟ سأذهب لأراها فى طريقى إلى ميسلثويت".

ولكن فى أثناء عبوره السبخة أوقف العربى عند المنزل حيث تجمع سبعة أطفال أو ثمانية كانوا يلعبون فى مجموعة فحيوه بانحناءات ودودة دمتة وأخبروه أن أهمهم قد ذهب إلى جانب السبخة الآخر فى هذا الصباح الباكر لتساعد امرأة رزقت بمولود جديد. ثم تطوعوا فقالوا إن يكون "خاصتهم" فى الضيعة حيث يعمل فى إحدى المزارع أياماً عدة كل أسبوع.

نظر السيد كرافن إلى هذه المجموعة من الأجسام الصغيرة القوية، والوجوه المستديرة ذوات الخدود المتوردة، ولكل واحد منهم طريقته الخاصة فى الابتسام، ثم انتبه إلى أنهم مجموعة من الأطفال الأصحاء الجديرين بالحب. ثم ابتسم إعجاباً بابتساماتهم الودودة وأخذ جنيهاً ذهبياً من جيبه وأعطاه لـ "ليزابيث إلين" التى كانت أكبرهم سنّاً.

قال لهم: "لو قسمتم هذا على ثمانية فسيكون نصيب كل واحد منكم نصف كراون".

ثم رحل بعيداً وسط هذا الجو من البسمات والضحكات وتبادل التحيات المهدبة وترك الأطفال خلفه فى نشوة يلكز بعضهم بعضاً بالكوع وهم يقفزون فى ابتهاج بالغ.

أعطاه السير خلال هذه السبخات الرائعة إحساساً عظيماً بالجمال والراحة، وأحس بدفع الرجوع إلى وطنه بعد أن فقد الأمل فى الشعور به مرة أخرى— ذلك الإحساس بجمال الأرض والسماء واللون الأرجوانى للغبار الذى يعلو من مسافة بعيدة فى الأفق؛ لماذا أحس بدفع وانشراح فى

صدره عندما اقترب أكثر من هذا البيت العظيم والعتيق الذى آوى أجداده لمدة ستمئة سنة؟ تساءل كيف غاسره فى المرة الأخيرة، وقد أخذته رعشة عندما تذكر حجراته المغلقة والولد الذى كان يرقد على السرير ذى القوائم الأربعة بستاثره المطرزة. أكان من الممكن أن يجده قد تحسن ولو قليلاً أو أن يتغلب على نفوره منه؟ كم كان حقيقياً هذا الحلم وكم كان رائعاً وواضحاً ذلك الصوت الذى رد عليه قائلاً: "فى الحديقة... فى الحديقة !".

قال فى نفسه: "سأحاول أن أجد المفتاح، سأحاول أن أفتح الباب. لا بد أن أفعل على الرغم من أننى لا أعرف لماذا".

عندما وصل إلى الضيعة بدا للخدم الذين استقبلوه بالمراسم المعتادة أنه قد تحسن وأنه لم يذهب إلى الحجرات البعيدة التى اعتاد أن يعيش فيها حيث كان يتشر يعتنى به، بل ذهب للمكتبة وأرسل للسيدة ميدلوك، التى أتت إليه وكان يغشاها شىء من الاهتمام والفضول والارتباك. سألتها: "كيف حال سيدك كولن يا ميدلوك؟".

"بخير يا سيدي" أجابت السيدة ميدلوك: "إنه... إنه مختلف، إلى حد ما".

تساءل: "أسوأ؟".

احمر وجه السيدة ميدلوك من الارتباك،

وحاولت أن تشرح: "حسنًا سترى يا سيدى أنه لم يستطع الدكتور كرافن أو المربية ولا حتى أنا أن نخرجه من حالته تلك".

"ولم"

"الحقيقة يا سيدى أن سيدى كولن ربما يكون بصورة أحسن ولكنه يتغير نحو الأسوأ. لا يمكن أن نفهم شهيته سيدى ولا مزاجه".

"هل أصبح غريبًا... غريب الأطوار أكثر؟" سأل سيدها وقد قطب جبينه بقلق.

"بالضبط يا سيدى، إن مزاجه يتعكر باستمرار مقارنة بما كان عليه. فقد يمكث فترة لا يأكل شيئًا على الإطلاق ثم بعد ذلك يقبل بنهم على الطعام، ثم يتوقف عن الأكل فجأة وترجع وجباته كما أحضرت له تمامًا لا يمسيها. ولعل أحدًا لم يخبرك يا سيدى لأنه كان لا يدع أحدًا يخرج به خارج المنزل أبدًا، ولقد عانينا من أشياء كثيرة تقشعر لها الأبدان إذا حاولنا أخذه على كرسيه: لأنه كان يدخل نفسه فى حالة من البؤس دفعت الدكتور كرافن إلى التبرؤ من أى محاولة لإجباره على الخروج. هذا يا سيدى وبدون سابق عهد، لم تمر فترة طويلة بعد واحدة من أسوأ نوبات غضبه، حتى أصر فجأة أن يخرج كل يوم بصحبة الأنسة مارى وديكون ابن سوزان سوربى الذى يستطيع دفع الكرسي. إنه مغرم بالأنسة مارى وديكون الذى أحضر حيواناته الأليفة، وصدقنى يا سيدى إنه مستعد أن يمكث خارج البيت من الصباح حتى الليل.

"كيف حاله؟" كان هذا هو السؤال التالي.

عندما يتناول طعامه بصورة طبيعية يا سيدى فإنك تظن أن وزنه يزداد، ولكننا نخشى أن يكون نوعاً من الانتفاخ ليس إلا؛ أحياناً يضحك بشكل غريب عندما يكون منفرداً مع الأنسة مارى، مع العلم أنه لم يكن معتاداً على الضحك أبداً. سيأتى الدكتور كرافن ليراك حالاً إذا سمحت له. إنه لم يكن مضطرباً بهذا الشكل إطلاقاً من قبل".

"أين السيد كولن الآن؟"، تساءل السيد كرافن.

"فى الحديقة سيدى. إنه دائماً فى الحديقة، ولا يسمح لأى مخلوق بشرى أن يقترب لكيلا ينظر إليه".

لم يسمع السيد كرافن كلماتها الأخيرة تقريباً.

تمتم: "فى الحديقة"، وبعد أن أرسل السيدة ميدلوك بعيداً وقف وأخذ يردد: "فى الحديقة !".

كان لا بد أن يبذل مجهوداً ليرجع للمكان الذى كان يقف فيه، وعندما شعر أنه عاد للأرض مرة أخرى، استدأر وخرج من الحجرة. ثم أخذ طريقه عبر الباب إلى الشجيرات وأكاليل الغار ومجارى المياه تماماً كما فعلت مارى من قبل. كانت النافورة تلعب وكان حولها أصص زهور الخريف البديعة. عبر المرح واتجه إلى المشى الطويل المتاخم للجدران التى تسلق عليها اللبلاب. لم يسرع فى مشيه بل كان متثدداً وتسمرت عينه على المشى، شعر وكان

شيئاً يشده إلى المكان الذى هجره منذ زمن بعيد ولكنه لم يعرف لماذا. تباطأت خطاه حينما اقترب منه أكثر. كان يعرف مكان الباب بالرغم من أن اللبلاّب الكثيف قد غطاه، ولكن لم يعرف بالتحديد مكانه... ذلك المفتاح المدفون.

توقف ووقف مسمراً فى مكانه، وأخذ ينظر حوله وبمجرد أن توقف بدأ يركّز بأذنيه ويتساءل إن كان يمشى فى حلم.

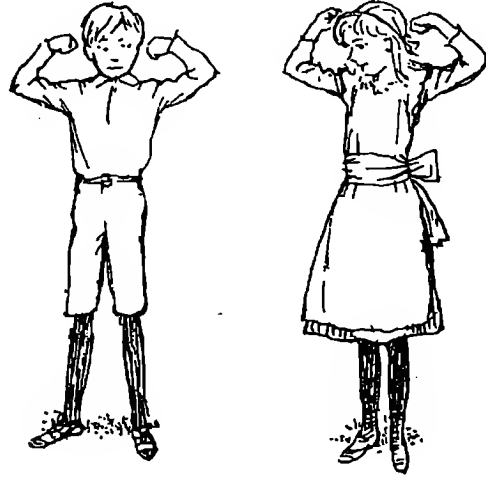
تدلدل اللبلاّب كثيفاً على الباب وكان المفتاح مدفوناً تحت الشجيرات، لم يعبر كائن بشرى هذا المدخل طوال السنوات العشر الماضية، وإن كانت هناك أصوات داخل الحديقة. كانت أصوات لأقدام تجرى وتتشاجر وتطارّد بعضها هنا وهناك تحت الأشجار. كانت أصواتاً بشرية غريبة وكانت مقهورة وخفيضة، وكأنها صياح وصرخات سعادة مكبوتة. كانت فى الواقع تشبه ضحكات الأشياء الصغيرة، ضحكات الأطفال التى لا يمكن السيطرة عليها وكأنهم يجاهدون لئلا يسمعونهم أحد ولكن ضحكاتهم انفجرت عالية لدقائق بعد أن استبدت بهم الإثارة والمرح. فيم كان يفكر بحق السماء؟! ماذا سمع بحق السماء؟! أكان يفقد صوابه ويظن أنه يسمع أصواتاً لا تعيها الأذن البشرية؟! هل كان هذا معنى الصوت البعيد الواضح؟.

وقد حانت اللحظة إذن... اللحظة التى نسيت فيها هذه الأصوات أن تسكت نفسها. تسارع فيها جرى الأقدام، فى اتجاه باب الحديقة. كانت هناك أنفاس سريعة وقوية لأطفال صغار ونوبة هائجة من الضحك والصياح لا يمكن احتواؤها. وانفتح الباب الذى فى الجدار على مصراعيه، وتأرجح غطاء اللبلاّب الكثيف إلى الخلف، واندفع صبي صغير خلاله بأقصى سرعة ودون أن يرى ذلك الدخيل إلى أحضانه.

كان السيد كرافن قد فتح ذراعيه فى الوقت المناسب تمامًا لينقذه من السقوط بعد ارتطامه به دون أن يراه. واندesh لذلك كثيرًا، وعندما أمسك به لينظر إليه فى استغراب، كان يحاول أن يلتقط أنفاسه.

كان صبيًا طويلًا ووسيمًا، وكان يشع بالحياة ورسم جريه لونًا مشرقًا ونشاطًا على وجهه. دفع بشعره الكثيف إلى الوراء من على جبهته ورنأ بعينيه الرماديتين العجيبتين إلى أعلى، (واندفع صبي صغير خلاله بأقصى سرعة) وقد ملئنا بضحك صبيانى وحفتا بأهداب سوداء مثل شراريب القماش. لقد كانتا العينين اللتين جعلتا السيد كرافن يلهث ليلتقط أنفاسه.

تلعثم قائلا: "من... ماذا. من!"



لم يكن هذا ما توقعه كولن، لم يكن هذا ما خطط له. لم يفكر أبدًا فى مثل هذا اللقاء، ولكنه كان أحسن حتى من مقدرته على الجرى بهذه السرعة التى مكنته حتى. من كسب السباق. شب لأعلى ليبدو فى أطول صورة يستطيعها. أما مارى التى كانت تجرى معه والتى اندفعت خلال الباب أيضًا فكانت تعتقد أنه استطاع أن يبدو أطول من أى وقت مضى.

"أبي" صاح قائلًا: "أنا كولن. أنت لا تصدق ذلك. أنا نفسى لا أكاد أصدق ذلك. أنا كولن".

لم يفهم ما يعنى أبوه تمامًا مثل السيدة ميدلوك عندما أخذت تتمتم بسرعة: "فى الحقيقة! فى الحقيقة!".

"نعم". واستطرد كولن بسرعة: "إنها الحقيقة التى فعلت ذلك وكذلك مارى ويكون وهذه الكائنات والسحر. لا أحد يعرف ذلك، لقد جعلنا ذلك سرًا لنبوح به لك عندما تأتى. إننى بخير وأستطيع أن أسبق مارى وسأصبح رياضيًا".

قال ذلك كله كصبي قوى معافى، تورد وجهه والتبست كلماته من لهفته الشديدة ورفرفت روح السيد كرافن الذى لم يصدق من كثرة الفرح. مد كولن يده ووضعها على نراع أبيه.

"ألست سعيدًا يا أبى؟"، ثم قال فى النهاية: "ألست سعيدًا؟، سوف أعيش دومًا وللأبد!".

وضع السيد كرافن يديه على كتفى الصبى وأمسك به، كان يعلم أنه لن يجرؤ على الكلام للحظات.

"خذنى إلى داخل الحديقة يا بني"، أخيراً نطقت شفتاه: "واحك لى كل شيء عن ذلك".

ثم أخذوه إلى داخل الحديقة.

كان المكان غنياً بألوان الخريف المختلفة مثل الذهبى والأرجوانى والأزرق المائل للبنفسجى والقرمزي المتوهج، وكانت هناك أيضاً حزم من السوسن والزنايق التى تأخر إزهارها قد وقفت سوياً؛ وكان لونها أبيض صافياً أو أبيض مشوباً بحمرة دكناء. تذكر جيداً متى زرعت أولهن وكان هذا الوقت من السنة تحديداً ميعاد تفتحهن وبلوغ مجدهن. تسلفت الأزهار الحديثة وتدللت ثم انعقدت بعضها على بعض وزادت أشعة الشمس من اصفرار الأشجار مما أضفى شعوراً أنهم كانوا واقفين فى معبد معرش من الذهب. وقف القادم الجديد صامتاً تماماً كما فعل الأطفال عندما حضروا هذا اللون الأشيب؛ تلفت حوله ثم قال:

"ظننت أنى سأجدها ميتة".

قال كولن: "كذلك ظننت مارى فى البداية، ولكنها رجعت للحياة من جديد".

ثم جلسوا جميعاً تحت شجرتهم باستثناء كولن الذى أراد أن يحكى
القصة واقفاً.

كان أرتشيالدي كرافن يعتقد فى قرارة نفسه أن هذا أغرب شئ سمعه
كما حكاها هذا الصبى بذلك الحماس الطفولى. الغموض والسحر والكائنات
المفترسة، اللقاء العجيب فى منتصف الليل، حلول الربيع، والغضب الشديد
من جراء الكبرياء المجروح الذى جر الراجا (الأمير) الصغير على قدميه
ليتحدى بن وذرستاف فى وجهه. هذه الرفقة الغريبة، تمثيل الأدوار، والسر
العظيم الذى حافظوا عليه بعناية بالغة. ضحك المستمع حتى اغرورقت عيناه
بالدموع، وإن كانت الدموع أحياناً تملأ عينيه حتى ولو لم يضحك. كان هذا
الرياضى والمحاضر والمكتشف العلمى مخلوقاً بشرياً صغيراً أتضحك له
وتحبه وقد تعافى من مرضه.

"أما الآن" قال فى نهاية القصة: "فلم تعد هناك حاجة أن نكتم هذا السر
أكثر من ذلك. أنا متأكد أن نوبات من الرعب ستتملكهم عندما يرونى، ولكنى لن
أقعد على الكرسي مرة أخرى، سوف أرجع معك ماشياً يا أبى... إلى البيت".

كان بن وذرستاف يباشر مهامه فى الحداثق معظم الوقت، ولكن فى
هذه المناسبة تحجج بحمل بعض الخضروات إلى المطبخ، وبما أن السيدة
ميدلوك قد دعتة ليشرب كأساً من الجعة فى صالة الخدم، فقد كان فى المكان
الذى شهد وقوع الحدث الأكثر إثارة فى ضيعة ميسلثويت خلال الجيل
الحالى، كما كان يتمنى.

كان المرح أيضاً يظهر من خلال إحدى الشرفات التى كانت تطل على
الفناء، وتمنت السيدة ميدلوك التى علمت أن بن قد أتى من الحقائق أن يكون
قد رأى سيده ولقاءه ابنه السيد كولن ولو عن طريق المصادفة.

سألته: "هل رأيت أياً منهما يا وذرستاف؟".

أزاح بن كوب الجعة من على فمه ومسح شفتيه بظهر كفه وأجاب
بخبت ظاهر: "نعم، رأيتهما".

تساءلت السيدة ميدلوك: "كلاهما؟".

"كلاهما"، أجاب بن وذرستاف واستطرد: "شكراً جزيلاً سيدتى،
أستطيع أن أحتسى كوباً آخر منها".

ملأت السيدة ميدلوك كوباً آخر من الجعة حتى سال وتساءلت فى لهفة:
"أكانا معاً؟".

"معاً يا سيدتى"، ثم فرغ بن نصف كوبه الجديد فى جرعة واحدة.

"أين كان السيد كولن؟ كيف كان يبدو؟ ماذا قالاً لبعضهما؟".

قال بن: "لم أسمع ذلك، فقد كنت على السلم الخشبى فقط أنظر من
فوق الجدار. ولكن دعينى أقل لك هذا: كانت هناك أشياء تدور فى الخارج
لم تعلموها أنتم يا من فى المنزل، والأشياء التى ستعرفينها، ستعرفينها
قريباً".

ولم تمضِ دقيقتان حتى بلع ما تبقى من الجعة ولوح بالكوب بكآبة
تجاه الشرفة المطلة على الشجيرات والتي كشفت جزءاً من المرج.

قال: "انظري إلى هناك لو كان لديك فضول. انظري ما هذا القادم
وسط الحشائش".

عندما نظرت السيدة ميدلوك رفعت يديها وأطلقت صرخة قصيرة
جعلت كل الخدم الذين سمعوها رجالاً ونساء يهرعون إلى صالة الخدم
ووقفوا يحملقون من الشرفة تكاد أعينهم أن تجحظ من رؤوسهم.

كان سيد ضيعة ميسلثويت يجتاز المرج، وكان يبدو بشكل لم يره كثير
منهم من قبل. وبجانبه فتى رافع رأسه في الهواء وقد ملئت عيناه بالضحك،
كان يمشى بقوة وثبات كأى صبي فى يوركشاير - إنه السيد كولن !.

النهاية

المؤلفة فى سطور:

فرانسييس هودجسون برنت Frances Hodgson Burnett روائية
ومسرحية إنجليزية، (١٨٤٩ – ١٩٢٤ م).

عرفت باهتمامها بأدب الأطفال ،ومن أعمالها :

- رواية هاورثر ١٨٧٩ م.
- رواية لوزينا ١٨٨٠ م.
- رواية الهمجى الجميل ١٨٨١ م.
- رواية فى أثناء الإدارة ١٨٨٣ م.
- رواية اللورد فونتلورى الصغير ١٨٨٦ م.

– رواية الأميرة الصغيرة ١٩٠٥ م.

– رواية الحديقة السرية ١٩١١ م.

وبالإضافة إلى ذلك كتبت مسرحية بعنوان (ازمر الادا) عام ١٨٨١م،
كتبتها بمساعدة الممثل وليام هوكر جليت .

وفى عام ١٨٨٦م نشرت رواية اللورد فونتلورى الصغير، فقد بيع من
الرواية فيما يتجاوز نصف المليون نسخة .

فى عام ١٩٩٨م حصلت على طلاقها من السيد برنت، وتزوجت مرة
أخرى من السيد ستيفن تاونسند، وكان فى عام ١٩٠٠م زواجها الثانى
من رجل أعمال لم يدم زواجهما أمداً طويلاً، حيث دام عامين فقط وحصل
طلاقهما فى عام ١٩٠٢م .

ومن أعمالها (سارة كرىو) فى عام ١٨٨٨م، ثم أعادت صياغتها
فى عام ١٩٠٥م، بعنوان الأميرة الصغيرة، كما لاقت مسرحيتها سيدة
أرستقراطية استحساناً وصدى كبيراً لدى القراء آنذاك، واعتبرت من
أفضل مسرح حياتها على الإطلاق، وأيضاً رواية الحديقة السرية ١٩١١م،
هى الرواية التى خلت فى قلوب الأطفال ولاتزال محبوبة لدى الأطفال، وفى
عام ١٩١٥م نشرت رواية الأميرة التائهة، نشرت فى كندا فى عام ١٩٢٢م
رواية رئيس بيت كومب .

(عمل الماركيزة) نشرت هذه الرواية فى عام ١٩١١م وذكرته الألبية
الإنجليزية نانسى متفورد بأنه من أفضل الكتب التى قرأتها كما ذكرته فى
روايتها (حب فى طقس قارص) .

فى عام ١٨٩٣م نشرت مذكرات شبابها تحت عنوان: (الأمر الذى
عرفت من قبل الجميع)، ومن منتصف عام ١٨٩٠م عاشت بشكل رئيسى
فى إنجلترا، ولاسيما فى قاعة مايثام العظيمة. عاشت فيها من عام ١٨٩٧
إلى ١٩٠٧م، حيث اكتشفت الحديقة السرية، بيد أنها غادرت إنجلترا إلى
الولايات المتحدة بعد أن حصلت على الجنسية الأمريكية فى عام ١٩٠٥ م .

المترجم فى سطور:

د . شريف الجيار

ناقد وأكاديمى مصرى من مواليد ١٩٧٠ م.

أستاذ مساعد النقد والأدب المقارن - قسم اللغة العربية وآدابها -
كلية الآداب - جامعة بنى سويف .

- حاصل على post doctorate فى النقد الأدبى والأدب المقارن من
مركز لغات وحضارات الشرق الأدنى Department of Near Eastern
Languages and Civilizations - جامعة شيكاغو - الولايات المتحدة
الأمريكية- (٢٠٠٩-٢٠١٠ م) .

- حاصل على فصلين دراسيين فى سياقات النقد الأدبى ونظريات
السرد والثقافة ، فى فصلى الكلاسيكيات و الثقافة - بقسم الأدب المقارن
وقسم اللغة الإنجليزية والأدب- جامعة شيكاغو- الولايات المتحدة
الأمريكية - شتاء ٢٠١٠ م.

- دكتوراه النقد والأدب المقارن - قسم اللغة العربية وآدابها - كلية
الآداب - جامعة عين شمس - مارس ٢٠٠٣ م ، بتقدير " مرتبة الشرف
الأولى ، مع التوصية بالطبع والتبادل مع الجامعات الأخرى " ، وكان عنوان

الرسالة " روايات إحسان عبد القدوس ذات الاتجاه النفسى ، ومصادرهما الأجنبية ، دراسة مقارنة فى التقنيات الفنية والتداخل الحضارى " .

- ماجستير فى الآداب (النقد الأدبى الحديث) - قسم اللغة العربية وأدائها - كلية الآداب - جامعة عين شمس - يناير ١٩٩٨ م - بتقدير ممتاز - وكان عنوان الرسالة " الظواهر الأسلوبية فى شعر إبراهيم ناجى " .

- رئيس الإدارة المركزية للمشروعات الثقافية والنشر (وكيل وزارة) ؛ بالهيئة المصرية العامة للكتاب .

- عضو لجنة الدراسات الأدبية واللغوية بالمجلس الأعلى للثقافة .

- عضو مجلس إدارة اتحاد كتاب مصر - ورئيس لجنة الشباب .

- مشارك فى العشرات من الندوات ، والعديد من المؤتمرات داخل مصر وخارجها .

- قدم محاضرات عدة عن الأدب العربى فى جامعتى : شيكاغو ، و جورج تاون ؛ بالولايات المتحدة الأمريكية .

- أقام العديد من المحاضرات عن الأدب العربى ، بعدة جامعات إندونيسية؛ ٢٠١٤م .

- أقام العديد من المحاضرات عن الأدب العربى؛ فى جامعات نيودلهى ، وجواهر لال نهرو ، والملية الإسلامية ، بنيودلهى - الهند؛ فبراير ٢٠١٥م .

– أشرف وناقش العديد من الرسائل العلمية تخصص النقد والأدب المقارن.

من مؤلفاته :

- شعر إبراهيم ناجي دراسة أسلوبية بنائية – دار الثقافة المصرية ٢٠٠٤م / الهيئة المصرية العامة للكتاب – ٢٠٠٨م .
- التداخل الثقافي في سرديات إحسان عبد القدوس (مدخل نقدي مقارن) – الهيئة العامة لقصور الثقافة – سلسلة كتابات نقدية – العدد ١٥٥ – ٢٠٠٥ م .
- السارد الإثنوجرافي في أدب جمال الغيطاني الروائي : رواية شطح المدينة نموذجاً .
- بلاغة السرد في الرواية النسائية السعودية .
- بنية السرد في رواية أيام الشتات لكamal رحيم .
- تجليات السارد في ذاكرة الوطن الروائية (الحضور والغياب) .
- رحلة الموت الفلسطيني " دراسة في رواية رجال في الشمس لغسان كنفاني " .

- أثر ألف ليلة وليلة فى السرد المصرى المعاصر؛ رواية ليالى ألف ليلة لنجيب محفوظ نموذجاً.

- رؤية " الشرق " وترجمة أدبه فى ظل ألف ليلة وليلة-هارتموت فاندرخ-ترجمة: شريف الجيار-المعهد الفيدرالى السويسرى للتكنولوجيا-
Swiss Federal Institute of Technology
جامعة شيكاغو- الولايات المتحدة الأمريكية

هذا المقال نشر فى : الكتاب السنوى للأدب المقارن والعام- مجلة
فصول-٢٠١٤م.

Yearbook of Comparative and General Literature, 48, 2000,Indiana
University, Bloomington, Indiana.-

- الخطاب الروائى وخصوصية النوع؛ دراسة فى " رواية موال
البيات والنوم " لخيري شلبي، الملتقى الدولى السادس للرواية- المجلس
الأعلى للثقافة- مصر - ٢٠١٥م.

التصحيح اللغوى : جمال عبد الحى
الإشراف الفنى : حسن كامل

إن رواية " الحديقة السرية " (1911م)؛ للروائية والمسرحية الإنجليزية " فرانسيس هودجسون برنت " (1849-1924م)، تمثل خطاباً روائياً كلاسيكياً متفرداً، بواقعتها الفنية التي تقدم تجربة سردية، مفعمة بالإنسانية، التي يتفاعل معها الصغير والكبير، ويفيد منها القارئ، في غرس مجموعة من القيم الإنسانية والأخلاقية، في نفوس أطفالنا؛ كالصداقة، والمودة، فضلاً عن قيم العمل والوعى الجماعى، وروح التعاون والقيم المعرفية، والبناء التربوى والتوازن النفسى، واكتشاف الهويات والمهارات الجديدة، والتجريب والمغامرة والاكتشاف، وإتاحة الفرصة أمام الطفل فى حل مشكلاته الخاصة، وتنمية مخيلته إلى غير ذلك من القيم التى تحفظ لهذه الرواية استمرارها فى وجدان الطفل والقارئ بشكل عام.

مكتبة
المرکز القومي للدراسات
٨٧